مَنِفِسْتُو الدِّيكِ النُّوبِيِّ

رواية

عبد العزيز بركة ساكن

مَنِفِسْتُو الدِّيكِ النُّوبِيِّ

المؤلف : عبد العزيز بركة ساكن

لوحات الغلاف للفنانين :

Maria Bründlinger

عصام عبدالحفيظ

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2018

رقم الإيداع : 28659 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-769-207-6

جميع حقوق الطبع محفوظه

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com

القاهرة – 2 شارع شريف– الدور

الخامس – مكتب 57

م : 01010490247

ت : 23963002(02)

إهداء:

إلى أمي مريم بت أبو جبرين

إلى الصديقات والأصدقاء: صلاح الأمين الصبير، نعمات خيري، عبد الله الدنقلاوي، ابتسام القشورى، ذو النون آدم، تهاني رُمبة، حافظ حسين، عبدالله ديدان، اسماء عثمان الشيخ. والي حبيتي الملكة أماني تور.

«يمكنني أن أقول للَحْظَةٍ:
تريَّثي قليلًا، ما أجملك!
إن أثَرَ أيامي الأرضية
لا يمكن أن يسقط في الآباد.»

— فاوست.

«يَا أَرْضَ حَفِيفِ الأَجْنِحَةِ الَّتِي فِي عَبْرِ أَنْهَارِ كُوشَ، الْمُرْسِلَةَ رُسُلًا فِي الْبَحْرِ وَفِي قَوَارِبَ مِنَ الْبَرْدِيِّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. اذْهَبُوا أَيُّهَا الرُّسُلُ السَّرِيعُونَ إِلَى أُمَّةٍ طَوِيلَةٍ وَجَرْدَاءَ، إِلَى شَعْبٍ مَخُوفٍ مُنْذُ كَانَ فَصَاعِدًا، أُمَّةِ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَدَوْسٍ، قَدْ خَرَقَتِ الأَنْهَارُ أَرْضَهَا. يَا جَمِيعَ سُكَّانِ الْمَسْكُونَةِ وَقَاطِنِي الأَرْضِ، عِنْدَمَا تَرْتَفِعُ الرَّايَةُ عَلَى الْجِبَالِ تَنْظُرُونَ، وَعِنْدَمَا يُضْرَبُ بِالْبُوقِ تَسْمَعُونَ. لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ لِيَ الرَّبُّ: «إِنِّي أَهْدَأُ وَأَنْظُرُ فِي مَسْكَنِي كَالْحَرِّ الصَّافِي عَلَى الْبَقْلِ، كَغَيْمِ النَّدَى فِي حَرِّ الْحَصَادِ.» فَإِنَّهُ قَبْلَ الْحَصَادِ، عِنْدَ تَمَامِ الزَّهْرِ، وَعِنْدَمَا يَصِيرُ الزَّهْرُ حِصْرِمًا نَضِيجًا، يَقْطَعُ الْقُضْبَانَ بِالْمَنَاجِلِ، وَيَنْزِعُ الأَفْنَانَ وَيَطْرَحُهَا. تُتْرَكُ مَعًا لِجَوَارِحِ الْجِبَالِ وَلِوُحُوشِ الأَرْضِ، فَتُصَيِّفُ عَلَيْهَا الْجَوَارِحُ، وَتُشَتِّي عَلَيْهَا جَمِيعُ وُحُوشِ الأَرْضِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تُقَدَّمُ هَدِيَّةٌ لِرَبِّ الْجُنُودِ مِنْ شَعْبٍ طَوِيلٍ وَأَجْرَدَ، وَمِنْ شَعْبٍ مَخُوفٍ مُنْذُ كَانَ فَصَاعِدًا، مِنْ أُمَّةٍ ذَاتِ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَدَوْسٍ، قَدْ خَرَقَتِ الأَنْهَارُ أَرْضَهَا، إِلَى مَوْضِعِ اسْمِ رَبِّ الْجُنُودِ؛ جَبَلِ صِهْيَوْنَ.»

- سفر إشعياء ١٨.

سِفْرُ المُلُوك

كان يحلِّق حول المكان لوقتٍ طويلٍ أو قصيرٍ أو عدمٍ لا يمكن قياسه بحسابات الموتى، قد يكون في سرعة البرقٍ أو في بطء الحَزَن. كان الديك يمضي به شَمالًا مع مجرى النيل، فوق هامات النخيل، وأشجار السنط، ومراكب الصيد، والحيوانات التي تشرب على شاطئيه، والبشر المتسكِّعين، والبنايات على جنبيه، السحابات فوقه، ويستطيع أن يرى الأسماك تسبح، والريح تمر، والرمال تتحرك، يستطيع أن يرى ما كان محجوبًا عنه في حياته الأولى، ويسمع همس النخلة للنخلة، وحديث الماء للشط، ومقالة الطائر للوردة، ونحيب الوقت وضحكته، وكان يمضي كالريح، أو مثل حركة مكونات الصخرة، كان خفيفًا وثقيلًا وباردًا جدًّا ومشتعلًا كالجحيم.

الجثةُ ترقد على السرير، ويلتفُّ حولها أفراد الأسرة المحزونون، وقلةٌ من الأصدقاء، وأقرباء زوجته «نصرة». في حقيقة الأمر لم يكن «فتح الله فراج» هنالك، لم تكن تلكَ الجثة المسجاة الآن على فراش الموت، الملفوفة بالكتان الأبيض، التي تفوح منها رائحة عطر السيد «علي الميرغني»، هي جثته. طالما لم يجرؤ أحد أفراد الأسرة أو المعزين على معرفة ما تحت القناع الشبيه بـ«فتح الله فراج»؛ فكانوا في عجلة من أمرهم لمواراته الثرى، وهي أيضًا ليست من عاداتهم أن يتأكدوا من أن ما تحت القناع ليس سوى مادةٍ ثقيلة، لا اسم ولا معنى ولا توصيف لها.

لقد أُرهق وتألَّم «فتح الله» كثيرًا في حياته منذ أن حصل على الثروة الفجائية الكبيرة، ممَّا جعل الجميع وعلى رأسهم أفراد أسرته المقربون يتمنُّون له الموت من أجل راحته؛ أيْ رحمة به، فما فائدة الحياة في معاناة مثل معاناته، ما لذَّتها وهي ألمٌ محضٌ وعذابٌ ثقيلٌ وجحيمٌ لا يُطاق؟ أمَّا «فتح الله فراج» في هذه اللحظة، فقد كان يمضي بعيدًا عن المدينة محمولًا على ظهر الديك، ليَفِي بعهده ويدفع ثمن الثروة التي وهبها له الديك في حياته، وفقًا للعقد الذي أُبرِم بينهما، العقد الذي

لم يقرأه، فهو أمِّيٌّ، كما أن العقد غير مكتوب، ولم يسمع به أو يرَه، ولكنه وقَّع عليه بمجرَّد أن دخل القبر النُّوبيَّ هو وصديقه «جبريل كيري»، واستوليا على منقولات المومياء النوبية: يقول العقد دون أية لغةٍ: «أن يفعل بي الديكُ ما يشاء في الحياة الدنيا، وأن يتصرَّف فيَّ حسب مشيئته أيضًا بعد موتي.»

وعندما علم بتفاصيل العقد من الديك فيما بعد عند الرجل الميت في مغارة جبل «عُضْو الكلب»، وأعطاه الفرصة في أن يتخلى عن المال ويعود فقيرًا كما كان، أو يقبل بالديك، فإن «فتح الله فراج»، لسوء حظه قَبِل بالديك؛ فلقد كان خوفه من الفقر كبيرًا، بعد أن ذاق طعم المال، ولذة الثراء، والحياة المنعَّمة السهلة الهانئة، حياة بلا أزمات أو حاجة أو ضنك، وقد خبر تلكَ الحياة التعسة المذلة من قبل.

أصبح «فتح الله» الآن مملوكًا للديك وحده وتحت رحمته، كما حدث لصديقه المرحوم «جبريل كيري» ولمئاتٍ آخرين قبلوا بالعقد بقيامهم بدخول القبور النوبية. ومَنْ كان مملوكًا للديك، وتحت رحمته فهو مملوكٌ للجدِّ الأعظم للأمكنة والأزمنة، والجدَّة العُظمى التي جاءت قبل النيل بل قبل اليابسة وقبل الجدِّ نفسه. عندما كانت بُحيرة «تيزيز» تغرق الكون الخاصَّ بالإنسان. وهو أيضًا الثروة التي سوف تقوم عليها مملكة الإنسان القادمة: سيحكمها المُلوك الأوائل الذي جلبوا الحضارة إلى الإنسانية وأخرجوا البشر من ظلام الكهف

إلى رحابة قلب الشمس. سيعودون مرةً أخرى أقوى وأجمل وأرحم وأكثر قسوة، وهم الآن يسيطرون على الوجود من مرقدهم الكبير بجزيرة «ناوا» مركز الكون.

كان «فتح الله فراج» لا يدرى — أو يدري — أنه محمولٌ على ظهر الديك، ولكنه يحسُّ بسرعة عبوره في الأمكنة والأزمنة. يعرف أنه يمضي بعيدًا جدًّا لنهايةٍ ما، في غيبوبة شبه تامَّة، وببعض الوعي، أو ربما بكامل الوعي والإدراك، لا يدري — ويدري أيضًا — بتلك الحالة. الوضع أقرب للحلم، والحقيقة مواراةٌ خلف ظلامات الظنون. ويعرف أيضًا أنه مات قبل لحظات، وأن المحمول الآن ليس سوى «فراج» افتراضيٍّ يوفِّي بعقدٍ وقَّعه مع ديكٍ غريب، قد يكون الشيطان نفسه أو الملاك أو الروح الحارسة للذهب والكنوز، أو قد لا يكون الديك شيئًا سوى ضميره هو، قد تكون نهايته الجحيم، ولا يظنُّ أن مصيرًا آخر سينتهي إليه، فما فعله به الديك في حياته لم يجعله يرجو خيرًا، بل ينتظر الأسوأ. إنه لم يقم بشرور كثيرة في حياته، سوى سرقة الذهب، وربما خيانة صغيرة قام بها في حقِّ صديقه «جبريل كيري»، بقية ذنوبه كانت صغيرة وعادية ويمكن أن تُغتفر، فهو مؤمن بالله وبرسوله، ولو أنه لا يعرف شيئًا في الدين، ولكنه كان يصلِّي معظم الأوقات ويذهب لصلاة الجمعة، ولم يطلب منه الديك أن يدنِّس المقدسات أو يترك الصلاة أو يكفر بالله، كما إن الديك لم

يكن مثل بعض الجنِّ الذي يمارس اللواط مع مخدوميه.

يستطيع «فتح الله فراج» وهو في هذه الحالة أن يرى ما حوله، ولو أن كلَّ شيء كان يمضي مثل الفيلم أمامه. منذ اللحظة التي مات فيها، ويمكنه أن يصف كيف توقَّفت حياته الأرضية عندما توقَّف قلبه عن النبض، ثمَّ توقَّف عقله، ثمَّ غرق في ظلام فجائيٍّ لثوانٍ معدودات، أو خُيِّل له ذلك، ثمَّ عبر تلكَ اللحظات السرمدية المظلمة. ولكنه كان يحلِّق حول جثته، ويرى كيف إن ولده كان يلقِّن الشهادتين تلكَ الجثة التي لم تعد هو أو تخصُّه، يهمس في أذنيها اللتين لم تكونا سوى آذانٍ صماء ربما قُدَّتا من الوهم، ويرى كيف إن ابنته و«نصرة» وغيرهما من الأشخاص تبدو على وجوههم الراحة ممزوجةً بالألم على فقده. كان يحلِّق حول المكان لوقتٍ طويلٍ أو قصيرٍ أو عدمٍ لا يمكن قياسه بحسابات الموتى، قد يكون في سرعة البرق أو في بطء الحَزَن. كان الديك يمضي به شَمالًا مع مجرى النيل، فوق هامات النخيل، وأشجار السنط، ومراكب الصيد، والحيوانات التي تشرب على شاطئيه، والبشر المتسكِّعين، والبنايات على جنبيه، السحابات فوقه، ويستطيع أن يرى الأسماك تسبح، والريح تمر، والرمال تتحرك، يستطيع أن يرى ما كان محجوبًا عنه في حياته الأولى، ويسمع همس النخلة للنخلة، وحديث الماء للشط، ومقالة الطائر للوردة، ونحيب الوقت وضحكته، وكان يمضي كالريح، أو مثل حركة مكونات

الصخرة، كان خفيفًا وثقيلًا وباردًا جدًّا ومشتعلًا كالجحيم.

عند مكانٍ يعرفه جيِّدًا في حياته السابقة، عند جزيرة «ناوا» وهي ما يُطلق عليها «جزيرة الروح» أو «واحة الروح»، ويعرف عنها حكاياتٍ كثيرةً وأساطير يشيب لها الولدان. هبط به الديك، انبثق في وسط الجزيرة جبل شامخ، وفي جانبٍ منه بوابةٌ بدت كما لو كانت بوابة قصرٍ عظيم، انفتحت البوابة مصدرةً صوتًا مثل هزيم الرعد، وعبرها دخلا، كان يمشي على رجليه، وهو عارٍ تمامًا، يتقدَّمه الديكُ، الذي يمشي في زهوٍ وخيلاء مثل طاووسٍ مغرور، كانت رياشه تلمع وتتلوَّن وتبدو بأشكال غريبة، وفي مرحلةٍ قادمةٍ انتصب الديكُ، وصاح صيحته تلكَ المُرعبة، التي يعرفها «فتح الله» تمامًا، وكانت تفجِّر مكامن الرعب فيه في حياته السابقة، الآن لا تعني له شيئًا، ولم تحرِّك فيه أية مشاعر، كانت كأن لم تكن. ربما لأن الموتى لا يخافون. ودار الديكُ مثل مروحةٍ عملاقةٍ من الريش، فتبعثرت رياشه في شكل عاصفةٍ ملوَّنةٍ لتغطِّي المكان كله، وتحجب الرؤية تمامًا، وبعد وقتٍ ما، تلاشى كلُّ شيء، وظهر الديك، وهو يتحوَّل تدريجيًّا إلى سيدةٍ جميلةٍ تلبس مثل المُلوك، إلى أن اكتملت هيئتها تمامًا، وتحوَّل المكان مع تحوُّلها التدريجيِّ إلى قاعةٍ ملكيةٍ عملاقةٍ شاسعة. في شكل دائرة، يجلس كلُّ ملوك الدولة النوبية على عروشهم. ملوكٌ وملكاتٌ لم يسمع بأكثرهم في حياته السابقة، ولكن الآن يعرفهم

بالاسم والأعمال والخوازيق والهزائم والنصر والضعف والقوة. ويستطيع أن يهتف بأسمائهم وأسمائهن — إذا أُتيح له الكلام — ملكًا ملكًا وملكةً ملكةً دون أية أخطاءٍ في الشخصية أو النطق:

الملك أواوا،

الملك ألارا،

الملك كاشتا،

الملك بيَّا،

الملكة أماني ريداس،

الملك شباكا،

الملك شبتاكا،

الملك تهارقا،

الملك تانوت أماني،

الملك أتلانيرسا،

الملك سنكامنسكن،

الملك أنلاماني،

الملك أسبالتا،

الملك يريكي أمانوتي،

الملك هارسيوتف،

الملك نستاسن،

الملك أركاماني-كو،

الملك أمانيسـلو،

الملك أرنخاماني،

الملكة شـناكداخيتي،

الملك تانيدأماني،

الملكة أماني ريناس،

الملكة أماني شـاخيتي،

الملك نتكاماني،

والملك شـيراكارير،

والملكة نَسرة.

وتصير السيدة — التي كانت الديك — الملكة «أماني تاري»، التي عرف عنها في هذه اللحظة أنها الملكة التي أوقفت عادة عروس النيل، تجلس على عرشٍ ملكيٍّ وثيرٍ وسط الملوك المحاطين بالوصيفات والمساعدين والخـدَّام، المشغولين بشئونهم وترتيب ملكهم. موقع عرشها قرب زوجها الملك «نتكاماني». أمام كلِّ ملكٍ عددٌ كبيرٌ من التماثيل الذهبية الكبيرة في شكل بشر، يسجدون أمام الملك. كان «فتح الله فراج» يرى نفسه عاريًا. وأشارت إليه الملكة «أماني تاري» أن يسجد، فسجد أمامها. لم ينظر «فتح الله فراج» إلى ما ورائه، وإلا لتعرَّف على التمثال الذي خلفه مباشرة، وربما عشرات

التماثيل الساجدة أمام المُلوك، فلقد قابل كثيرًا منهم في رحلته في البحث عن الذهب والثراء، لقد كانوا إمَّا تجارا وإمَّا عُمالًا ممن وقَّعوا عقوًدا مع الديك بدخولهم لقبور النُّوبة، وكان خلفه مباشرة صديقه المرحوم «جبريل كيري». ركع «فتح الله فراج» في صمت أمام الملكة «أماني تاري» حيث إنه لم يستطع الكلام منذ أن مات، ولو أنه يحسُّ ويسمع ويشمُّ ويرى ويدرك ويستجيب ويسجد في خشوع.

أحسَّ بالخدر يسري في جسده وهو يسجد، ثمَّ أخذت أطرافه تتجمَّد تدريجيًّا، ومن ثمَّ تتحوَّل إلى جثةٍ لامعة، ثمَّ صار كُتلةً من الذهب الخالص، كان لسانه (الذي يتحرَّك في قلقٍ كأنما يريد أن يقول شيئًا أو يصرخ) هو آخر ما تجمَّد وصار قطعة ذهبٍ مستطيلةٍ لامعةٍ وباردةٍ في فم بائس. عرف أخيرًا أنه أصبح ثروةً في مستقبل الكون الذين سيحكمه الملوك قريبًا جدًّا.

سِفْرُ الفُرْسَان

الفرسان السبعون من شعوبٍ تحتفي بالرجل حين يكون نحيفًا، ناشفًا كالعود، قويًّا وشجاعًا، ومحبًّا للنساء، ومُقَدِّرًا ومدركًا لقوَّتهن الساحرة في تحريك عظائم الأحداث في المجتمع، والرجل الذي لا يخشى النساء ليس باستطاعته أن يصنع مجدًا محترمًا يخصُّه، النساء هنَّ اللاتي يقفن عند بوابة المجد، يُدخلن من شئن، ويحرمن من شئن، وليس ذلكَ بقوَّتهن ولكن بكامل ضعفهن، إنهن يستثمرن الضعف لا أكثر، وما المخاطر التي يسير إليها الرجال السُّمر النحاف ذوو القامات الناشفة السبعون، إلَّا بإيحاءٍ من النساء.

عندما عبر الفرسان السبعون «نهر العرب»، كان الليل قد قضى ثلثيه، والقمر يطلُّ بوجهه الأسمر بين فروع أوراق أشجار «المهوقني» العملاقة، كرغيفٍ ضخم طازج مأكول نصفه. كانوا جميعًا على ظهور الخيل، يمتشقون أسلحةً نارية خفيفة، وهي رشاشاتٌ آليةٌ من طراز «كلاشنكوف»، ما عدا «جبريل»، فكان يحمل بندقيةً يسمِّيها الأهالي «بَاندُقُل»، وهي نصفُ صناعةٍ محلية، وكان يُظَنُّ أنها الأفضل والأضمن، على الرغم من أنها لا تُشحن إلَّا بطلقةٍ واحدةٍ فقط ثمَّ يُعاد تعبئتها مرةً أخرى بعد كلِّ استعمال، ولكن طلقتها الواحدة هذه لا تخطئ الهدف مُطلقًا، وإنما تدمِّره تدميرًا تامًّا، بل يُمكنها قتل فيلٍ كبيرٍ إذا أصابته تحت إحدى أذنيه. عيبها الوحيد هو أن مدى الإصابة المؤثِّرة لديها لا يتعدَّى الأربعين مترًا، ورثها عن جده «العمدة أحمد» المنشئ الأول لقرية «أولاد أحمد»، وهو قد أعطى نفسه لقب العمودية دون تعيين أو تزكية من سُلطات الإنجليز أو النظارة الشعبية. اكتسبها بفرسانه وقوة شكيمته وبنادق البَاندُقُل الشرسة، لذلك انتهت عُموديته بموته، ولم يكن أحدٌ من أحفاده بالجرأة والقوة الكافية التي تمكِّنه من الاستمرار في تلكَ العمودية

المُدَّعاة. كان فارسًا مشهورًا في كلِّ أنحاء «جنوب كردفان»، بل إن النساء غنين لفروسيته وشجاعته فيها وراء «بابنوسة» و«جنوب دارفور»، وقد تردَّد اسمه في أغنيات التُّمْتُم بمدينة «كوستي» في أوائل القرن العشرين.

كان الفرسان ينشِدون مرعى أبقار قبيلة «الدينكا»، هم لا يحبِّذون أية معركةٍ ولا يرغبون في الحرب أو الدخول في مواجهةٍ مع مسلحين، لأنهم يريدون أن يعودوا في ذات عددهم، لأن كلَّ معركة بها خسائر بشرية، حتى تلكَ التي ينتصرون فيها، إنهم لا يرغبون في أن يعودوا ليقيموا مأتمًا أو مآتمَ، ولا يدري كلٌّ واحد فيهم هل سيكون ذلكَ مأتمه هو أمْ مأتم غيره؟ كانوا يتصرَّفون كلصوصٍ جُبناء، أكثر من كونهم فرسانًا مقاتلين، وما دفعهم لغزوتهم هذه سوى الفقر الشديد الذي أعقب نفوق أبقارهم وانقطاع سُبُل العودة على تلكَ التي على قيد الحياة منها إلى «جنوب كردفان» في رحلة الصيف جنوبًا، إثر المعارك الدائرة هنالكَ بين قوات الحركة الشعبية والحكومة المركزية، وفقدانهم الأمل تمامًا في استردادها، فمن أجل حقِّ الحياة وحده سيُغِيرون على جيرانهم ويأخذون بعضًا من ماشيتهم، سيستخدمون ألبانها ولحومها وجلودها وعظامها، وثمن ما يُؤخذ إلى سُوق «المُجْلَد» منها، في مقاومة الموت والجوع، إنها سُلفة غير مُستردة، ودونها المُهج.

الفرسان السبعون من شعوب تحتفي بالرجل حين يكون نحيفًا، ناشفًا كالعود، قويًّا وشجاعًا، ومحبًّا للنساء، ومُقَدِّرًا ومدركًا لقوَّتهن الساحرة في تحريك عظائم الأحداث في المجتمع، والرجل الذي لا يخشى النساء ليس باستطاعته أن يصنع مجدًا محترمًا يخصُّه، النساء هنَّ اللاتي يقفن عند بوابة المجد، يُدخلن من شئن، ويحرمن من شئن، وليس ذلكَ بقوَّتهن ولكن بكامل ضعفهن، إنهن يستثمرن الضعف لا أكثر، وما المخاطر التي يسير إليها الرجال السُّمر النحاف ذوو القامات الناشفة السبعون، إلَّا بإيحاءٍ من النساء.

فأغنيةٌ غنَّتها الحَكَّامَةُ «سعدية بت أبشوك»، قالت فيها ضمن ما قالت، بلغةٍ عربيةٍ محليةٍ تعني أن «الرجال في القرية أصبحوا بدناء» وأنها «ستخضِّب أرجلهم بالحناء الجيدة.» يفهم الجميع ما لم تقله في الأغنية ولا تقصِد غيره: إن الرجال لم يذهبوا في طلب أبقارهم المُستبية، وتلكَ التي تقطَّعت بها السُّبُل في «جنوب كردفان»، وإنهم أيضًا لم يستعيضوا عنها بأبقار جيرانهم «الدينكا»؛ الأبقار ذوات القرون الطويلة، التي يحرسها فتيان القبيلة الشجعان بحرابهم السامَّة وفؤوسهم الحادة، وتركوا أطفالهم ونساءهم ضحايا الجوع والفاقة.

غنَّتها في زواج ابنتها «أمُّونَة»، بإيقاع محليٍّ لذيذٍ يسمونه «الشاشاي»، وكاد أن يرقص عليه الفتيان ويَحُكُّوا بكلماته حناجرهم وكأنهم ثيران هائجة، لكنهم عندما أدركوا معانيه القاسية المُرَّة،

تلكَ المعاني الدامية، كفُّوا عن الرقص، عضُّوا أصابعهم غضبًا، وفي الصباح ركبوا الأفراس واتجهوا نحو «نهر العرب»، ليصنعوا أمجادهم ويحتفظوا بسيرةٍ عطرة. هذا هو الخيار السهل والأهداف التي يعرفون كيف يتعاملون معها مُنذ قرنٍ مضى، وكان بإمكانهم أن يتجهوا شمالًا حيث عطبت الطرق بأبقارهم بين جيش الحكومة المركزية وجنود ومليشيات النُّوبة والبَقَّارَة بقيادة رجالات الحركة الشعبية. وتلكَ كانت سبيلًا يعشعش الموت في عرصاتها. وهم على كلِّ حالٍ مدنيون، والصراع الذي بينهم وبين القبائل المجاورة هو صراعٌ مدنيٌّ بحتٌ من أجل الحياة والسلام، ولو أنه في كثيرٍ من الأحيان يكون صراعًا مسلحًا ودمويًّا. وليسوا دعاة حربٍ وليسوا محترفي قتال، ولا خبرة عسكرية لهم أو حاجة في خوض حربٍ خاسرةٍ مع أحد الجيشين، بينما هم يَشُكُّون في أن أبقارهم ما زالت حيةً إلى تلكَ اللحظة، فالجيوش المحاربة مغرمةٌ بأكل اللحوم، وخاصَّةً تلكَ السائبة مثل أبقارهم التائهة الحزينة.

كانت الأبقار ما زالت في زرائبها الكبيرة «اللواك»، وحولها العشب مشتعلًا ويصدر دخانًا كثيفًا، ليطرد الذباب المضرَّ بصحتها والمؤذي أيضًا للرعاة. كان الرعاةُ عراةً تمامًا، تلتفُّ حول خصورهم النحيفة تمائم من الخرز الملون، وعلى معاصمهم حِلَقٌ من النحاس الأصفر، ولدى بعضهم مصنوعة من شعر ذيل الزرافى. كانت

أجسادهم النحيلة الطويلة المصقولة الرشيقة مغطاةً بطبقةٍ من الرماد، وهو كساءٌ يقيهم لسعات الحشرات الصغيرة وذباب البقر اللئيم، وجوههم لا يظهر منها سوى العيون والأفواه وفتحات الأنوف الكبيرة، فهي مخفيةٌ أيضًا تحت قناع الرماد السميك، يمتشقون حرابًا مطلية صفائحها بسمِّ الثعبان، ولديهم رشاشٌ آليٌّ واحدٌ ماركة «كلاشنكوف»، ولكن ليس به من الذخيرة سوى طلقتين، ينتظرون لحين مرور مليشيات الجيش الشعبيِّ بأراضيهم، وقد يتكرَّمون عليهم ببعض الذخيرة مقابل عجلٍ أو بعض اللبن الطازج، وأحيانًا دون مقابل، إذا وجدوا من لهم به صلة قرابة، أو كان من قريتهم، أو تربطهم به صلة نسبٍ ولو بعيد.

قضوا ليلة البارحة ساهرين في صراعٍ مريرٍ مع أسد الأبقار الأحمر الذي كان يصرُّ على أن ينال وجبة عشائه من موائدهم بالذات. كان جائعًا. ليس من عادتهم إطلاق الرصاص على الحيوانات المفترسة، إنهم يتشاءمون من ذلك، لذا استخدموا الذخيرة في تخويفه وإبعاده عن مواقع حيواناتهم، ولكن الحيوان المفترس لم يرتعب لذلك، فقد كان يخشى الحربة أكثر؛ لذا دخل الشبان معه في معركةٍ صغيرةٍ أصابت أسد الأبقار بجراحٍ بالغةٍ جعلته يرغب عن أبقارهم ويبحث عن موائدَ أسهل منالًا.

لم تكن المنازل بعيدةً عن «اللواك»، ففي الصيف دائمًا ما تكون

الأبقار قريبةً من المنازل التي هي قريبةٌ من مصادر المياه، أمَّا في الخريف فيهربون بها إلى المناطق العالية الأكثر جفافًا، تجنبًا للحشرات الطائرة والزاحفة، حيث تتكاثر في العُشب ومستنقعات المياه الراكدة.

الرعاة هم خمسة من الشبان، تقريبًا جميعهم في عمر واحد، الوشم الذي على معاصمهم يدلُّ على أنهم في هذا الصيف يبلغون العشرين، وهم أيضًا من أسرةٍ واحدةٍ كبيرةٍ ثرية، وأبٍ واحدٍ ولكن أمهاتٍ مختلفاتٍ ينتمين لأسرٍ كبيرةٍ أخرى، لا تربطها صلة قرابةٍ مباشرةٍ مع الأب. عندما نبحت كلابهم الشرسة، حيث يشاع أن أمهاتها من الذئاب، عرف الشبان أن هنالكَ أمرًا جللًا في طريقه إليهم، وبحسِّهم البدويِّ وأجهزة إنذارهم المبكر التي وهبتهم إيَّاها الطبيعة، أرسلوا أحدهم ليبلغ القرية القريبة بأن هنالكَ خطرًا في الطريق إليهم، وليدعموهم بالرجال، واستعدَّ البقية للذود عن المال. وعندما اشتدَّ نُباح الكلاب، صعد الشبان على هامات الأشجار يستطلعون الأمر، واستطاع كلٌّ واحدٍ منهم أن يرى الفرسان السبعين يمتطون خيولهم ويحملون بنادقهم في هيئة استعدادٍ تامٍّ لإطلاق الرصاص، فما كان منهم إلا أن أطلقوا سوقهم الخفيفة للريح في اتجاه القرية، تاركين الأبقار تحيط بها الكلاب. كانوا موقنين بأن العرب لا يتردَّدون في إطلاق النار عليهم وإردائهم قتلى، فعلوا ذلكَ مرارًا وتكرارًا، والذكريات المؤلمة أشجارٌ تنمو وتُورق مع الزمن، وهي كالأبقار

تتوارثها الأجيال القادمة، وهي كالأغنيات مهما أوغلت في القدم لا بدَّ أن يأتي من يردِّدها ويعيدها لمجدها، والذين يُقْتَلون يبقون للأبد في جُرح القبيلة والمكان جبالًا شامخةً من الذكرى المُدماة بشهية ثاراتٍ كامنةٍ في طيِّ الوقت الذي قد يحين.

كانت الكلاب الشرسة شرسةً جدًّا، تنبح مذعورة، أمَّا الأبقار التي أحسَّت بالخطر الذي يحيق بها، وفوجئت بأفواج الغرباء على الأفراس، وهي أيضًا مخلوقات أخرى غريبةٌ عليها، ففزعت وتبعثرت في المكان، كما هرول غالبيتها نحو القرية.

ما نسميه بالقرية هو مبانٍ صغيرةٌ منتشرةٌ في مساحة واسعة مبنية من التربة الحمراء الطينية الصمغية المتماسكة، البامبو السميك والرفيع، الأعشاب الموسمية، وبعض أخشاب المهوقني والتكِّ القوية. الغرف ذات سقوف مخروطية لتسهِّل سقوط المياه عن السقوف. ولكن في وسط القرية توجد مدرسةٌ صغيرةٌ مبنيةٌ من الزنك والطوب الأحمر، غارقةٌ وسط أشجار المانجو العملاقة، وتوجد كنيسةٌ صغيرةٌ مبنيةٌ من البامبو والخشب، مُلحق بها وحدة صحية صغيرة، وحجرتان صغيرتان منعزلتان أمامهما مساحة صغيرة نظيفة، كُتب في باب كلٍّ منها حرفان إنجليزيان (WC) وهما ما يجب أن يكونا مرحاضين عامَّين. في حقيقة الأمر لا يستخدمهما سوى الزوار الغرباء عن القرية، القادمين من العاصمة، أو الأجانب الذين قد يحضرون من وقتٍ

لآخر من أجل الكنيسة أو البحوث الطبية السريعة. سكان القرية يفضِّلون التداوي المحلي على الذهاب للوحدة الصحِّيَّة، ويتبرَّزون في الهواء الطلق. على كلٍّ، الوحدةُ الصحِّيَّةُ الصغيرةُ النظيفةُ مغلقةٌ منذ أكثر من عام، بعد أن غادرها الممرِّض (وهو الكادر الطبي الوحيد) إلى «جوبا» لدراسة شيءٍ من الطبِّ ونيل شهادة التمريض العُليا. يستغلُّ الشرطيُّ الوحيد بالقرية وهو «العمُّ ماجوك» المكان كلَّه كنقطة شرطة، ولم يعترض الناس طالما كان يحرس منقولات الكنيسة القليلة ومحتويات الوحدة الصحِّيَّة، وهو أيضًا ماهرٌ في النفخ على قرن الغزال لتنبيه الناس إلى المخاطر التي قد ينتبه إليها صدفةً أو ينبهه إليها أحد سكان القرية، أو تلكَ التي تصله محمولةً على جُنح الريح من قرًى أخرى.

هو يقضي معظم وقته في شفط الدخان من غيلونه البلديِّ الكبير المصنوع من البامبو وخشب التكِّ، المحشوِّ بالتمباك الجاف، ونفخه في الهواء وتكرار العملية في متعةٍ جيدة، إلى أن يحسَّ بالخدر يسري في أوصاله فيحتسي كأسًا كبيرةً من المريسة وينام.

الصوت الذي سمعه الفرسان السبعون، يميِّزونه جيِّدًا، هو صفير قرن الغزال الذي أطلقه «العمُّ ماجوك»، ويعلمون أنه ليس سوى رسالةٍ عاجلةٍ حالما يكرِّرها صافر القرية المجاورة، ليُسمع قرية أخرى تنام في الدغل، وهكذا تصرخ الصافرات، وفي أقلَّ من دقيقة

يعرف سكان القرى المجاورة أن بعض الفرسان العرب قد عبروا النهر إلى قرية «تومي» يرومون أبقارها، وهم مسلحون كعادتهم، و«الرجاء النجدة».

كانوا يعملون بسرعةٍ وبراعة، بخبرةٍ طويلةٍ في التعامل مع أبقار «الدينكا» وأصحابها، استطاعوا أن يسيطروا على عشرين من عجول البقر التي كانت محجوزةً في سورٍ من فروع الأشجار، أمَّا الأمهات جميعًا والثيران الكبيرة فقد هربت تتبعها الكلاب الشرسة.

لن يعودوا من الطريق التي سلكوها نحو المكان، قد ينتظرهم شبان «الدينكا» هنالك، ولكنهم سيعبرون الدغل الشائك إلى «نهر العرب»، هي طريق وعرة ولكنهم يعرفون شعابها جيِّدًا. مضوا جنوبًا قليلًا، ثمَّ اتجهوا نحو الغرب وهم يحيطون بالعجول المذعورة التي تخور خائفةً أو مندهشةً، وبعضها تمَّ ربطه جيِّدًا وقيادته خلف الأفراس، يسمعون بين وقتٍ وآخر صفير قرن الغزال، يقترب حينًا ويبتعد حينًا آخر.

لم يكن من السهل السير بالسرعة المطلوبة للهرب بالحيوانات وهي نزقة ومعاكسة وتتعثر على العشب والأشجار الكثيفة، ولكن إصرار الفرسان كان كبيرًا، وأملهم في الهرب وهي في صحبتهم أكبر.

للجميع خبرات طاعنات في الزمان والمكان، ولكن القيادة كانت للشيخ «أدومة»، وهو أكبرهم سنًّا، ولا نستطيع أن نقول أكثرهم

خبرة بالمكان والناس وخطف الأبقار، ولكنهم كانوا يرجِّحون رأيه، لذا عندما طلب منهم أن يتركوا العجول ويجِدُّوا في الهَرب للنجاة بأنفسهم، فعلوا دون تردُّد، ولكن يبدو أن الوقت قد فات على ذلك، لأنهم الآن سمعوا صوت الرصاص يأتي من عمق الدغل، يتخلَّل العشب وأوراق الأشجار، وأيقن الجميع أنهم لا محالة سيواجهون معركة عنيفة طالما تجنَّبوها ولم يرغبوا فيها أصلًا: فلا أحد يحبُّ الموت، فالحياة أجمل.

هربوا في اتجاه النهر مباشرة؛ أيْ جنوبَ غرب. في فصل الصيف غالبًا ما يصبح النهر في معظم حوضه ضحلًا، ويمكن عبوره بالأرجل، ولكن المستنقعات التي أصبحت طينًا لزجًا في هذه الأيام من السنة تعُوق المشي، وعليهم أن يتجنَّبوا مواقعها. ويعرف الجميع أن فتيان «الدينكا» سوف ينتظرونهم في المعبر الجافِّ الذي يقع بعد غابةٍ صغيرةٍ يسمونها «غابة الشيطان»، وهو المعبر الأقرب لقرية «أولاد أحمد»، لذلك سوف يعبرون شرقًا على مستنقع صغير، إذا كانوا محظوظين فسيجدونه جافًّا بعض الشيء، أو جافًّا جدًّا، ولا تستطيع ثعابين الأصلة العملاقة الاعتداء عليهم وهم في جماعة مسلحة، بالأحرى ستتجنَّب الاحتكاك بهم.

نزلوا النهر، وعند المستنقع تفاجأ بهم أطفال يصطادون الأسماك بالحراب، كانوا مثل رهط من الغزلان السوداء، هربوا في كلِّ اتجاه،

وهم يصيحون في رعب. كانت هذه فرصةً جديدةً وجيِّدةً للفرسان لأن يحصلوا على بعض الصبية، حيث يستخدمونهم في الرعي والزراعة، وقد يقايضون بهم أقرباء لهم قد يسبيهم «الدينكا» في يوم ما، فالحال بينهم كرٌّ وفرٌّ، ويومٌ عليهم وآخرُ لهم، وتحدِّد ذلكَ ظروفٌ كثيرةٌ لا يد لهم فيها. ولم يكن ذلكَ بالأمر اليسير، حيث كان الأطفال يجرون في المستنقع خفافًا وكأنهم الريح، يقفزون فوق أعشابه الطرية الندية الغزيرة، ثمَّ اختفوا نهائيًّا عن الأنظار، وكأنهم لم يكونوا هنالكَ في الأصل، مثل طيفٍ بخيالِ مجنون. كان الطفل، والذي سيسمُّونه في المستقبل «غزال»، يرقد وسط العشب، وقد حفر لنفسه خندقًا صغيرًا بأصابعه، لولا الصدفة البحتة لما عثر عليه «جبريل»، الذي كاد أن يدهسَه بحافرة حصانه عندما رأى شيئًا أسودَ يتحرَّك تحته، ولكن الفرس هو الذي توقف عن المسير، رفع أذنيه لأعلى وأطلق صهيلًا مرعبًا. كانت رِجل الطفل تنزف دمًا، وهو يتأوَّه ويغطِّي الجُرح بكفِّه من الذباب، لم يقاوم كثيرًا. كلُّ ما فعله: زحف مرتين أو ثلاثًا بعيدًا عن كفَّتي «جبريل» اللتين تحاولان أن تمسكا به. كان في شبه إغماء، ربط «جبريل» الساق بمنديله، ووضعه خلفه على الفرس بعد أن ربط يدي الطفل جيِّدًا في السرج الخشبي. قدَّروا عمر الطفل بثلاثة عشر عامًا، نسبةً للوشم الذي في ذراعه وبطنه، وعرفوا أيضًا نوع الجُرح: «عضة أبندربان».

سِفْرُ الدِّيك

«جبريل» يختار ماشيته وحده، ويربِّيها في بيته تحت رعايته الخاصَّة، ويذبحها موجِّهًا إيَّاها إلى القبلة وهو يهتف: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثمَّ يخاطب الحيوان قبل أن يضع السكينة في نحره: «اعفي عني يا أخي، دي (هذه) سُنة الحياة، كلنا لها.» ثمَّ يتلو ما لا يدري ماهيته أو من أين حفظه ولا ممَّن سمعه: «الذابحُ مذبوحٌ، والآكلُ مأكولٌ، وكلُّنا من التراب وإلى التراب. يومٌ ليك ويومٌ عليك. لطفكَ يا ربي. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.»

لم يفكِّر «فتح الله فراج» كثيرًا في الأمر، لأن الموضوع لا يحتاج لتفكير، أقصد أن البدائل المتاحة أمامه محدودة جدًّا. في الواقع لا تُوجد بدائل، كما يوحي جمع كلمة «بديل»، بل إنه خيار واحد فقط، أن يستلف ديك صديقه المرحوم «جبريل كيري»؛ الديك الذي انضم للأسرة من تلقاء نفسه في يوم وفاة «جبريل»، لا أحد يعلم من أين أتى، واعتُبر هبةً من السماء أو رزقًا ساقه الله لهم، وكانوا يدعونه في الأيام الأولى: «ديك السماء». وكان «فتح الله فراج» على يقين بأن أرملة صديقه لن ترفض ذلك، في الحقيقة إن العلاقة التي تربطه بأسرة «جبريل» المرحوم أكبر من كلِّ شيء، لقد كان المرحوم صديق عمره ورفيق دربه، منذ أن تقابلا في هذا المكان قبل أكثر من عشرين عامًا، إلى لحظة انتقاله إلى الرفيق الأعلى بتلك الطريقة الفجائية الحزينة، بعد عودتهما من تنقيب الذهب العشوائيِّ بالصحراء. كما أن «فتح الله» لا يرغب في أن يُبقِيَ الديك لفترةٍ طويلةٍ في بيته، ربما يكفيه أقلَّ من أسبوع، فبإمكانه أن يتدبَّر شراء ديك بديل عن ديكه الذي ينفق الآن، عندما يبيع إنتاجه من البيض في الأسبوع القادم.

لكي لا يضيع الوقت كثيرًا، قام بذبح الديك المُحتضر، وطلب

من ابنته الصغيرة أن تقوم بتنظيفه وإعداده لوجبة الغداء. لقد كان ديكهم ضحية هجوم ديكٍ غريبٍ شرس، أوسع ديكَهم عضًّا وركلًا إلى أن بلغ به الحال ما بلغ، وعندما انتبه لذلك هو وابنته، كان الديك المعتدي قد أنجز مهمَّته وقفز عبر الحائط وفرَّ بجلده.

تعرف البنت التي تكاد أن تطير من الفرح أن اليوم سيشهد رفاهيةً إجبارية، فكم مرة يتدخَّل القدر في مدِّهم بطعامٍ فاخر، بدلًا من العدس الذي ملَّت أكله، فقبل أسبوعٍ واحدٍ فقط ٍشهدت قدور المنزل طبخ دجاجةٍ سمينةٍ بالصلصة، كانت قد أصيبت خطأً بحجرٍ قذفه طفلٌ من الطريق العام خلف حَدأة مراوغة، ولكن القدر الرحيم جعله يقفز فوق حائط بيتهم القصير ويسقط على رأس الدجاجة التي كانت تسرح وتمرح في الحَوْش خارج القفص، ولحسن الحظِّ كان «فتح الله» بالمنزل وسارع بتحليلها؛ أيْ ذبحها قبل أن تنفق وتصبح محرمةً ولا يجوز أكلها، وهو وأسرته مسلمون ملتزمون بتعاليم الدين، فلا يأكلون الميتة؛ فهي في حكم الخنزير.

لم تحزن «ميرم» من أجل الديك الذي كان يملأ البيت صياحًا وهو يضع البيض في أرحام الدجاجات البلديات الخجولات؛ البيضُ الرحيم مصدر رزق الأسرة الوحيد، ولم تحسَّ بأنها ستفتقد أرياشه الذهبية الجميلة اللامعة، ولا معاكساته للدجاجات، حيث إنها كانت تمثِّل لديها نوعًا من المتعة واللهو، ولم تهتمَّ أيضًا قيد شعرةٍ

بأحاسيس أخيها الصغير «فراج فتح الله»، الذي ذهب في زيارةٍ قصيرةٍ إلى بيت جدَّته ولم يعلم بنفوق الديك صديقه الحميم، وتعلم أنه سيبكي كثيرًا جدًّا، ولو أنه سوف يستمتع كغيره من أفراد الأسرة بالوجبة الدسمة، ويمتصُّ عظام الديك المسكين المطهيَّة بالصلصة والبهار، في متعةٍ بالغةٍ كأنه لم يسمع به مُطلقًا. كان همُّها كلُّه ينصبُّ في الغداء.

لم يستشر «فتح الله» زوجته «نصرة» في أمر استلاف ديكٍ من أسرة صديقه المرحوم «جبريل» لحين يفرجها الله له في شراء ديكٍ لدجاجاته المترمِّلات الحزينات، لأنه يعلم أنها لن تمانع، بل إذا تركها تتصرف بسجيَّتها لحل إشكالية الديك، فإنها ستتصرف كتصرُّفه بالتمام والكمال، كما إنها غير موجودة حاليًّا بالمنزل، فهي في منزل أخيها الكبير، الذي يحمل رتبةً عسكريةً فارهة، هي تساعد زوجته في عمل المنزل. على الرغم من أنهما لم ينجبا أطفالًا، إلا إن الزوجة لا تستطيع القيام بواجب نظافة البيت الكبير وحدها وخدمة الضيوف الكثيرين، وهي تحمل أردافًا ثقيلةً وأحشاءً كأحشاء بقرة. وقد فكرتْ زوجة أخيها في استئجار عاملةٍ من فقراء الأرض لخدمتها، ولو أن في ذلكَ مخاطرةً كبيرة، فهي خائفةٌ على منقولاتها النفيسة من السرقة من جانب، ومن جانب آخر كان خوفها على زوجها المسكين من أن يُخْطَفَ أو يُغْوَى، ولو أن الاحتمال الأخير ضعيف، لعلَّة تعرفها،

إلا إن الحيطة واجبة، فزوجها يتبوأ وظيفةً كبيرةً ولديه مالٌ يُحسد عليه، وعلاقته بالسيد الرئيس هي ثروةٌ لا تقدَّر بثمن، وهذا كلُّه يحبِّب فيه البُنيَّات الصغيرات الطائشات، والكبيرات أيضًا. لذلك كلِّه، اقترح عليها سيادته أن يدعو أخته الفقيرة ذات الأطفال والزوج المعوز بائع البيض، لتساعدها مقابل أجرٍ غير مسمًّى ومساعداتٍ تقدَّم إليها شهريًّا وفي مناسبات، فتشاور مع أخته «نصرة» في الأمر، وقبلت. طالما كانت «نصرة» باقية في بيتها دون عمل أو وظيفة تدرُّ دخلًا، بينما هي في حاجة لعملٍ ما يساعد الأسرة في الكسب وتخفيف ضغوطات الحياة، ودعم زوجها المكافح في مقارعة خطوب المعيشة، ولكنها رغم ذلك، رفضت أن تعمل ذلكَ بأجرٍ مسمًّى، بل رفضت الأجر رفضًا باتًّا، لفكرتها عن عدم أخلاقية العمل في بيت أخيها مقابل أجر.

«أنا أساعدك، أنت أخوي وهي زوجتك، وأنا ما عندي عمل في المنزل كثير، وربنا يخلي البنت تقوم بكلِّ شيء.» وأضافت لنفسها بأنفة: «أنا ما خدَّامة عشان أشيل قروش.»

في منزل «فتح الله فراج» أيضًا، البنت الصغيرة المُراهقة واسمها «ميرم فتح الله»، وهي البنت الوحيدة بالأسرة، ويصغرها الطفل «فراج فتح الله» بسنواتٍ كثيرة، أخوها الأكبر يُسمَّى «السر فتح الله فراج» يعمل جنديًّا بالقوات المسلحة، ثمَّ تمَّ استيعابه في صفوف

الأمن العام بتدخُّلٍ كريم من خاله المقرَّب جدًّا من الرئاسة، وهو لا يقيم بالمنزل، بل يعمل خارج «الخرطوم» متنقلًا من مدينة لأخرى في شكلٍ مدنيٍّ، يعمل في تجارة خاصَّة، أو مهنة عامَّة، تتغير المهنة بشكلٍ دوري، فمرةً يعمل خضريًّا، وأحيانًا سائقًا في المواصلات العامَّة، ومرةً طالبًا جامعيًّا، ووظائف أخرى كثيرة، وفقًا للمدينة التي يعمل بها والمعلومة المراد تصيُّدها ومواقع الخونة المطلوب تتبعهم. عمله أن يختلط بالناس، ويكتب عنهم التقارير، قد يحضر فجأة في أيِّ زمان محمَّلًا بالفاكهة والهدايا وبعض المال القليل يسلِّمه لأمِّه. وقد اكتفى «السر» بالمرحلة الثانوية ونال الشهادة السودانية، ثمَّ انخرط في العمل لمساعدة والديه وإخوته الصغار في المعيشة.

أهمُّ ما في المنزل هو قفص الدجاج، حيث إنه المصدر الرئيس للأرزاق في الأسرة، «بعد الحمد والشكر لله»، كما تقول «نصرة» ربَّة الأسرة. يقبع في الركن الشماليِّ الشرقيِّ من الحَوْش الكبير المسوَّر بحائطٍ قصيرٍ من الطين اللبن. القفص مصنوعٌ من السلك النمليِّ المُسمَّى بـ«عين القط»، وهو شبكةٌ معدنيةٌ رخيصةٌ ومتينة، يسَعُ أربعين دجاجةً بلديةً وديكًا واحدًا، وينتج في اليوم ما بين ٣٠ إلى ٢٥ بيضة. عندما يُباع البيضُ، تتمكن الأسرة من توفير رزقها اليومي، ومصروفات المدرسة للتوأم، حيث إن «ميرم» قد تركت المدرسة منذ عامين لعدم مقدرة الأسرة على الصرف المدرسيِّ — من كتبٍ

ومعداتٍ أخرى — زائدًا على مصروف المواصلات وفطورها خارج المنزل، وهذه الأشياء الصغيرة تمثل مبلغًا كبيرًا لا طاقة للدجاجات بتوفيره. كلُّ أمل أمِّها وأبيها أن تجد «ميرم» زوجًا مناسبًا يقوم برعايتها، فهما يعرفان أن ابنتهما جميلة، ليست شديدة الجمال ولكن بها ما يكفي لجذب زوجٍ ميسور الحال، وقد يكون متعلِّمًا، واحتمالٌ كبيرٌ أن يكون هو «أحمد زكي» ابن خالتها الذي يعمل في منظمة دولية. قد لاحظ الأبوان أن في نظرته لابنتهما المراهقة، نوعًا من الهُيام الذي لا تخطئة عين، وأن «ميرم» تصبح مثل دجاجةٍ مبتلةٍ بماءٍ بارد، عندما تراه يتبختر بـ«منطلون الجينز» في حَوْش بيتهم، وبين أصابعه الطويلة الناعمة سيجارة ماركة «برنجي» تطلق خيطًا رقيقًا من الدخان في فناء المنزل، فهو يحافظ على زيارتهم مرةً في كلِّ أسبوع، يكبُرها بعشرين عامًا، »ولكن البنت مثل نبات العُشَرْ«؛ تنمو سريعًا وتنضج أسرع.

في باطن الحَوْش حجرتان صغيرتان من الطين، ومظلة كبيرة من القشِّ تتوسَّط الحجرتين. قام بصنع الطوب والبناء، أفرادُ الأسرة جميعُهم بمن فيهم البنتان التوأم، مثلهم مثل بقية أهل الحيِّ الفقير الذي يسكنون فيه. يقع الحيُّ أقصى جنوب مدينة «الخرطوم»، بالقرب من المصرف الصحِّيِّ المفتوح، يُطلقون عليه اسمًا شائكًا وهو «زقلونا»، وهي كلمة عامية تعني فيما تعني: رُميَ بنا بعيدًا في إهمالٍ

تام، وتمَّ نسياننا بعد ذلكَ للأبد، ونحن نحتجُّ على تلكَ المعاملة في صمت، وقد نثور في يوم ما.

كان الديك الذي تمَّ ذبحه قبل قليل، هو الديك الوحيد بقفص الدجاجات، و«فتح الله فراج» دائمًا ما لا يحتفظ بغير ديكٍ واحدٍ فقط لتلقيح الدجاجات، فوجود أكثر من ديك في قفصٍ واحدٍ صغيرٍ مثل الذي يمتلكونه، قد يقلِّل من عدد البيض، حيث إن الديوك سيتفرَّغون للشجار والمصارعة فيما بينهم، فينهكون بعضهم البعض، ويلهون عن واجبهم الإنجابي، وهو تلقيح الدجاجات البلديات ليتمكنَّ من توريد البيض والأفراخ الصغيرة التي ستواصل مسيرة إعالة أسرة «فتح الله»، بعد أن تشيخ أمهاتهم وجدَّاتهم ويخرجن من خط الإنتاج إلى قدور الطعام.

الذكريات التي يحتفظ بها «فتح الله» عن صديقه «جبريل»، بعضها مضحكٌ وجميل، على الرغم من الفقر والعوز الذي يعيشان فيه. كان «جبريل» يعمل جزارًا غير شرعي، يُعرف فيما بينهم بـ«الكيري»، حيث إنه يحمل اللحمة التي يقوم بذبحها في سلة كبيرة من السعف؛ «قفَّة»، ويطوف بها البيوت في الأحياء الفقيرة جدًّا، والورش وتجمُّعات العمال، والمطاعم الصغيرة الرخيصة التي تُعتبر زبونًا دائمًا له، حيث يبيعهم أحشاء الذبائح وقوائمها ورؤوسها، ومعه «فتح الله» في «عربة كارو» يجرُّها حمارٌ فتي، يمتلكها «جبريل»،

ودائمًا ما تُوضع سلة السعف في مخبأٍ ما تحت سطح عربة الكارو، حتى لا تتصيَّدها أعين الشرطيين الذين يعرفون أنها بالكارو وأنها هنالكَ تحت سطحها، كما أنهم يشترون منها حاجتهم من بيضٍ ولحوم؛ فهي أرخص سعرًا. نعم هي غير مذبوحة في السلخانة، ولكنها طيبةٌ وحقيقية، بل أكثر ضمانًا من ناحية الجودة والنوع من تلكَ المذبوحة بالطرق الرسمية، التي قد تمرُّ عبر الأختام وهي تحمل أمراضًا خطيرةً يتمُّ إهمالها وغضُّ الطرف عنها ببعضٍ من المال يسير. «جبريل» يختار ماشيته وحده، ويربِّيها في بيته تحت رعايته الخاصَّة، ويذبحها موجِّهًا إيَّاها إلى القبلة وهو يهتف: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثمَّ يخاطب الحيوان قبل أن يضع السكينة في نحره: «اعفي عني يا أخي، دي (هذه) سُنة الحياة، كلنا لها.» ثمَّ يتلو ما لا يدري ماهيته أو من أين حفظه ولا ممَّن سمعه: «الذابحُ مذبوحٌ، والآكلُ مأكولٌ، وكلُّنا من التراب وإلى التراب. يومٌ ليك ويومٌ عليك. لطفكَ يا ربي. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.»

والغريب في الأمر أنه يتلو النص ذاته في صلاته الوحيدة التي يؤدِّيها عند الفجر بصوتٍ جهوري، ولم تنجح ابنته «رشا» — مهما بذلت من مجهود — في إقناعه بأن ذلكَ ليس بقرآن أو آية من أيِّ دينٍ كان، وخير له أن يحفظ سورة الفاتحة ومعها آية، ولكنه لا يجادلها كثيرًا أو قليلًا، ويظلُّ يقرأ ما يقرأ من آياته الغريبة، عند صلاته وعند

ذبح بهائمه.

عندما يدخل «فتح الله فراج» منزل صديقه المرحوم «جبريل»، وهو كالعادة لا يطرق الباب، إنما يدفعه دفعًا للإمام، ثمَّ يصيح: «يا ناس البيت كيف حالكم.» أول من ينتبه إليه الكلب الشرس المُسمَّى «كُولي» وهو الحارس الأمين للأسرة من اللصوص والمتطفلين، يجري «كُولي» نحوه محرِّكًا ذيله في ترحاب، وقد ينبح نبحتين مرحتين قبل أن يحكَّ جسده برجلي «فتح الله فراج» الذي يصيح فيه بأن يذهب بعيدًا عنه: «يا نجس ود النجس!»

عندما تسمعه زوجة المرحوم «ملكة الدار» تعتدل قليلًا في جلستها، وقد تضع ثوبًا على بعض رأسها، فهي لا تتكلَّف أن تبدو أمامه غير ما هي عليه، لأنها تعتبره أحد إخوانها، وتكنُّ له ذات الشعور الأخويَّ النبيل، وأيُّ تكلُّفٍ قد يشعره بأنه أجنبي، وهي لا تقصد ذلك.

أمَّا الصبيَّتان الصغيرتان، فإنهما تهرولان إليه تاركتين ما بأيديهما ممَّا يسمُّونه في الأسرة بـ«البيض الحجري»، وهي بيضات متحجِّرات تجدانها في قفص الدجاج وتلعبان بها طوال اليوم. ظهرت هذه البيضات الثلاث قبل سبعة أيام، لاحظتها الأمُّ بينما كانت تنظِّف قفص الدجاجات من الروث وتجمع البيض، فلم تثِر اهتمامها إلَّا قليلًا، ورمت بها للطفلتين للعب، وقد سُرَّتا بذلكَ كثيرًا.

تمسك كلٌّ واحدةٍ منهما بكفٍّ من كفَّيه الغليظتين الخشنتين، وهو في هذه الأثناء يكون قد أخرج الحلوى من جيبه وأعطى كلَّ واحدةٍ نصيبها من جيب الجلباب المُواجِه لها. أمَّا البنت الكبرى «رشا جبريل»، فإنها تكتفي بأن تصيح من بعيدٍ محييةً إيَّاه بجملةٍ واحدة: «عمو، مشتاقين!»

«رشا» تدرس الهندسة المدنية في «جامعة الخرطوم»، وتقرأ كثيرًا في كتب الأدب، وتحبُّ الرواية بصفةٍ خاصَّة، وهي أيضًا تحبُّ وتجيدُ الغناء، وتُعتبر العمود الفقاري لكورال الجبهة الديمقراطية بالجامعة. «رشا» ليست الكُبرى، فلقد توفيت الكبرى واسمها «شوشايا» في حادث سير، دهستها عربة كارو أمام البيت وهي يافعةٌ تلعب عند باب المنزل مع صبيتين صغيرتين نجتا من الحادث بجراح طفيفة، أمَّا هي فقد أصابتها حافرة الحمار الهائج الأمامية في رأسها، وماتت لاحقًا بالتيتانوس، نتيجةً لبعض الإهمال والجهل بخطورة الجرح، أو كما تقول أمُّها: «يومها تمَّ.» فعوَّضها الله بتوأمٍ آخرَين، وهما طفلتان نحيفتان جميلتان وشقيتان ومتفوِّقتان في الدراسة، هما الآن في مرحلة الأساس، تشتركان في إحراز المرتبة الأولى دائمًا، ومنذ مرحلة الروضة.

كغير عادته عندما دخل البيت، وسلَّم على البنت وأمها، وقبَّل الطفلتين في رأسيهما، وهو طقس يحافظ عليه باستمرار، كان يتلفَّت

يمنة ويسرة، كأنه يبحث عن شيءٍ ما، وهي حركة يفعلها عندما يدخل البيت ولا يجد في استقباله كلَّ أفراد الأسرة، فإنه يتلفَّت بحثًا عن العضو الغائب، ولكنه الآن — واليوم جمعة — يقبع وسطهم تحت ظلِّ «راكوبتهم» الواسعة النظيفة، يسألهم مباشرة: «وين الديك؟»

لا تمتلك أسرة المرحوم «جبريل» الجزار قفصًا كبيرًا للدجاج كالذي لديه، ولكنهم في الماضي عندما كان المرحوم حيًّا، كانوا يمتلكون زريبةً صغيرةً بها بعض الماشية، وهي تمثل مخزونًا للذبح يتجدَّد بصورةٍ مستمرة، كلما يبع الذبيح، يأخذ الربح ويشترِ برأس المال خروفًا أو تيسًا جديدًا. كان الديك بالقفص الذي يقع خلف الحجرة الكبيرة، ويبدو أن الأسرة لا تمتلك مع الديك غير دجاجتين بلديتين بيَّاضتين. وبعد وفاة «جبريل»، أخذت الأسرة تنزلق لدائرة الفقر المدقع بصورة سريعة، فقد باعوا الحمار وعربته الكارو، وهما كانا وسيلتا رزق الأسرة عندما كان الأب حيًّا. لولا إخوة «جبريل» — وهم رُعاة يقيمون في قريتهم البعيدة بـ«جنوب كردفان» يدعونها قرية «أولاد أحمد»، يرسلون وسعهم حالما يجدون بعض القادمين إلى «الخرطوم» لأسرة أخيهم المرحوم — لَمَا توفَّر للأسرة قوت يومها، ولَمَا استطاعت أن تصرف على شئون المدرسة، والحق يُقال إن «فتح الله» كان يتذكَّرهم ببعض البيض وقليلٍ من المال من وقتٍ لآخر،

فهو أيضًا يعاني من سوء طالع في الرزق.

عندما وضع كوب الماء البارد المقدَّم إليه من الزير الكبير، صاح: «مات ديكنا، هجم عليه ديك غريب وقتله.» قالها بحسرة. وهو لا يحتاج ليزيد على هذه الجملة، حتى الطفلتان تفهمان أنه يريد الديك ليوم أو يومين ليضع البيض في بطن الدجاجات، ثمَّ يعيده عندما يشتري ديكًا آخر.

إِرَادَةُ الْبَقَاء

لولا أنه خاف من أن الجيران والمُشاة بالشارع الذين سيسمعون صُراخه ويهبُّون إليه وينازعونه في كنزه الغريب الثمين، لصاح بملء حلقومه الضخم، وبقدر ما يسعُ فمه العريض، وتتحمل شفتاه الغليظتان، وإمكانيات حباله الصوتية في التمطيط، ووسع خياشيم رئتيه من هواء طازج جاهز للنفخ والتحوُّل لكلمات: بأن ديك صديقه «جبريل» قد باض له ذهبًا خالصًا، وأنه سيودِّع الفقر للأبد.

أعاد «فتح الله فراج» الديك لأسرة صديقه «جبريل أدومة كيري»، في صبيحة اليوم الرابع، على الرغم من أنه يعلم أن لا حاجة ماسَّة لدجاجات أسرة المرحوم لديكٍ خاص، فهي ربما أربع أو خمس دجاجات مطلوقات في معظم الأوقات يعاشرن ديوك الجيران، أمَّا دجاجاته فلا يطلقهنَّ إلَّا للتمشِّي ثمَّ يعيدهن للأقفاص، وهذه هي الرعاية التجارية العلمية للدجاج، ولكن الواجب يحتِّم عليه إعادة الديك بأسرع ما يمكن، خوفًا من القيل والقال.

أدخل ذراعه الطويلة في القفص المصنوع من السلك النمليِّ ذي الفتحتين السداسيتين، وأخذ يحسب البيضَ عابثًا به بأصابعه، بينما تتفحصه عيناه من خارج القفص. لاحظ أن هنالكَ بيضةً صغيرة الحجم، قدَّر حجمها بثلثي حجم البيضة العادية، ولم يندهش كثيرًا، لأنه تعرَّف عليها منذ الوهلة الأولى، فهي بيضة الديك، ويُطلق عليها «بيضة هواء»، ولكنه عندما رفعها بأصابعه أحسَّ أنها كانت ثقيلة، بل ثقيلةً جدًّا كأنها قُدَّتْ من الحجر، وضعها جانبًا وقد أصابته دهشةٌ طارئة، أخذ حجرًا صغيرًا وطرقها به في حذر، لم تصدر صوتًا مألوفًا، ولكنه أقرب إلى صليل معدنٍ ما، طرقها بقوةٍ أكبر، فأخذت

تتساقط عن سطحها القشرة البيضاء السميكة، ليطلَّ عنصرٌ صلدٌ لامعٌ وكأنه الذهب.

أخذ البيضة بعيدًا عن موقع القفص، ولأنه ليس بالمنزل أحدٌ غيره، فقد كان مطمئنًّا أن لا أحد سيُصاب بسوءٍ إذا تبيَّن أن بالبيضة مكروهًا؛ قنبلةً مثلًا أو لُغمًا بلعه الديك وباضه، أو أية مصيبة أخرى. وقف بعيدًا، وقذف بالبيضة تجاه الحائط، فسقطت على الأرض ولم تنفجر. حسنًا، أحضر سكينًا كبيرةً وأخذ ينحتها. كانت صلدةً شديدة الصلابة، وشديدة الشبه بالذهب، قَرَّبها من أنفه، لم يشمَّ لها رائحة مميِّزة، ولكنها أقرب قليلًا إلى رائحة النُّحاس الأصفر، تذوَّقها بلسانه، لا طعم لها، ولكنها كانت باردةً بعض الشيء: «سبحان الله، دهب! دهب حقيقي؟»

لولا أنه خاف من أن الجيران والمُشاة بالشارع الذين سيسمعون صُراخه ويهبُّون إليه وينازعونه في كنزه الغريب الثمين، لصاح بملء حلقومه الضخم، وبقدر ما يسعُ فمه العريض، وتتحمل شفتاه الغليظتان، وإمكانيات حباله الصوتية في التمطيط، ووسع خياشيم رئتيه من هواء طازج جاهز للنفخ والتحوُّل لكلمات: بأن ديك صديقه «جبريل» قد باض له ذهبًا خالصًا، وأنه سيودِّع الفقر للأبد.

وفيما بعد، بينه وبين نفسه، ندم أشد الندم لإعادة الديك سريعًا لأصحابه، لا بأس، سيستلفه مرةً أخرى. «فتح الله فراج»، يعرف

الذهب، يعرفه معرفة جيدة، بل معرفة مؤلمة أيضًا، فكان هذا الذهب هو السبب الرئيسي في موت صديقه الوحيد «جبريل أدومة كيري» الجزار، الذي قد تبرَّز خاتمين كبيرين من الذهب وسط سائلٍ أصفرَ شديدِ العفونة، قبل أن يموت في اليوم التالي.

في منتصف ٢٠٠٣، وعلى سبيل الدقة في اليوم الرابع من أبريل، يوم الجمعة، عندما تولَّى الوالي الجديد مقاليد حكم ولاية «الخرطوم»، وكما هو مُلاحظ كان اليوم عطلةً رسمية، ممَّا أثار تشاؤم البعض، وكان فأل نحسٍ وشؤم على الوالي ورعيته معًا، ظلَّ يلاحقهما لسنواتٍ كثيرةٍ قادمة. لا يحبُّ الناس الاستعجال، ويقولون إنَّ العجلة من الشيطان، ووراء كلِّ عجولٍ إبليسٌ، وحكمتهم المثلى: «شِدْ واتباطا يا خيرًا آتا ويا شرًّا فاتا.»

أصدر هذا الرجل العجول «المتشعبط» في سلالم المجد، قراراتٍ تصحيحيةً شاملةً وكبيرة، ومؤثرةً في كلِّ مناحي الحياة، وكان لها الوقع الكبير المباشر على الكثير من أصحاب المهن الهامشية، التي يقول عنها الوالي إنها «تضرُّ بالمواطن والاقتصاد الوطني ضررًا بالغًا، ولو أنها — لغير العالمين ببواطن الأمور والذين لا يفهمون في الاقتصاد الحبَّة — تبدو في الظاهر مفيدة»، وقد شمل القرار كما هو مُتوقَّع: سائقي الدرداقات والركشات، وبائعات الشاي، والكيري، والأكشاك، والباعة الجائلين، والشحاذين، وطبليات

الورنيش، والكتب المفروشة على جوانب الطرقات، وخدمات الشيشة والصعوط، وباعة الخمور البلدية وخاصَّةً العرق، غاسلي السيارات، الحمالين، المغنين دون تراخيص، ومن شابههم وشاكلهم. وكان الوالي يسعى بكلِّ قوة وجدية في تثبيت قدميه في الوظيفة، بأن يقنع كبار السياسيين في الحزب الحاكم بأنه الرجل المناسب في المكان المناسب، وأن اختياره لم يكن اعتباطيًّا، بل كان أحد المعجزات أو الكرامات التي قَلَّما تحدث في هذا البلد. يريد أن تنفتح في وجهه كنوز الأرض وخزائنها، فوظيفة والٍ في عاصمةٍ شاسعةٍ ومهملةٍ وسائبةٍ مثل «الخرطوم» فرصةٌ لا يجدها كلُّ من هبَّ ودب، إنها لذوي الهمم العالية والمتميزين، وفوق ذلكَ كلِّه للذين يستطيعون أن يحافظوا على الوظيفة ويستثمروها بتروٍّ وحنكة، والذين لا يفوِّتون الفرص ما أتتهم ويبحثون عنها أينما اندسَّت.

وبغير العادة التي درج عليها الولاة السابقون في إطلاق القرار وتركه ليعمل بقوة دفعه الذاتية ثمَّ يموت، فإن الوالي الجديد كان رجلًا عمليًّا وعلميًّا وجادًّا، فشكَّل آليةً محليةً للتنفيذ، تبدأ من اللجنة الشعبية بالحي، وتمر بالمحلية، ثمَّ الولاية، وتنتهي في مكتبه، عند يديه المباركتين رضوان الله عليها؛ بين أصابعه القابضات قبضًا.

فلا عجب أن يمرَّ أمام عينيه الطيبتين تقريرٌ عن بيع اللحمة الكيري بحيٍّ «زقلونا» الذي يسمع به لأوَّل مرةٍ في حياته، وليس

غريبًا من جلالته أن يصدر قرارًا فوريًّا بالقضاء النهائيِّ على هذه المهنة بالذات، وقد وصفها في خضمِّ ثورة تقوى فجائية بـ«القذرة»، بل الأبعد من ذلكَ طالب اللجنة الشعبية عن طريق المحلية بتغيير الاسم القبيح للحيِّ الذي يعفُّ عن نطقه بلسانه الطاهر، إلى اسمٍ مشرِّف، واقترح أن يُسمَّى «الصفا» أو «المـروة» أو «الرياض- جنوب» أو أيَّ اسم رساليٍّ آخر يعبِّر عن هُوية الأمة، و«الآن».

مرَّت أيامٌ مريرةٌ على «جبريل كيري»؛ أيامٌ عصيبة، لأنه لم يكن مستعدًّا لفقد مهنته بين ليلة وضحاها، المهنة التي لا يعرف غيرها، ولم تكن أسرته قد تهيَّأت لبرنامج التقشف الذي يحرمهم من وجبة اللحم اليومية التي تعدُّ أرخص ما يتخيَّلونه من طعام، بل لم يكن بمخيلتهم أن هنالكَ طعامًا بغير لحم. لـ«جبريل» أسرة صغيرة؛ بنتان توأم بالإضافة لابنته الكُبرى «رشا»، ولكن هذه الأسرة الصغيرة تحتاج أيضًا لمصروفٍ يومي.

عندما قُضي على ثمن آخر خروفٍ كان بمخزونه المنزلي، تشاور «جبريل» مع صديقه الوحيد «فتح الله فراج»، ولكن «فتح الله» في فقره ذلكَ ليس لديه الوقت ولا القدرة للبحث عن حل، ما عدا الهجرة للذهب، وهو الثراء السريع الذي يتحدَّث عنه الناس اليوم، في الصحراء الشمالية. قصَّ أحدهما للآخر حكاياتٍ كثيرةً عن الذين انتقلوا من قيعان الفقر إلى قمم الثراء في طرفة عين، عندما حالفهم

الحظُّ في العثور على بعض الكيلوهات من حجارة التبر الخالص، أو على تمثالٍ نوبيٍّ قديم من الذهب قاموا بصهره بالنار وبيعه. كانا دون أن يدريا يشجِّع أَحدهما الآخر على المغامرة، ويحفِّزان نفسيهما لخوضها؛ فقد بدا لهما واضحًا وجليًّا أن مستقبل أسرتيهما يتوقَّف على العثور على الذهب ولا شيء غيره، وإذا صدق معهما الحظ، فقد لا يستغرق الأمر زمنًا طويلًا.

كلُّ المعلومات التي يعرفانها عن التعدين العشوائيِّ للذهب مبشِّرةٌ بالخير الكثير، ولكن «جبريل» أصرَّ على أن يذهبا إلى «أونور سدنا»، وهو شخص كان يعمل من قبل في بيع وصناعة السكاكين والسيوف تحت «النيمة»، وهي شجرةٌ كبيرةٌ تنمو على ضفة المجرى الكبير، بها حدَّادان وصانعة زلابية، وعم «عبد الرحيم» وهو فقيهٌ شعبيٌّ متخصِّصٌ في بيع الأدوية البلدية المصنوعة من الأعشاب، ويعمل أيضًا حلاقًا، ويقوم بإجراء العمليات الصغيرة للأطفال؛ من الختان وإزالة اللوز والأورام السطحية الحميدة، أو ما يُسمِّيه الأهالي محليًّا بـ«الخُرَّاجَات»، ويعالج قرصة العقرب أيضًا. «أونور سدنا» هو أوَّل من ترك المهنة وذهب للذهب، ولكنه عاد مرةً أخرى، ليعمل في صناعة السيوف والسكاكين ويقضي وقت فراغه في المؤانسة مع عم «عبد الرحيم» و«ماجدة فضل الله» بائعة الزلابية. ويُنسب إلى «أونور» معظم القصص التي تُحكى عن الذهب بالمنطقة الشمالية.

قال لهما «أونور» بلكنةٍ بجاويةٍ شرقيةٍ وهو يضحك: «دهب كتير وشواطين كتير وموت كتير، وفساد كتير، ورب الكَأْبَة (الكعبة).» ثم حكى لهما ما جعله يترك البحث عن الذهب ويعود لمهنته تحت الشجرة؛ فعلى الرغم من الكشَّات اليومية (مداهمات الشرطة) لهم، إلا إنه يفضل البقاء في «زقلونا» عند المصرف الصحِّيِّ العفن، الذي لم تعد له رائحةٌ مع طول الزمن واعتيادهم عليه، يشمُّ رائحته القادمون الجدد لا غير. قال وهو يضع سفَّة صعوط كبيرة في فمه وتحت لسانه مباشرة (وهي الطريقة المُفضلة لديه في تعاطي الصعوط) إنه رأى بأمِّ عينيه الشيطان وهو يحرس الذهب.

كان الوقت عصرًا، ولكنه يقصد قبيل المغرب بقليل. و«أونور» يعمل «نسَّابًا» مع تاجر كبير، وهو صاحب الجهاز والعربات وتنكر المياه والبلدوزر الضخم، وكانوا قد وجدوا عِرقًا طويلًا من صخور التبر، ولكنه فجأة انتهى بنفقٍ كبير، نفقٍ يمكنه أن يُدخِل الشخص ماشيًا على رجليه، ولكي لا يدع للعمال حرية الدخول بصورةٍ همجيةٍ تتيح لهم الحصول على كمياتٍ كبيرةٍ من الذهب قد يهربون بها، أخرج التاجر كلاشنكوفه وأطلق طلقتين في الهواء وأكَّد للجميع أنه لا يتردَّد في قتلهم جميعًا، و«إذا كان هناك من يشكُّ في ذلكَ فعليه أن يمدَّ رجله خُطوةً واحدةً تجاه النفق.» ثمَّ أمر الجميع بالجلوس على الأرض بعيدًا عن النفق، واتصل بأهله وعشيرته بـ«جهاز الثريا»،

الذين جاءوا في لمح البصر ومعهم ما يكفي من السلاح. كانوا لا يقلُّون عن ثلاثين رجلًا، وامرأتين يظنُّ «أونور» أنهما أمُّ الجلابي وزوجته. وكلمة «الجلابي» تطلق على كلِّ القابضين على تجارة الذهب وأصحاب رؤوس الأموال. قام «الجلابي» بإعطاء العمال نصيبهم المتبقي من أجرهم، وتمَّ صرفهم، وطلب منهم البقاء بعيدًا عند قمة جبلٍ صغير، إلى أن يفرغ لترحيلهم وإعادتهم إلى الخرطوم أو إلى أقرب معسكر عمال من موقع العمل الحالي، وألَّا يقتربوا من نفقه قيد أنملة، قال «أونور»: «طردونا بائييد (بعيد)، ورب الكَأْبَة.»

ولكن بعد أقل من نصف ساعة خرج شيءٌ كبيرٌ يلمع مثل الشمس من النفق، كان فرسًا ضخمًا من الذهب، له صهيلٌ وكأنه زئير الأسد، عندما رآه أهل التاجر يقفز في الهواء كالبهلوان، ويرفس ويصهل في جنونٍ بيِّن، فرُّوا هاربين، ولكنه كان يلاحق الفارِّين، وكلما أدرك واحدًا منهم رفسه بقائمتيه الخلفيتين رفسةً لها دوي، فيطير الشخص بعيدًا في الهواء ليسقط ميتًا، أو عضَّه في رأسه بأسنانه اللامعة الكبيرة إلى أن يتهشَّم رأس الشخص في فمه، وهكذا ... إلى أن قضى على غالبيتهم، ومن بينهم التاجر نفسه، والبقية هربوا بعيدًا واختفوا في الصحراء، ولم يعودوا قط، لأنهم لم يصلوا إلى أية مدينة أو قرية، لقد تناثروا في الصحراء كحبات الرمال التي عبث بها إعصارٌ مجنون. أمَّا نحن الذين كنا بعيدًا عن الموقع، على قمة جبلٍ قريب، كنا

نشاهد ذلكَ وقد تملَّكنا الرعب.

في أقل من خمس دقائق، أصبح المكان فارغًا ولا يُوجد شخص في الموقع أو حوله، ودخل الحصان الوحش الذهبيُّ النفق، بعد أن صرخ صرختين مرعبتين وتلفَّت إلى جميع الاتجاهات، وانغلق عليه النفق مصدرًا صريرًا عنيفًا، واستوت الأرض كما لو أنها لم تُمَسَّ منذ الأزل.

حكى هذه القصة لعشرات الأشخاص، وقصَّها لصحفيين، ومراسلي ومراسلات قنوات فضائية، ولإذاعة «إف إم ١٠٠» بحضور المذيعة الحسناء «لمياء متوكل» شخصيًّا، ولو أنه زادها قليلًا من التفاصيل التي ابتكرها في حينها حُبًّا في أن يطيل صُحبة الحسناء «لمياء»، ولكن لم يلاحظ الفرق أصحابهُ الذين سمعوا القصة من فمه واستمعوا إليها فيما بعد من إذاعة «إف إم ١٠٠»، ولكنهم اتفقوا على أنه كان مرتبكًا بعض الشيء، ومتلعثمًا. قصَّ الحكاية ذاتها لزبائن صديقته بائعة الزلابية الجميلة «ماجدة فضل الله»، ولمتحرِّين شرطيين يحاولون فضَّ غموض الحادث الغريب، قصَّها لزبائن دائمين وعرضيين لبضاعته من السكاكين والحجبات، قصَّها لزوجته التي لا يجب أن يُقال أو يُكتب أو يُشار إلى اسمها، قصَّها لولده الوحيد «سدنا أونور سدنا»، قصَّها لمن لا يتذكَّرهم الآن. وكلما يَحكِها، يحس بالرعب يتملكه، كما لو أنه يشاهد الحدث يحصل

أمامه في لحظة الحكي.

نصحهما «أونور سدنا»، بألَّا يغامرا، وخيرٌ لهما أن يبحثا عن عمل، حتى ولو عملا في حفر القبور لدى المحلية، وإن الأرزاق بيدي الله: «وما شَقَّ حَنكًا ضيَّعَه.» فأجابه «جبريل» في سرِّه، خوفًا من أن يُتَّهم بالكُفر إذا جاهر بذلك: «أمانة ما ضيَّعْ حُنُكَّة.»

طعما بعض الزلابية من «ماجدة فضل الله»، وعادا لمنزل «فتح الله فراج»، وأخذا يلعبان الورق. كانت زوجة «فتح الله» قد أحضرت معها طعامًا طيبًا من منزل أخيها الثري، ومع بعض البيض، وضعت لهم غداءً، يتكوَّن من «محشي طماطم» شبه مأكول — ولن يكتشف أيٌّ من الآكلين الحاليين ذلك، لأنها خبيرة في إخفاء آثار الآكلين الأوائل — وضلع خروف كامل، وسلاطة خضراء وبيضاء. جلس جميع أعضاء الأسرة ومعهم «جبريل أدومة كيري» في حلقة، وأخذوا يأكلون باستمتاع، بينما «جبريل» كان يعيد في رأسه قصَّة الوحش الذهبيِّ التي قصَّها لهما «أونور»، وهو يرتعد من أعماقه.

أمَّا ما قصَّه لهما عن تجمعات الدهابة لاحقًا وسابقًا فلم تُخِفِ الرجلين، ماذا يفعل الفساد معهما، فالفساد يحتاج لأشخاص لديهم مالٌ ووقتٌ وفراغ، وليس لديهم هموم أسرية مثلهما تلهيهما عن غيرها، أغلب الفاسدين والمُفْسَدين رجال ونساء مطاليق لا أهداف لهم في الحياة، أمَّا هما فإنهما ليسا من النوع الذي يسهل إفساده أو جرُّه

عن الصراط المستقيم: «إبليس بيعرف ناسُو.»

كان «فتح الله فراج» قد عزم على الذهاب إلى الصحراء، وليس دائمًا هنالكَ شيطان وموت، والدليل أن «عطية ود مُرسال» سائق الكارو قد اشترى عربة لوري ممَّا وجده من ذهب بصحراء العتمور، نعم لقد أصبح معتوهًا بعض الشيء نتيجةً للثراء غير المتوقع، وصدمته مشاهدة حجرٍ كبيرٍ من التبر في حجم البرتقالة، وليس لذلك أيُّ دخلٍ بالشياطين وحُراس الذهب، وهو يعمل إلى الآن بالعربة في ذات الصحراء، وقد وضع على ظهرها حاوية مياه شُرب، حيث إن الماء أيضًا يُباع مقابل الذهب هناك. قابله «فتح الله فراج» من قبل في السُوق الشعبي بـ«أم درمان» ولم يتعرَّف عليه مع ما بلغ به الحال من دعةٍ وحياةٍ رغدة، لقد صار سمينًا مثل البغل، وكان نحيفًا وطويلًا بظهرٍ منحنٍ لكونه كان حمَّالًا مشهورًا في سوق «زقلونا-شمال»، وصوته أيضًا تغير، أصبحت به رقة من لديهم مالٌ كثير، وبحَّة الأثرياء، وإذا كان «فراج» يجيد القراءة، لقرأ ما هو مكتوبٌ على الباب الخلفي للوري «عطية ود مُرسال» بطلاء ذهبي، هذا الجزء من الأغنية الشهيرة للشاعر «البجاوي أبو آمنة حامد» وغناء المطرب «صلاح ابن البادية»: «سال من شعرها الذهب.»

بعد الغداء قرَّرا الذهاب، فورًا. ماذا ستفعل لهما الشياطين أكثر ممَّا فعل بهما الفقر والوالي وعسكره ومجاهدوه: «فهل الحكومةُ أرحم

من الشياطين؟» تذكَّر «جبريل» كيف هاجمته الشرطة في البيت وهو يعدُّ الذبيح للبيع، لقد حاول مقاومة قرار الوالي في البداية ببيع الذبيح داخل بيته، حيث يشتري منه الجيران وترسل المطاعم الفقيرة مناديبَ لها، ويأخذ صديقه «فتح الله» البعض للعمال عند المصرف فيبيعه ويأتيه بالنقود، ولكن قيادة اللجنة الشعبية بالحيِّ قامت بالوشاية به، وداهمته ثُلةٌ من صغار الجند والمجاهدين، قاموا بخلط اللحوم بالتراب أمام عينيه وبناته وزوجته، ثمَّ رموا بها في صندوق عربتهم الـ«لاندكروزر»، ورموه على اللحمة، وانطلقوا به نحو مخفر الشرطة وهم يكيلون له اللعنات، وكأنه عدوٌّ شخصيٌّ لهم.

لولا أن رجلًا حسن الهندام، يبدو أنه محامٍ، قابله صدفةً في مخفر الشرطة وهم يدفعونه أمامهم، ثمَّ لحق به في الحبس سأله عن تفاصيل حكايته، ثمَّ همس له قائلًا: «أنتَ لا تبيع اللحوم، ذبحتَ الخروف من أجل إطعام أطفالك، ولا تقُل غير ذلك، وطالِبْ بتعويض للخسائر.» لم يلتقِ بهذا الرجل مرةً أخرى، ولكن أطلق وكيل النيابة سراحه في اليوم التالي، عندما أكَّد له «جبريل كيري» أنه كان في الماضي قبل قرار السيد الوالي، يعمل في الكيري، ولكنه بعد القرار أخذ يذبح أسبوعيًّا حملًا صغيرًا من أجل إطعام أسرته، الذين اعتادوا على أكل اللحوم، لكن الشرطة داهمته في عقر داره وأفسدوا اللحوم، وقاموا برميه بقسوة داخل العربة اللاندكروزر، ليجد نفسه بالحبس

دون أن يرتكب أيَّ جريمة. وحذره البعض من مغبَّة مطالبة الحكومة بتعويض، طالما تمَّ إطلاق سراحه بهذه السهولة، فنسي الأمر.

كان ذهنه يعمل بصورة متواصلة، يرى العالم وقد صار ضيقًا جدًّا، وكلُّ الطرق مغلقة أمام وجهه، ما عدا الذهب، وتخيَّل سبائك من الذهب تتناثر في صحراء لا نهاية لها، وهو وصديقه «فتح الله» يأخذان منها وسعهما.

الطريق إلى الصحراء سهلٌ، ولكنهما يحتاجان لتاجرٍ يعطيهما جهاز كشف المعادن، ويوفِّر لهما سبل الإعاشة والترحيل، ففي العادة يكون في صحبة الفريق عربة بوكس «ربع نقل» بها براميل ماء وبعض الأطعمة المجفَّفة، مولد كهرباء صغير الحجم، ليس للإضاءة ولكن لشحن بطارية الجهاز، وهنالك أدوات ومعدات للحفر وأخرى لكسر الحجارة، طاحونة صغيرة لسحن الحجارة وغير ذلك. أمَّا البحث فسهلٌ، ويمكن تعلُّم استخدام الجهاز في دقائق، كما أخبرهم «أونور» بذلك:

- أهم ما في الأمر الصبر والشجاعة.

قال لهما هذه الجملة الأخيرة وهو يبصق سَفَّة الصعوط:

- العمل صعب والشمس ساخنة والجهاز ثقيل والفساد كثير، ورب الكَآْبَة.

وما استطاعا أن يتذكَّرا شيئًا حسنًا أو متفائلًا قاله لهما «أونور

سدنا»، ولكنه دلَّهم على جلابي سيقوم بمساعدتهما، وهو يعمل في هذا المجال منذ سنوات، لديه العربات والأجهزة والمؤن، والمرشد، أو الأمين كما يسمونه، وهذا الأمين رجل يعرف أماكن الذهب بإشارات على السطح، وأحيانًا بمساعدة «النسَّابة» وهم الذين يقدِّرون نسبة الذهب المتوفر في التربة أو الصخر أو الرمال أو حتى البئر. كما إن الأمين يقوم أيضًا باستلام الذهب بعد تعدينه، ليسلِّمه للتاجر، بعد وزنه أمام الجميع، كما إنه يستطيع أن يقدِّر أثمان المنحوتات الذهبية الأثرية والمصوغات من ختم لجعارين وتماثيل في صورة حيوانات أو ملوك وغير ذلك. وهو من جهةٍ أخرى يسجِّل حقوق العاملين التي تساوي الثلث، وهذا نصيبٌ كبير.

حذَّرهما «أونور سدنا» من الخيانة، ويعني أن يخفيا بعض الذهب من وراء الأمين؛ فعقاب الخائن: الموت وسوء العاقبة بعد الموت. لم يشرح لهما كيف يكون هذا الموت، فالموت واحد ولو تعددت أسبابه، طالما كانا يفهمان ذلك، فلم يلحَّا عليه لمعرفة كيفية الموت. وحدَّثهما «أونور» للمرة الثانية أو الثالثة عن قرى الدهابة التي هي أشبه بمعسكرات للفساد والرذيلة، حسب رأيه، وبها كلُّ المحرمات وغير المحرمات: «بنقو، حشيش، لاندكروزرات وجِمال، حبوب، أفيون، لوايطة وشراميط وأمنجية ومعرصين، رجال ونساوين، عرقي ومريسة، إبليس ذاتُهُ ساكن هناك، يمكن يكون فيها كُفار

قُريش واليهود كمان، لأن الدهب ما بيتلقي دون نجاسة وقلة أدب. الزول إذا ما عمل حساب لنفسُو «يِسَوُّوا لِيهُ؟» في رمشة عين حمانا الله، «أونور» يموت ولا يلعب بشرفهُ.»

العلاقة بين الرجلين علاقة من نوع خاص، هما لا يتشابهان في شيء، لا في الشكل الظاهري لكليهما ولا في النشأة ولا حتى في التفضيلات والأمزجة، فـ«جبريل» رجل نحيف طويل القامة له بشرة قمحية وشعر خشن، ويتحدَّث العربية بلكنة كردفانية لم تفارقه طوال حياته على الرغم من السنوات الطويلة التي عاشها في مدينة «الخرطوم»، هو حادُّ الطبع قليلًا، نشط ومتطلِّع وبه قدرٌ من التشاؤم كبير، وليس «فتح الله فراج» عكسه في كلِّ شيء، ولكنه يتميز بشخصية حالمة وبه حُبٌّ للمال لا يمكن أن تخطئه عين، ولو أنه أكثر فقرًا من صديقه «جبريل»، فلدى «جبريل» عربة كارو وحمار وقطيع صغير من البهائم، أمَّا هو فلا يمتلك سوى قفص الدجاجات البلديات. ربما كان «فتح الله فراج» أصغر عمرًا من «جبريل»، قد يصغره بخمس سنوات، لا أحد يعرف عمريهما، ولكنه يُرى أكبر بكثير منه، نسبةً لبياض شعره والتجاعيد المبكرة على وجهه، وهو يعزو ذلكَ إلى الملاريا الخبيثة التي أصابته وهو صغير وكادت أن تودي بحياته. «جبريل» و«فتح الله» أمِّيَّان، لا يفكَّان الخط، كلاهما لم ينل حظًّا من التعليم.

وُلد «فتح الله» وترعرع في مدينة «الخرطوم» من والدٍ فقيرٍ كان يعمل في مزرعة لرجلٍ إنجليزيٍّ ثريٍّ بشاطئ النيل على أرض تُسمَّى «كافوري» بالخرطوم بحري، فلقد وُلد «فتح الله» بالمزرعة ذاتها ونشأ وترعرع فيها، في كوخ صغيرٍ من العُشب الموسميِّ والطين، ولم يفكِّر والده في إدخاله المدرسة، فكان همُّه أن يصبح مزارعًا جيِّدًا ويحلَّ محلَّه في المستقبل عندما يعجز عن العمل، وبذلك يضمن مستقبله وهو طفله الوحيد. يجب ملاحظة أننا هنا نتحدَّث فقط عن الأب، ولم نأتِ على ذكر الأم، كما أظنُّ أن الوقت قد حان لكي نفصح قليلًا عنها، وأظنُّ القارئ الذكيَّ قد خمَّن من تكون أمُّه أو ما صفتها، ولكن الكاتب الماكر هو الذي يخيِّب ظنَّ القارئ دائمًا، ويُفشِل كلَّ توقعاته؛ فالأمُّ هي بوضوح فتاة كانت تسكنُ في الجوار، ويعني ذلكَ أنها ابنةٌ لرجلٍ ثريٍّ آخر، ليس أوربيًّا بل من سكان البلد الوطنيين، هم نفرٌ من الأثرياء الذين استفادوا ممَّا ترك الاستعمار الإنجليزيُّ في أيديهم من مواقع سياسية حساسة وأراضٍ شاسعة ومال وفير، فعاشوا كالأباطرة، وفي ظنِّهم أن النقود والحياة الرغدة الكريمة تكفي للسيطرة على الكون خارج البيت وداخله أيضًا، وأن الفتيات الصغيرات المراهقات يستعضن بها عن الحاجة إلى إشباع الجسد؛ وبذلك يهمل الآباء الأثرياء حاجات بناتهن الحقيقة بل لا ينتبهون إليها في الواقع، والصبيات النزقات — في الغالب — يعرفن سبل

الحياة خيرًا من آبائهن، ومن ثمَّ يشققن طريقهن في مسالك الحياة الوعرة بأنفسهن، تقودهنَّ غريزتهنَّ المباركة وجنون الجسَد. فهذا يعتبر تحليلًا معقولًا لحالة أمِّ فتح الله فراج فتح الله، التي لم يحكِ له أبوه عنها أو أيُّ شخصٍ آخر، بل أصبح كأنَّما ليس له أمٌّ، لأن لا أحد يعرف عنها شيئًا في كلِّ الحياة الدنيا على الأرض سوى قابلة بلدية، وأمها، وأبوه، والخواجة «جورج» صاحب الأرض الذي ظلَّ مُندهشًا منذ الصباح الذي رأى فيه الطفل الصغير في قطع بيضاء من القطن في كهف عامله «فتح الله»، إلى أن رحل عن الدنيا الفانية في مدينةٍ ما في بلاده بريطانيا العظمى.

إذن، لقد تربى «فتح الله فراج فتح الله فراج» مع والده، وتحت رعاية الخواجة «جورج» والأغنام التي بالمزرعة، ولم يرَ أمَّه في واقع الأمر وربما هي أيضًا لم تره، وكما أن الأب أيضًا في واقع الحال لم يرَ الأم، وهذا فعلًا وحقيقًا وليس مجازًا. كلُّ شيءٍ حدث في كامل الغرابة التي تحدث بها الأشياء الغريبة: بعد يومٍ شاقٍّ من العمل، دخل «فتح الله فراج»، ذلكَ الرجل الأربعيني العاملُ في المزرعة، المستقيم جدًّا، الذي ليست بذهنه أسئلةٌ ملتويةٌ عن الجنس أو الكون أو الديانات أو الله، المؤمن تمامًا بما ورثه من جدوده المسلمين، عن الحلال والحرام والخير والشر والجمال والقبح، دون أيِّ نقص أو زيادة. صلَّى العشاء قبل أن يدخل كوخه المنعزل عن بيت صاحب الأرض الأقرب

لشاطئ النيل وسط بعض أشجار الفاكهة، أطفأ المصباح الزيتيَّ الصغير وتمدَّد في استعدادٍ نمطيٍّ للنوم. في تلكَ اللحظة بالذات دخلت فتاة في الثامنة عشرة من عُمرها، نحيفة، طويلة، ذات شعرٍ كثيفٍ مسدلٍ على كتفيها، جميلة، ناعمة، تفوح عطرًا ورغبة، ظنَّها جنِّيَّةً نسبةً لأنه لم يرَ سوى ظلٍّ أسودَ أو شبحِ أنثى مظلمٍ كالليل يدخل غرفته. وكاد أن يصرخ، ولكنه تمالك نفسه وبَسمل وحَوقل، إلا إن الفتاة الصغيرة الشجاعة قد طمأنته عندما قالت له:

- «فتح الله»، أنا فلانة ابنة فلان جاركم.

- كويس، جاية بالليل تعملي شنو؟

- جاية عشانك.

تعتع ببضعة كلمات لا يدري معنى لها، بينما كانت تتقدَّم نحو سريره الفرديِّ العجوز. جلست قربه، ثمَّ حدث كلُّ شيءٍ بكلِّ بساطة، وفي مراتٍ كثيراتٍ أخريات، حتى إنه أصبح ينتظرها في جنونٍ عندما تغيب عنه لأيامٍ قلائل. لقد وقع في غرام شبحٍ مظلمٍ كالظل. ولو أنه لم يرَها في وضَح النهار عندما أخذ يتجوَّل حولَ بيتِ أبيها ويراقب حركة الأسرة، إلا إنه كان متأكدًا من أنها هنالكَ وأنها ابنة هذا الفُلان، ولكنه لم يرَها أبدًا، أو إنها كانت تراه من موقعٍ ما ولا تريد له أن يراها، وظنَّ لحينٍ أنها كاذبة، وأنها فتاة تأتي من أسرةٍ أخرى أو من مكانٍ ما بعيدٍ عن منازل الجيران الأثرياء الذين يحيطون

به، وأنها تخدعه لكي لا يعرف حقيقة أسرتها، ولحينٍ آخر ظنَّ أنها ليست سوى سيدةٍ من الخيال؛ مجرَّد فتاة صنيعة أوهامه ورغباته المكبوتة غير المحقَّقة في ظلِّ حياة عملية قاسية. ولو أنهما أحيانًا يقضيان وقتًا جيِّدًا في المؤانسة والحكي عن الأسرة والحياة، وقد عرفت عنه الكثير وعرَّفَته أيضًا بتفاصيل أسرتها، وقالت له إنها في وضعٍ أقرب للسجينة في بيت أبيها، وإنها تهرب إليه من المنزل هروبًا وبحيلٍ معقدَّة، فوالدها لا يثق في واحدةٍ من بُنيَّاته ولا في أمِّهن.

ثمَّ غابت لعدة أشهر ثمَّ أتته في ليلةٍ مظلمةٍ بالطفل، أرضعته أمامه ثمَّ تركته له وفي فمه «بزازة» مملوءة باللبن، ثمَّ اختفت تمامًا وللأبد. لولا وجود الطفل بالفعل من دمٍ ولحم، لظنَّ أن الأمر لم يكن سوى حلم، ولولا أنه لا يمكن أن يكونٍ هنالكَ طفل من غير أن تكون له أم، لآمن بأن طفله هذا بلا أم. فمن هي أُمُّه، ما لونها، ما اسمها، ما شكلها؟ لم تترك الأمُّ له من ذكرًى ماديةٍ غيرَ رائحةِ جسدها التي لم تغادر أنفه قط، وهيئتها التي هي أشبه بظلٍّ ثقيلٍ أو شبحٍ في جسد فتاة. هذه هي قصة أمِّه باختصار.

عندما باع صاحب الأرض الخواجة «جورج» أرضه وقد بلغ من الكبر عتيًّا، وأراد العودة إلى بلاده خاصَّةً بعد أن نال السودان استقلاله وقلَّت امتيازات الأجانب، بل أصبح المواطنون ينظرون إليهم كبقايا لعصر استغلالٍ وظلمٍ واستعمار، وخاف الكثيرون ممَّا ستأتي

به الأيام، وهو واحدٌ ممَّن خافوا. باع كلَّ شيءٍ بما فيه بالطبع كوخ «فتح الله» الأب، لأفرادٍ من الأثرياء التجار والسياسيين والوزراء، الأمناء على مال الشعوب الذين قاموا بتشييد فللٍ وعماراتٍ شاهقة على أنقاضه. عمل «فتح الله فراج» خفيرًا ببعضها، وظلَّ يتنقل بابنه من عمارةٍ تحت التشييد إلى أخرى حتى حوالي ثلاثين عامًا؛ أيْ عندما بلغ «فتح الله فراج» الثالثة والثلاثين. توفي «فراج» الأب في عُمرٍ لا يقل عن السبعين سنة، في ذلكَ العام كان الابن في الثلاثين من عمره، وتزوَّج بعد عدة سنوات من فتاةٍ ذكيةٍ اسمها «نصرة» سليلةُ أسرةٍ فقيرةٍ يعمل معظم أبنائها في الجيش، تمتدُّ جزور الأسرة إلى جنوب الخرطوم على ضفاف النيل الأزرق.

ورث «فتح الله» عن والده عشرين دجاجة بلدية، وقفصًا مصنوعًا من السِّلك النَّمليِّ المُسمَّى بـ«عين القط»، وهو شبكةٌ معدنيةٌ رخيصةٌ ومتينة، سعة القفص القُصوى أربعون دجاجةً بلديةً وديكًا واحدًا، ثمَّ رحل من عمارةٍ ما تحت التشييد إلى «زقلونا» حيث التقى هنالكَ بـ«جبريل» الجزار، وتصادقا.

جاء «جبريل» من قريةٍ صغيرةٍ تسمَّى «أولاد أحمد» تقع جنوب «هجليج» في إقليم «كردفان»، وهي بقعةٌ مشهورةٌ بإنتاج البترول، ولكن قرية «جبريل» بالذات بها آبار نفطٍ تمَّ إغلاقها نهائيًّا عندما اختلفت «شيفرون» الشركة العابرة القومية المنقِّبة، مع السلطة

السياسية في الدولة في ذلكَ الحين. ربما كان للعقوبات الاقتصادية الأمريكية على الحكومة السودانية أثرٌ غير مباشر. عمل «جبريل» في صباه مع «الفرسان الخيالة»، وهم جماعة من العُربان تعمل في شكل مليشياتٍ مسلحةٍ في صفِّ الحكومة المركزية — وأحيانًا لحسابها الخاص — ضدَّ قوات الحركة الشعبية والمليشيات الحُرة المتمرِّدة على السُّلطة المركزية المنتشرة والمسيطرة على تلكَ البقاع. وعلى الرغم من المكاسب الكثيرة، حيث كانوا يقتسمون الغنائم من ماشيةٍ وسلاحٍ وفي أحيانٍ كثيرةٍ بشرٍ بدمهم ولحمهم، إلا إن المخاطر كانت أكبر، لأنهم أنفسهم قد يقعون غنيمةً لمسلَّحي الحركة الشعبية أو المليشيات القبلية المُسلحة، وقد يواجهون الموت أو الأسر المهين. ففضَّل «جبريل» أخذ زوجته «ملكة الدار» وابنته الصغيرة «شوشايا» إلى «الخرطوم»، حيث يمكنه العيش كجزار، وهي مهنةٌ يتخذها الكثيرون من أبناء قريته بـ«الخرطوم» ويكسبون منها عيشهم. خلفيته الرعوية تمكِّنه من إجادة مهنة الذبح والسلخ وتكسير العظام.

باع ما لديه من سلاح لسماسرة سوف يبيعونه مرة أخرى لمليشيات الحركات الشعبية والمليشيات المسلحة الأخرى، وباع أيضًا الطفل الذي اغتنمه في إحدى غزوات الخيالة من قرية أفريقية صغيرة جنوب «نهر العرب» (تم ذكر ذلكَ في الفصل الأول من الرواية)، ولو أنه كان يرغب في أخذه معه للخرطوم، إلا إن العارفين نصحوه

بألَّا يفعل ذلك، لأن الطفل سيهرب منه في المدينة الكبيرة الشاسعة، وليست لديه سُلطةٌ قانونيةٌ لإعادته كما هو الحال بقرية «أولاد أحمد»، ومن الأحسن أن يقوم ببيعه لأحد الرُّعاة الذي أبدى رغبة في شرائه، بل كان يلحُّ على ذلكَ نسبةً لأنه ليس لديه أبناء ذكور ويحتاج إليه في رعاية حيواناته والدفاع عن أسرته إذا تطلَّب الأمر، ومن جهةٍ أخرى فإن «جبريل» سيستفيد من ثمن بيع الطفل في مجابهة متطلبات حياة «الخرطوم» الكثيرة، ولو أن الأمر ليس بالسهل، لقد نشأت علاقة إنسانية جميلة بين الطفل والأسرة، وخاصَّةً الصغيرة «شوشايا»، فقد كانت تحبُّه جدًّا، ونسبةً لطيبة روحه والمرح الذي يتصف به، وصوته الجميل في الغناء، وسرعته في أداء الخدمات دون تضجُّر، كما إنه كان الأحرف والأكثر مهارة في صيد الأرانب والحيوانات الأخرى، فاتخذه «جبريل» كابنٍ ذكرٍ له، ولكنه لم يستطع أن يقايض حاجته للمال بمحبَّته للطفل، وسقط «جبريل» في اختبار القِيَم، وبذلك انتقل «غزال» من بيته إلى أسرةٍ أخرى. وسنأتي على ذكر تفاصيل ذلكَ في موقع آخر.

ركب «جبريل» وأسرته على ظهر شاحنة نيسان، استفرغتهم وعشرات الآخرين في مدينة «أم درمان» عند السوق الشعبي، ودارت دوائر الحياة المريرة عليهم، لينتهي بهم المقام عند «زقلونا» جوار المصرف الصحي، ليس بعيدًا عن «نيمة» عم «عبد الرحيم

خيري» الحلاق.

كانت «زقلونا» في تلكَ الأيام منازلًا عشوائية من الخيش والكرتون والمشمَّع والقش، تزيلها السلطات نهارًا، ويُعيد بناءها السكانُ بالليل، إلى أن تعبت المحلية وقامت بتخطيطها وبيعها بأسعار زهيدة لآدميين فقراء سيطروا عليها بوضع اليد والإصرار والمماطلة.

العلاقة بين الرجلين، مثل العلاقة بين أيِّ رجلين آخرين، ولكنها لدى «جبريل» و«فتح الله»، تقوم على عقدٍ غير مكتوب، ولكنه منفَّذ بدقة. إنهما يستخدمان عربة الكارو التي يمتلكها «جبريل» ويجرُّها حماره الفتي، ويحدث هذا دون نقاش أو ثرثرة، فمنذ اليوم الأول الذي قابل فيه «جبريل» «فتح الله» عند المصرف يحمل بستلة من الألمونيوم بها بيض مسلوق، ويصيح بصوته الخشن: «جَنَا جَدَادْ، جَنَا جَدَادْ.» أخذ «جبريل» منه بيضتين، وشرع في التهامهما، بينما قفز «فتح الله» دون استئذان على سطح عربة الكارو، صائحًا:

- ممكن نحوم سوا؟ أنت تبيع اللحمة وأنا أبيع «الجَنَا جَدَادْ».

ردَّ إليه «جبريل» وهو يلوك البيض في فمه، ويتنحَّى مفسحًا مكانًا طيبًا لجلوس «فتح الله فراج» قربه على سطح عربة الكارو:

- وَمَالهُ!

آخر اليوم، وهما عائدان، عندما رفض «فـراج» أخذ ثمن

البيضتين، وهبه «جبريل» ربع كيلو لحمة ممَّاً خصَّصه لأبنائه، ومنذ ذلكَ الحين، يأخذ «جبريل» بيضتين مسلوقتين، ويحمل «فتح الله فراج» ربع كيلو من لحم الضأن إلى أسرته. هي قسمة غير عادلة ولكن ارتضاها الرجلان في صمتٍ ومحبَّة، وأكَّدت عليها إرادة البقاء وشراكة الحياة الخَيِّرة، وكان شعار الرجلين الحكمة القائلة: «الفقراء تقاسموا النبكة».

خُلْقُ الْمَال

في الكمبو الكبير عند سُوق الدهابة، يمكنه أن يصيب نجاسةً، حيث يوجد بعض اللوطيين والسيدات اللائي يقمن بهذا العمل، ليس من أجل المُتعة ولكن من أجل التنجيس، حيث تُعتبر النجاسة إحدى مُدخلات وأدوات العمل الميتافيزيقية في تعدين الذهب؛ بل إنها أداةٌ لا تقلُّ أهميةً عن المعاول والطواحين والتعاويذ والماء، لأن بدونها لا يمكن الحصول على الذهب على الإطلاق.

لم يكن في بال «فتح الله» أن يخبر زوجته بموضوع بيضة الديك الذهبية، لو لا إنها فاجأته يتفحَّصها في إعجابٍ بالغ بالحجرة الكبيرة، ولأنه أيضًا لا يعرف كيف يكذب أمام زوجته، لأن لديه يقينًا تامًّا بأنها تعرف كلَّ شيء في الحياة الدنيا وفي الآخرة أيضًا، ويؤمن إيمانًا مطلقًا بأن «نصرة» تعلم ما يدور بخلده وخلد ولده وبنته، وبالإضافة إلى إنها تجيد القراءة والكتابة وعبقرية في الحساب، فإن «نصرة» ترمي الودع وتقرأ الكف، على حدِّ قوله: «أبُون عرييفْ!» أي العارفة بكلِّ شيء، المدركة لما لا يُدْرك، التي لا تخفى عليها خَافيةٌ، ولا يمكن خداعها، وتستطيع — إذا شاءت — أن تخدع من وما تريد، ويسمِّيها بعض أفراد أسرتها الكبار في السن «رضيعة الجَدَّة أماني» ولذلك قصة ستُروى لاحقًا. هذا لا يمنع أنها تضع لـ«فتح الله» ألف حساب وتخشى ردود أفعاله الرعناء، فهو لا يتردَّد في ضربها وبعنف، قِيل إنه طلَّقها طلقةً واحدةً من قبلُ في ظروفٍ غامضةٍ، ربما سنحكي ذلكَ لاحقًا وقد ننسه.

تفحَّصت البيضة جيِّدًا، اختبرتها بأسنانها ولسانها وسكينة المطبخ، نقرتها بالملعقة والحجر، قالت له بصوتٍ خفيضٍ مبحوح،

في أذنه اليمنى، لأن اليسرى تعلم وحدَها أنها عاطلة: «دهب، دهب يا أبو السر، دهب عدييييل!»

عندما وصلا إلى الصائغ بعمارة الذهب بالسوق العربي بـ«الخرطوم»، كانا قد تحدَّثا بصمت، كلٌّ في دواخله، كان همُّ «نصرة» الذي لم تشأ أن تعبِّر عنه الآن، هو: «إذا صدق أنَّ هذا الشيء كان ذهبًا، فلمن تؤول ملكيته؟ فالديك الذي باضه هو ديك المرحوم «جبريل»، بالتالي أولى به أولاد المرحوم، ولكن دعنا نرى ما يقول الصائغ أولًا، ربما يكون الشيء ليس سوى نحاس أصفر لا غير.»

سأله الصائغ وفي فمه ابتسامة ماكرة، بعد أن قضى ما يُقارب نصف الساعة يختبر الشيء بالمحاليل الكيميائية والنار، من ثمَّ وزنه:

- من وين جبت الدهب دا؟

شرح له بالتفصيل المملِّ كيف إنه ذهب إلى الصحراء في صحبة صديقه «جبريل» للتنقيب العشوائيِّ اليدوي، وأنهما عثرا عليه في مغارة كبيرة يبدو أنها كانت معبدًا أو بيتًا ملكيًّا لأجدادنا القدماء، حدث ذلكَ قبل سبعة أشهر من الآن، ولكنه لم يشأ أن يعرضه إلَّا الآن.

- كويس، وين صاحبك؟

قال دون تردُّد وكأنه يحفظ قصَّةً ويقوم بتسميعها عن ظهر قلب:

- مات، قتله الشيطان حارس الذهب، رفسه في بطنه، وعندما

وصلنا «الخرطوم» أسهل ومات.

ولفَّق للصائغ قصَّة الحصان الذهبيِّ التي قصَّها لهما البجاوي «أونور سدنا» عند شجرة عم «عبد الرحيم»، فقد قام بتحويل الحصان إلى جحشٍ صغيرٍ لسبب لا يدريه هو نفسه.

قال الصائغ متأثرًا:

– عليه الرحمة، كويس، وين عياله؟

قال دون تردُّد، مشيرًا إلى «نصرة»:

– دي زوجته الحاجَّة «نصرة».

تناول آلة حاسبة وأخذ يعمل فيها للحظات ثمَّ قال مخاطبًا «فتح الله فراج فتح الله»:

– ٩٥ مليون و٥٦٧ جنيه و٢٠ قرشًا.

ثم أضاف:

– عندك بطاقة شخصية أو أي ورق ثبوتي؟

أجاب أن لا ولكن بإمكانه أن يحضر من يمتلك الأوراق، ولكن زوجته قالت مقاطعة:

– أنا عندي بطاقة شخصية.

فنظر إليها «فتح الله» في استغرابٍ ودهشةٍ كادت أن تفضحه أمام الصائغ، بل كاد أن يسألها باستنكار:

– من أين لك بها؟

أجابته في سرِّها، بأنه إذا كان لديه أخٌ في رتبةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ كرتبة أخيها أو أقلَّ منه قليلًا، لما سأل هذا السؤال السخيف الذي سيطيح بهما إذا كان الصائغ يقرأ الصمت ويعي ما لا ينقال، كما تعيه هي.

ردَّ عليها بلغة الصمت ذاتها:

- أخوك البغل وزوجته البغلة.

قالت بحنق — لولا الصمت لطلعت الكلمات حامية كالنار:

- أحسن ألف مرة من أبوك الشحاد.

قال وهو يكاد ينفجر من الغيظ:

- أبوي أنا يا «نصرة»؟

سجَّل الصائغ البيانات، وكتب شيكًا بالمبلغ وأعطاه لأحدهم، خرج بالشيك مهرولًا ثمَّ عاد وفي يده كيسًا كبيرًا مملوءًا بالمال، قام الصائغ بعدِّ المبلغ أمامهما، وأخذ توقيع المرأة، وبصمات «فتح الله فراج» الذي اعترف بعدم إجادته للقراءة والكتابة، ولكن ليست البصمة بعيب، ولا الأُمِّيَّة، فـ«الرسول صلى الله عليه وسلم كان أُمِّيًّا.»

قطع الصائغ فحيح حوارهما الصامت عندما صاح:

- يا ولد نادي عمك «طيفور» بتاع التاكسي.

انحشرا في تاكسي الأجرة العجوز، وانطلق بهما نحو «زقلونا» جنوب غرب المصرف الكبير، لأوَّل مرةٍ في حياته يركب عربة تاكسي، كان يمسك كيس النقود في يده بقوة، يقبض عليه بشدةٍ كما

لو أنه سيطير في الهواء قافزًا من الشباك، وهو لا يصدِّق أن بيديه الآن ٩٥ مليون جنيه، هو لم يقبض في يديه من قبل ألف جنيهٍ كاملات في دفعةٍ واحدة، لا يدري ماذا يفعل بكلِّ هذه النقود، أو ربما كان الوقت مبكرًا للتفكير في مشروعات تستوعب هذا المبلغ الكبير من المال، ولكنه أيضًا لم يستطع أن يتجنَّب صورة صديقه «جبريل» وهما على الكارو يبيعان البيض، ثمَّ مرَّ عليه الفيلم اللعين كما الكابوس:

«في الأصل كانا يعملان «دقاقين» وهي الوظيفة التي تُطلق على الذين يقومون بتقعيد بئر الذهب؛ أيْ المنجم، يعني حفرها وإعدادها، ومعالجة الصعوبات التي بها والمعضلات من حجارة الجرانيت إلى العروق الزائفة، وقد تعلَّما ذلكَ بسرعة، ولو أن العمل كان خطرًا لاحتمال التعرُّض إلى نقصٍ كبيرٍ في الأكسجين في جوف البئر أو انهيار البئر عليهما وبالتالي موتهما تحت الأنقاض، ويحدث ذلكَ كثيرًا. وأخيرًا تمت الاستجابة إلى طلبهما المتكرر في أن تستبدل بوظيفتهما وظيفة أخرى: «جرارين» أو «رضاضين» أو «نقالين» أو حتى في الميس، المهم أن يكونا معًا، وألَّا يعملا في مهنة «دقاقين» مرة أخرى. ولكن طبيعة العمل الجديدة ليست ببعيدة عن الوظيفة الأولى، ولكنهما هنا لا يقومان بأي حفرٍ أو تقعيد، فقط ينزلان في القبر النوبيِّ القديم مستثمرين ما يتمتعان به من شجاعة وروح مغامرة وحبٍّ للمال، وأمانتهما المعهودة، حيث كانا قد عملا بنصيحة

«أونور سدنا» البجاوي، كما أن السمعة الجيدة التي حازا عليها في مغامرة مغارة جبل «عضو الكلب» في أيامهما الأولى (سنحكي عن ذلكَ مستقبلًا) والخبرة الكبيرة جدًّا في العمل داخل الآبار العميقة، مثَّلتا دافعًا طيبًا لربِّ العمل «الجلابي» للإصرار على أن يختارهما الاثنين بالذات، ولو أن العمل في القبور النوبية يعتمد في الأساس على ثلاثة عوامل: الشجاعة، والأمانة، والمعرفة بالقرآن الكريم، حيث إن تلاوة بعض الآيات القرآنية على نجاسة تُبعد الشياطين والعفاريت الذين يحرسون كنوز أموات النوبة، ولو أنهما أُمِّيَّان إلا إن «جبريل» عُرِف بالتقوى، وقد شاهده الناس يؤدِّي الصلوات في أحيانٍ كثيرة، حتى داخل المعسكر الموبوء بكلِّ ضلالات الدُّنيا، فكيف يؤدِّي الصلاة إذا لم يكن يحفظ القرآن؟ ولو أن «جبريل» احتجَّ احتجاجًا عنيفًا على فكرة دخول القبر النوبيِّ على «نجاسة»، لقد فعلها مرةً في مغارة جبل «عضو الكلب» عندما صحبا الخواجة الغريب، ولو أنه كاد أن يقنع «الجلابي» في ذلكَ الحين بأن الخواجة أصلًا نجس، فالخواجات لا يقومون بالاغتسال غسل الجنابة بعد ممارسة الجنس، وبإمكان نجاسته المتراكمة منذ بلوغه أن تطرد رتلًا من الشياطين والأبالسة، ولكن «الجلابي» لم يقتنع بحجته، ففعلها طمعًا في المال الذي تحتاج إليه أسرته، ولكنه يتردَّد الآن كثيرًا في فعلها مرة أخرى. «جبريل» لم يستحمَّ منذ أسبوعٍ تقريبًا نسبةً لندرة المياه في الصحراء

وغلاء سعرها، إلا إنه كان يحافظ على الوضوء مرةً في اليوم ثمَّ يؤدِّي بقية الصلوات بالتيمُّم، ولكن كيف يُطلب منه أن يُصاب بنجاسةٍ كلما كان هنالكَ عملٌ صعبٌ في مغارةٍ أو كهفٍ أو قبرٍ؟ ولكن عندما تحدَّث معه الجلابي وشرح له خطورة أن يدخل تلكَ الأمكنة وهو طاهر، وأنه قد يُصاب بمسٍّ من الجنون، وأنه يحتاج لقراءة بعض سورٍ من القرآن الكريم، وعليه ألَّا يقرأها وهو طاهر متوضئ وإلَّا قرأ الجنُّ الحارس للذهب معه نفس الآيات، فمن الجنِّ ما هو مسلم وحافظ للقرآن، بالتالي لن يكون لها تأثير، وهذا متعارفٌ عليه ومؤكد، وعليه ألَّا يخالف ما يُعرف حتى لا يحدث ما لا تُحمد عقباه. في الكمبو الكبير عند سُوق الدهابة، يمكنه أن يصيب نجاسةً، حيث يوجد بعض اللوطيين والسيدات اللائي يقمن بهذا العمل، ليس من أجل المُتعة ولكن من أجل التنجيس، حيث تُعتبر النجاسة إحدى مُدخلات وأدوات العمل الميتافيزيقية في تعدين الذهب؛ بل إنها أداةٌ لا تقلُّ أهميةً عن المعاول والطواحين والتعاويذ والماء، لأن بدونها لا يمكن الحصول على الذهب على الإطلاق.

تمَّ تزويدهما بفانوسين كهربائيين يتم ربطهما بحلقة معدنية حول الرأس، يعملان بحجارة البطارية الجافة، كما رُبِط الرجلان بحبلين من وسطهما، وذلكَ تحسُّبًا لأيٍّ من الكوارث غير المحسوبة. وعادةً تُعتبر القبور النوبية القديمة أكثر أمانًا، حيث إنها لا تنهار إلَّا نادرًا،

فهي أقرب للحجرات المستطيلة، وتمتاز بأنها واسعةٌ جدًّا من الداخل وليس بها روائح كريهة، فقط يخاف الناس من الشياطين التي تحرس الكنوز كما سلف ذكره، و«جبريل» سيقاومها بالنجاسة وبآيات من القرآن الكريم فيبطل سحرها.

وهما يلِجان القبر، توقَّفا قليلًا، وضع «جبريل» كلتا كفَّتيه على وجهه، ثمَّ أخذ يتلو في صمتٍ وخشوعٍ: «بسم الله الرحمن الرحيم، الذابحُ مذبوحٌ، والآكلُ مأكولٌ، وكلُّنا من التراب وإلى التراب. يومٌ ليك ويومٌ عليك. لطفكَ يا ربي. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.» كانت تلكَ تعويذته وآياته الوحيدة المباركة التي يحفظها، ويصلِّي بها صلواته كلها، واستخدمها عند ذبح بهائمه عندما كان جزارًا، لا يعلم ممَّن حفظها أو متى ولا كيف، ولم يهتمَّ كثيرًا أهي من القرآن الكريم أم من أيِّ كتابٍ مقدَّسٍ آخر أو أوحى إليه بها شيطانٌ ماكر، فمنذ أن اكتمل نضجه وأحسَّ بالحاجة للصلاة ولتعويذةٍ تحميه من الشرور وتباركُ حياته، وجد ذلكَ النصَّ في رأسه فأحبَّه واستخدمه.

كان القبر كما توقَّعاه متسعًا، ترقد المومياء في سكونٍ على حوضٍ من الصخر أشبه بتابوت، حولها تتناثر الأوعية الفخارية والتماثيل الصغيرة «الشوابيت» التي على شكل بشرٍ يقومون بخدماتٍ ما، كانوا يعرفون أن عليهم نزع الخواتم التي بأصابع الموتى، وإذا كان هنالكَ قناع من الذهب أيضًا عليهم نزعه، ثمَّ أخذ كلِّ التماثيل

المعدنية، وفتح الجرار المغلقة وأخذ محتوياتها، أو إذا لم تكن ثقيلةً فالخروج بها، وكان الكثير من ذلكَ متوفرًا، ويبدو أن الميت كان ثريًّا بصورةٍ معقولة، فعثرا على جرَّةٍ صغيرةٍ بها خاتمان من الذهب وبعض الأدوات الحجرية، لم يلاحظا تماثيلَ معدنيةً أو أقنعةً ذهبية، ولكن يُوجد بالقبر قطٌّ محنطٌ وثعبانٌ محنطٌ بالقرب منه. كان الثعبان بكامل هيئته، حتى إنهما ظنَّا أنه حي. قال له «جبريل» إن الأشياء التي وجداها بالقبر كثيرةٌ جدًّا، وإن من حقِّهما أن يخفيا بعضها. إلا إن «فتح الله فراج فتح الله» أقنعه بأن ذلكَ ليس معقولًا، إن التاجر سيقوم كالعادة باستخدام الجهاز الكاشف للمعادن لفحص ملابسهما جميعًا، وإن الجهاز يمكنه أن يكتشف أصغر قطعةٍ ممكنةٍ من أيِّ معدنٍ كان، وحينها ستكون الفضيحة.

أخيرًا اقتنع «جبريل» بأن السُمْعة الحسنة خيرٌ من المالِ الوفير، ملآ جوالًا صغيرًا من متعلقات الميت، وبعد ساعةٍ كاملةٍ كانا في السطح. كالعادة قاما بنزع ملابسهما جميعًا وبقيا بتلك الداخلية فقط، تمَّ فحص ما بين الفخذين أيضًا، ثمَّ أعيدت لهما ملابسهما، وقام الأمين أمام الجميع بحصر الموجودات من تماثيلَ ومعادنَ نفيسة، وكان يقدِّر أثمانها مباشرةً من رأسه، أمَّا الذهب فإنه يقوم بوزنه، ثمَّ يوزِّع على الفريق كله، وهو يتكوَّن من عشرين فردًا، والأمين جزءٌ من هذا الفريق. الثلث للجلابي، وهو الاسم الذي

يطلقونه على التاجر المموِّل صاحب الأجهزة، الثلث الآخر للأجهزة والطعام والشراب والنقل وغيرها من التسهيلات، والثلث الأخير للعمال جميعهم يتقاسمونه بالتساوي طالما كانوا متواجدين بالموقع، بالتالي ما حصلا عليه كان لا يسوى سوى قليلٍ من المال يسير. قال له «جبريل»: «الشغل دا ساقية جُحا من البحر للبحر، وأخيرًا نرجع «الخرطوم» نأكل العندنا والله كريم.»

كان «فتح الله» ينتظر هذه الجملة من صديقه، فلقد طلب منه من قبل أن يغادرا، ولكن «جبريل» كان يطمح في أن يجد «مفاجأة» من الذهب كبيرةً يمكِّنه نصيبُه منها من الخروج من دائرة الفقر. والآن جاء الطلب منه شخصيًّا، فأخذا نصيبهما، وهو قليلٌ من المال وغادرا. عندما أصبحا على تخوم مدينة «الخرطوم» أسهَلَ «جبريل» للمرة الأولى، كان يشكو من ألمٍ حادٍّ ببطنه: «أحسُّ بسكاكين في بطني.»

مما لا شكَّ فيه أن «فراج» قد لاحظ اختفاء الخاتمين عند عرض موجودات القبر النوبي، ولم يشكَّ في أنهما قد اختفيا بمهارات صديقه «جبريل كيري»، لأنهما فُتِّشَا وفُحِصا فحصًا كاملًا ودقيًقا بالجهاز وهما شبه عاريين، كما إن ملابسهما أيضًا تعرَّضت للفحص الدقيق، ولكنه فضَّل الصمت على السؤال الذي قد يقود لتشكُّك الأمين فيهما، وكان الخاتمان هما الوحيدان المصنوعان من الذهب، وبقية المنقولات كانت من معادن أخرى ومن الحجارة. وقد لاحظ أيضًا أن «جبريل»

كان يبحث في مخرجات بطنه كلما داهمه الإسهال، وتلكَ هي التي جعلته يشكُّ في أن صديقه «جبريل كيري» قد بلع الخاتمين.»

قطع سليل الفيلم صياح السائق: «قالوا الدهب كتير في الشمالية؟»

لم يتحدَّثا، كانا خائفين من سائق التاكسي الذي أخذ يثرثر معهما عن تعدين الذهب والأرزاق، وأنه لا يمانع أن يبيع عربته ويذهب للتنقيب، وعرفا بذلكَ أن الصائغ قد أسرَّ إليه بالموضوع، ويبدو أن «نصرة» استخدمت ذكاءها المكنون فجأةً عندما طلبت منه أن يتوقَّف في «زقلونا–شمال» متعلِّلةً بأنهما يريدان زيارة بعض الأقارب قبل أن يذهبا لبيتهما، ولقد فهم زوجها اللعبة وفهمها أيضًا سائق التاكسي، ولكن ليست لديه حيلةٌ غير أن يطلب منهما أن ينتظرهما إلى حين قضاء أمرهما مع الأقارب ليأخذهما لمنزلهما، إلا إن «نصرة» رفضت بشدةٍ وانضم إليها «فتح الله» بعد قرصةٍ ساخنةٍ في فخذه. أعطت «نصرة» السائق عشرين جنيهًا من محفظتها الخاصَّة، تركا السائق محبطًا، وتوغَّلا في عمق «زقلونا» راجلين، يد «فتح الله فراج» ممسكة الكيس بقوة، وخياله يسبح بعيدًا بعيدًا في المستقبل الذي لا معالم له، ولكن مؤهلاته في كفِّه الآن.

عندما دخلا المنزل، وجدا «ميرم» والصغير «فراج» يأكلان ما تبقَّى من طعام الأمس. كان «فراج» قد عاد من الروضة القريبة من البيت لتناول وجبة الإفطار، كعادته مستاءً من كلِّ شيء: الروضة

والمدرسين والتلاميذ، ويريد الطعام بأسرع ما يكون، ولكن لم تجد «ميرم» شيئًا طازجًا تطعمه به، وهي أيضًا لم تدرِ لِمَ لَمْ تترك لها والدتها كالعادة مصروف الفطور، لقد خرجت هي ووالدها على عجلٍ لم ينتبها لشيء، ولم يقولا لها إلى أين هما ذاهبان، بل لم تردَّ والدتها على شكواها من إنها تحسُّ بألم في بطنها، وتعني بذلكَ أنها تحتاج لبعض الفوط الصحية، ووالدتها دائمًا ما تولي ذلكَ جُلَّ اهتمامها وتضعه من ضمن الأولويات، فالفوط أهمُّ من الطعام. لم تذهب اليوم «نصرة» لمنزل أخيها حيث تعمل في بيته مساعدةً لزوجته الكسول السمينة المنعَّمة، لو كانت تمتلك جهاز موبايل لاتصلت بها وأخبرتها بأنها مرهقةٌ بعض الشيء اليوم ولا تستطيع الحضور وعليها أن تدبِّر حالها بدونها، على الأقل؛ أن تأخذ حمامها وحدها.

أعطت ابنتها «ميرم» بعض المال من الكيس وطلبت منها أن تذهب إلى سُوق ستة وتأتي بمستلزمات الإفطار والغداء، . لاحظت البنت أن أمَّها أعطتها مبلغًا كبيرًا من المال، يستخدمونه في العادة مصروفًا لأسبوعٍ كامل، وطلبت منها أن تشتري «أولويز **Always**» بدلًا عن القطن الطبي، ونصف كيلو لحمة: «عليك الله جيبي معك سلاطة خضار، وسكر وبصل.» اعتبرت البنت أن أمَّها ستأخذ هذه الطلبات إلى بيت خالها بـ«كافوري»، وإذا صحَّ افتراضها، فكيف لا تحدِّد لها أمَّها سعر وكمية السلاطة، ولا كمية السكر والبصل؟

على كلٍّ «ميرم» لديها خبرٌ جميل لأُمِّها، وسيعجبها كثيرًا، وستقوله لها عندما تعود من سُوق ستة أو «سُوق النوبة» كما يسمونه. قالت «نصرة» لـ«فتح الله» زوجها الذي ما زال ممسكًا بالكيس:

– القروش دي حلال ولا حرام؟

نهض مندهشًا كالملسوع:

– نعم؟

قالت له وهي تجلس قربه، وتلمسه على يده في لطف، وتنظر إليه في عينيه:

–القروش بتاعة الدهب دي، حقتنا ولا حقت أولاد «جبريل»؟

قال وهو يرخي قليلًا من قبضته على الكيس ويطلب من «فراج» الذي أكمل طعامه أن يغسل يديه وفمه ويعود للمدرسة:

– أنت رأيك شنو؟

صمتت قليلًا وهي تنظر للكيس المنتفخ المشحون بالملايين:

– نقاسمهم القروش مع أولاد «جبريل».

بلع ريقه وهو يقول:

– ونقول لهم دي قروش شنو وقروش منو وجبناها من وين؟ ح يقولوا أبوهم ترك معاي كنز بتاع ذهب، ح يقولوا أنا كتلت أبوهم واستوليت على الذهب وحاسس بالذنب عشان كدا أديهم قروش من قروش أبوهم، مش كدا؟

واحتارت في الأمر، هل يقولان لهم إن ديكهم باض ذهبًا وهذا جزءٌ من سعر بيضه، بأيِّ حقٍّ يحتفظون هم بنصف المبلغ؟ إمَّا أن يعطياهم المبلغ كاملًا ويعتذرا لهم وإمَّا أن ينسيا الأمر، ولكن «فتح الله» حسم الإشكال بجملةٍ واحدةٍ شرسة:

– الموضوع دا انسيه يا «نصرة»، أنا حاتصرف، ولا تجيبي سيرة الدهب أو البيض لأي مخلوق!

فتح شنطة الحديد الكبيرة ذات اللون الأخضر التي يحتفظ فيها بحاجياته الضرورية، مثل ورق المنزل، وشهادات ميلاد الأطفال، وقسيمة الـزواج، وجلابية والـده وأدوات الزراعة، والمنشار الكهربائي الصغير الذي أعطاه إيَّاه الخواجة في الماضي ليقطع به الشجيرات، وعندما بيعت الأرض ولم تكن هنالكَ شجيرات تحتاج لتشذيب تركه له الخواجة للذكرى أو قد يفيده في شيءٍ ما. في الحقيقة هو الذي لم يُعِدْه للخواجة، ولم يسأله عنه الخواجة فيما بعد. وضع النقود هنالكَ واحتفظ بالمفتاح، ولكنه عاد وفتح الحقيبة الحديدية مرةً أخرى، أخرج رزمةً من المال لا يدري كم هي، حسب منها عدة أوراق بعشوائية، أدخلها في جيبه، دفع بالباقي إلى حِجر زوجته «نصرة»، قفل الشنطة بالطبلة وخرج دون أن يقول كلمةً أخرى.

حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْوَلَد

لم تكن هي المرة الأولى التي تذهب «ميرم» معه إلى البيت، فقد كانا يلتقيان به كلما سمحت لها والدتها بزيارة أختها الكبرى غير الشقيقة وهي أُمُّه «آمنة». ربما كانت الأمُّ على علم بأن «أحمد» يختلي بابنتها، وهذا ما جعلها لا تسمح لها بزيارةٍ أختها «آمنة» إلَّا في أيام الحيض، حيث تضمن أن «أحمد» لن يقوم بفعل ما لا تُحمد عقباه. هو شخصٌ مؤدَّبٌ ومحترم، وابنتها أيضًا مؤدَّبةٌ ومحترمةٌ وصغيرةٌ وليس لها تجارب، ولكن الشيطان بين الناس، وكلُّ الناس الذين لديهم تجارب كبيرة الآن، كانوا في يومٍ ما مثل ابنتها هذه دون أية تجارب.

تحسُّ «نصرة» بقلبها محترقًا، وكأنما هو مصلوبٌ على جمرةٍ موقدة، كان جسمها كلُّه مخدَّرًا، وليس لديها الرغبة لفعل أيِّ شيءٍ أو سماع أيِّ شيء، كانت عقدة الذنب تسيطر عليها تمامًا، على الرغم من أنها لا تدري بأن «فتح الله فراج» زوجها قد تحصَّل على بيضتين أخريين للديك في هذا الأسبوع، قبل أن تحضر التوأم وتأخذاه إلى بيتهما، وأنهما من الذهب التبر النقيِّ، وأنه أخذهما لصائغ آخر وباعهما بمئة مليون جنيه عدًّا ونقدًا. والأسوأ في الأمر أن «فتح الله» يفكِّر بصورةٍ أغرب، لأنه افترض — وهو محقٌّ في افتراضه — أن هذا الديك الغريب قد باض عشرات القطع الذهبية بمنزل المرحوم صديقه «جبريل»، وهو أيضًا يذكر متى حضرَ الديكُ الغريب إلى منزل صديقه، إنه في اليوم نفسه الذي تُوفِّي فيه «جبريل»، أيْ قبل خمسين يومًا بالضبط، فإذا كان يبيض بيضةً واحدةً من الذهب في الأربعة أيام ... حسنًا كم يومًا مرَّ منذ أن قدم الديك إلى بيت صديقه المرحوم «جبريل أدومة كيري»؟ أيامٌ كثيرةٌ تستطيع زوجته أن تحسبها جيِّدًا. على كلٍّ فقد قَدَّرَ «فتح الله فراج» عدد البيض بخمسين بيضة أو أكثر، فإذا صحَّ حسابه، فإن الثروة التي ترقد

في بيت صديقه الآن تعادل عشرات الملايين، ثروة مهملة مرمية في قفص الدجاج. وفجأة تذكَّر أنه عندما زار بيت «جبريل» صديقه المرحوم لاستلاف الديك وجد التوأم تلعبان بشيءٍ شبيهٍ بالبيض، إنها البيضات الذهبية ذاتها، لأنهما رميتاها على الأرض وجريتا نحوه لأخذ الحلوى، لو كانت بيضات حقيقيات لتكسَّرت. وأعاد المشهد على مخيلته، فالمال يعلِّم الإنسان التفكير. طوال عمره لم يفكِّر كما فكَّر في هذا الأسبوع، لدرجة أن شعره الأبيض قد بدأ يتساقط. يعرف أنه ذكي، شديد الذكاء، فقط تعوزه القراءة والكتابة، وهما مهمَّتان من أجل أن يستفيد من ذكائه ويحوِّله إلى أرقام، ويحوِّل الأرقام إلى ذهب والذهب إلى نقود، فالهوَّة بين المال والذكاء لا تردمها سوى معرفة القراءة والكتابة والحساب. لو لم تكن «نصرة» غضبانةً منه وتبدو مهمومةً وحزينةً طوال اليوم، لاستفاد منها كثيرًا في تطويع ذكائه؛ هو الآن رجل ثري، يمتلك أكثر من ١٠٠ مليون من الجنيهات، وإذا فكَّر بالصورة المطلوبة فإنه قد يحصل على مثل أضعاف هذا المبلغ من البيض المهمل المهدر في بيت صديقه، وسوف يقوم باستثمار كلِّ هذا المال في السوق ويعيد لأبناء المرحوم أصل مالهم بالمليم، أيْ إنه يعتبر أن هذا المال سلفيَّة مستردة، وهذه الفكرة أراحت زوجته «نصرة» بعض الشيء، ولكنها أيضًا ترفض فكرة أن يستولي «فتح الله» على بقية الذهب الذي ببيت صديقه المرحوم، ورفضت أيضًا فكرته في

استلاف الديك مرةً أخرى، ليست لأنها فكرة انتهازية، ولكن لأنهما فكَّرا في الأمر من قبل ولزوجها تجربة مريرة في ذلك: عندما اقترب «فتح الله فراج» من الديك ليأخذه إلى بيته، نظر إليه الديكُ نظرةً أبسط ما يُمكن تفسيرها به إنها نظرة شيطانية، وأحسَّ «فتح الله» على إثرها برعشةٍ كلسعة تيار الكهرباء في جسده كلِّه، فتراجع عن فكرة أخذ الديك، وعندما أخبرها بما حصل له، خافت. ولكنه قال لها إن المبلغ الذي حصل عليه الآن لا يفعل شيئًا في السوق اليوم، وإنه استشار واستفسر واستبان واستفتى، وشرح لها خطته: بعد أسابيع قليلة سوف يرحلون من هذا المكان العفن إلى «بيت كنتُ أحلم به كثيرًا في كافوري»، إنها قطعة أرض صغيرة ولكنها مبنية بصورة مدهشة على البحر، وبها بعض الأثاث المهم، فلا يحتاجون لنقل أيِّ شيءٍ من «الكرور والخردة» التي يقبعون في وسطها الآن، «سندفع فيها مئة مليون، والباقي في أقساطٍ لمدة عشر سنوات، سعر البيت ٦٠٠ مليون لا غير»، لو كانت زوجته راضيةً عنه الآن لحسبتها له باليوم والساعة والدقيقة، فهي شاطرة في الحساب، وفي كلِّ شيءٍ آخر غير الحساب. كان والده يعمل مزارعًا بتلك الأرض قبل أن تتحوَّل إلى قطعةٍ سكنية، وهو نفسه قد وُلد قُربها قبل سنوات كثيرة من أب معلوم وأمٍّ مجهولة الهُوية لا يعلم عنها أحدٌ شيئًا، لدرجة أنه يظنُّ هو شخصيًّا أن لا أمَّ له. تمَّ ذكر ذلكَ بشيٍ من التفاصيل في فصلٍ

سابق من الرواية، ربما الراوي يريد أن يقول لنا، إنه ليست لـ«فتح الله فراج» أم، وهذا ليس بالغريب؛ آدم أبو البشر ليس له أم، كما في الأسطورة الإغريقية إن «زيوس» أنجب «أثينا» من رأسه بدون أم. أمَّا في واقع البشرية الحديثة، فجدي (أنا الروائي) اسمه «برمرجيل»، حيث تتكون الكلمة من كلمتين «برم» و«رجل»، وتعني في أسرتنا الشخص الذي تمَّ إنجابه عن طريق بَرْمِ رجل أبيه؛ يعني أن أباه هو الذي أنجبه بعدما حمل به في رجله اليُسرى، وظهر الحمل مثل ورم ضخم أشبه بداء الفيل، وعندما تمَّ بَرْمُ الرِّجل انشقَّت وخرج منها الجدُّ الكبير الذي أُطلق عليه «برمرجيل»؛ فليس غريبًا أن ينجب «فتح الله فراج» ابنه «فتح الله» من خيالات ما قبل النوم!

عندما دخلت عليهما البنت «ميرم»، كانت الأمُّ تتحدَّث عن أرقام فلكية، وهي تضرب عدد الأيام وتقسمها على عدد من البيض، تضرب البيضة في عددٍ من الجنيهات، وتنقص منها أرقامًا أخرى مُدهشة، وذُكرت كلمة «ديك» مرارًا وتكرارًا، والدها ينتبه في بلاهة، همست في أذن أمِّها، قالت لها الأمُّ دون أن تعيرها الانتباه المطلوب: «كويس، تمام». قفزت البنت فرحًا، وخرجت، وبعد أن استحمَّت لبست فستانها الوحيد الجميل، فستان العيد الماضي، ذهبت لتلتقي بـ«أحمد زكي» في بيت خالتها كما قالت لأمها، في الحقيقة في بيته أولًا، البيت الذي — إذا سارت الأمور كما يجب — سيكون بيتها في

المستقبل القريب، فـ«أحمد» يعمل كلَّ ما بوسعه ليتزوَّجها، فهو يحبُّها حُبًّا حقيقيًّا وصادقًا، ولو أن الأطباء يحذِّرون من زواج الأقارب نسبةً لسيادة الصفات المتنحية بنسبٍ متفاوتةٍ في الأطفال، إلا إنهما سيتحمَّلان كلَّ النتائج في سبيل أن يبقيا مع بعضهما البعض الحياة كلَّها.

«أحمد زكي» نال تعليمًا أكاديميًّا جامعيًّا متقدِّمًا، وهو يعمل في منظمة «بلان إنترناشونال» منذ سنوات. هي منظمة صغيرة، ودخلها صغير أيضًا ولكنه يجد فيها نفسه أكثر من أيِّ مكانٍ آخر، ووفقًا لدخله المحدود هذا، ونتيجةً لعصاميته، فإنه بالكاد استطاع أن يشتري بيتًا بمساحة مئتي مترٍ في المدن الصغيرة الفقيرة الصحراوية بتخوم «أم درمان» وأن يبني به حجرتين وصالة، وما زال ينقصه الحمام والمرحاض، ولو أن بئر المرحاض قد تمَّ إنجازها، إلا إنه لم يستطع بناء الجزء الأعلى إلى الآن.

لم تكن هي المرة الأولى التي تذهب «ميرم» معه إلى البيت، فقد كانا يلتقيان به كلما سمحت لها والدتها بزيارة أختها الكبرى غير الشقيقة وهي أمُّه «آمنة». ربما كانت الأمُّ على علم بأن «أحمد» يختلي بابنتها، وهذا ما جعلها لا تسمح لها بزيارة أختها «آمنة» إلَّا في أيام الحيض، حيث تضمن أن «أحمد» لن يقوم بفعل ما لا تُحمد عقباه. هو شخصٌ مؤدَّبٌ ومحترم، وابنتها أيضًا مؤدَّبةٌ ومحترمةٌ وصغيرةٌ

وليس لها تجارب، ولكن الشيطان بين الناس، وكلُّ الناس الذين لديهم تجارب كبيرة الآن، كانوا في يوم ما مثل ابنتها هذه دون أية تجارب. أمَّا الشيء الذي ليس بإمكانها ًأن تتخيَّله أن ابنتها تغشُّ في دورتها الشهرية، بخمسة أيام كاملة، فاليوم الذي تنقطع فيه آخر الدماء، هو اليوم الذي تعلن فيه أن دورتها الشهرية قد أتت و«عايزة الفوط يا أمي»، فما يحدث بينها وبين «أحمد» هو ما يحدث بين الزوج وزوجته، وذلكَ منذ أن كان عمرها سبعة عشر عامًا، وهي الآن في عامها العشرين.

ولكن أباها كان يعلم علم اليقين، لأنه رأى رأي العين: «أحمد» وابنته يمارسان الجنس في بيته هذا، عند الصباح الباكر، حيث ما كانا يتوقَّعان مجيئه، فهو يعود للبيت بعد أن يبيع كلَّ جردل محتويات بستلة البيض، ويحدث ذلكَ عند الثالثة بعد الظهر عادة، أمَّا الأمُّ فهي في خدمة أخيها إلى الثانية بعد الظهر، حيث يذهب إليها «فراج» هنالكَ ويعود معها، وتبقى بالبيت «ميرم» وحدها، فالأخ الأكبر «السر فتح الله فراج» يعمل في مدينةٍ بعيدةٍ أو قريبةٍ لا يُفصِح عنها دائمًا، فهي قيد الكتمان بصورةٍ لا يمكن التراجع عنها، فما الذي يمنع حبيبها «أحمد» من الحضور للبيت قبل الثانية ظهرًا، ومداعبتها والنوم قربها وعضِّها في صدرها الصغير النابت، ثمَّ يكمل الشيطان كما يفعل دائمًا حكاية البنت والولد؟

لم يعرفا أن الأب يعرف، ففي الآخر سيتزوَّجان، ويتمنى أن يحدث ذلكَ بأسرع ما يكون، وهي لا تجد زوجًا خيرًا من «أحمد»، فهو يعمل في وظيفةٍ محترمةٍ وثابتة، كما إنه متعلم و«ليس مثلي أمِّيًّا لا يفهم في الحساب، والمرأة للرجل، طال الزمن أو قصر.»

لم تنتبه الأمُّ إلى أنها سمحت للبنت بالخروج، إلَّا بعد أن غادرها «فتح الله» إلى السوق، لشراء بعض الضروريات التي تقتضيها المرحلة، وأهمُّها جهازا موبايل، لها وله، وتتوقَّع حضوره سريعًا، فقد أصبح يستأجر عربة «أمجاد» أو يستقل تاكسي في تجواله، لأن مواصلات «زقلونا» المزعجة المزدحمة دائمًا تضيِّع وقته، وقد تعرضه للَّصوص والنشالين، لا يدري كيف كان يتحمَّل في الماضي أيام العوز والفقر اللعينين الوقوف في باب الحافلة العجوز معلَّقًا مثل ديكٍ على الحبل، يمسك بوعاء البيض بيدٍ والأخرى على باب الحافلة، ويقبض على طرف جلبابه بأسنانه حتى لا يتمزَّق من الزحام. أسوأ ما في الفقر هو إهانته لكرامة الإنسان، لأنه لا يفرِّق بين النبيل والزنيم، لا يدري من الذي قال: «إذا كان الفَقُرْ رَجُلْ قتلته بسيفي».

سيتصلان بابنهما البكر ويخبرانه بأن أباه «فتح الله فراج» قد فتحها الله عليه وفرجها أخيرًا، فقد عثر على بعض الأرطال من الذهب، وأن هنالكَ تغيرات كبيرة متوقعة الحدوث في حياة الأسرة، وعليه بأخذ إجازة والحضور فورًا.

كانت «نصرة» تريد أن تخبر ابنتها «ميرم» بذلك، تريد أن تفرحها، ولكن لا بأس، ستحكي لها كلَّ شيء عندما تحضر. هل ستشتري لها جهاز موبايل أيضًا؟ ستتصل هي بأخيها الضابط وتخبره بأنها تريده في أمرٍ ضروريٍّ وحده وخارج البيت، وتعني بالبيت بيته بالطبع، هو نادرًا ما يزورهم في بيتهم البعيد، كما إنه لم يستطع أن يجاملهم سوى مرةٍ واحدةٍ في تحمّل روائح مجرى الصرف الصحِّيِّ التي تثير لديه الحساسية، وذلكَ عند ميلاد «ميرم» التي سمَّاها هو بنفسه على اسم جدته، وهو على كلِّ حالٍ من الأسماء التي انقرضت منذ أكثر من مئة عام. كانت تريد أن تسمِّيَها «مُزنة»، يعجبها هذا الاسم كثيرًا منذ أن سمعته أول مرة في مستشفًى بـ«الخرطوم»، كان اسم طبيبةٍ جميلةٍ وصغيرةٍ ومدلَّلة، تمنَّت أن تكون ابنتها. قبلت بالاسم عسى ولعلَّ أن يقدِّم لها أخوها دعمًا ولو يسيرًا في يوم السماية، ولم يخيِّب ظنَّها، فقد قام بواجب السماية على أكمل وجه، ولو أنه لم يحضرها بنفسه، إلا إنه نسي الموضوع بعد ذلكَ بالتدريج.

يهمُّها جدًّا أن تجد زوجته السمينة الكسول من يخدمها ويساعدها على الاستحمام، ويتحمَّل رائحتها العفنة، ستقول له إن الله قد فتحها عليهم من أوسع أبوابه، وإنها ستتفرغ لمساعدة زوجها في الاستثمار، ستقوم بإجراء العمليات الحسابية الدقيقة له، طبعًا لن تقول لأخيها إن ديك «جبريل» الجزار المرحوم قد باض لهم بيضاتٍ من الذهب

التبر الخالص مباركات، ولكنها ستستخدم كذبة زوجها ذاتها، التي سوف يطلقها في الأسابيع القادمة في احتفالٍ صغيرٍ يذبحون فيه بعض الماشية كرامةً وسلامةً لمغادرتهم حي «زقلونا»؛ الاحتفال الذي سوف يحكي فيه «أونور سدنا» البجاوي وهو في غاية التأثُّر، كيف إنه كان السبب في أن يحصل «فتح الله فراج» على كلِّ هذا الذهب، لقد قدَّم له عصارة خبرته ونصحه، كثيرًا، وكان يعلم علم اليقين بأن «فتح الله فراج» سوف يعثر على الكنز، عرف ذلكَ من اسمه أولًا ثمَّ بريق عينيه: «ورب الكَاَبْة، زول اسمه «فتح الله فراج» لازم يفرجها عليه الله ويفتح له كنوز السماء ومخازن دهب الأرض كلها.»

فكَّرت في ابنتها، فكَّرت فيها بجدية، ستعيدها للدراسة وتوفر لها معلمين في كلِّ المواد وستمتحن الشهادة السودانية، وستدخلها كلية الطب، هي ليست أقلَّ من ابنة «جبريل» الجزار في شيء، وربما كانت أكثر ذكاء من تلكَ الشيوعية التي يتهامس الناس بكفرها في «زقلونا» كلها. «أحمد زكي» زوج مناسب للبنت، ولكن عليه أن ينتظر قليلًا إلى أن تتخرج من كلية الطب «جامعة الخرطوم»، وهي متأكدة من إنه سيوافق، فالزواج من دكتورة بعد ستِّ سنوات، خيرٌ ألف مرة من الزواج من عاطلة اليوم: «نعم الأرزاق بيد الله، ولكن الفَقُرْ ما حَبَابُهُ، وهو لعنة من الله.»

هي لا تحقد على أبناء وزوجة «جبريل»، بل تحبُّهم جدًّا،

وستدعمهم دعمًا ماديًّا سخيًّا، وستشهد الأيام القادمات، صدق مشاعرها تجاههم، كما ستعيد إليهم كلَّ مال ديكهم أوَّل ما يتوفر ذلك، وتظنُّه سيكون قريبًا جدًّا بإذن الله، إن مالهم سلفيَّة مستردَّة ستعيدها إليهم مليمًا مليمًا: «و حنديهم زيادة عليها مليون مليونين بإذن الله.»

عادت البنت مبكرًا، لأنها تريد أن تزفَّ لأمِّها خبر حياتها:

- أنا و«أحمد» حنتزوَّج بعد شهرين، بعد شهرين بس يا أمي.

ولم تنتظر ردَّة فعل أمِّها، بل قفزت على عنقها وأخذت تقبِّلها بعاطفةٍ جياشة، ولكن الأمَّ ظلَّت باردة لا تدري ما تقول، ولكنها انتبهت أخيرًا إلى أن البنت لا تدري شيئًا عن المتغيرات الجديدة في الأسرة، قالت لها وهي تحرِّك أناملها في شعر بنتها الخشن الجافِّ من الإهمال والفقر:

- مبروك يا بنتي ولكن بعدما تتخرجي من الجامعة إن شاء الله.

أطلقت البنت عنق أمِّها ووقفت بعيدًا كأنها سمعت خبر موتها، وأخذت تنظر إليها في دهشةٍ غير مصدِّقة لما تسمع، أخيرًا أمطرتها بالأسئلة:

- شنو؟ الجامعة؟ ياتو جامعة؟ أنت جنيتي يا أمي؟ نحن لاقين نأكل ونشرب؟

وقفت الأمُّ واحتضنتها وقالت لها بهدوء:

– ستعرفي الحاجات بالراحة، واحدة واحدة.

ثم أضافت وهي تحاول أن تضع في فمها ابتسامة:

– أبوك لقي كيلو دهب في الصحراء!

قالت مندهشة:

– متين؟

– زمان لمان مشي مع عمك «جبريل»، بس كان داسيه وما داير يستعجل.

قالت البنت وهي تتخلَّص من قبضة أمِّها وتقف بعيدًا عنها في حركة مسرحية:

– أنا حأتزوَّج «أحمد زكي» بعد شهرين، لقي أبوي دهب ولا جواهر، وما حأقرأ تاني ولا حرف واحد، لا جامعة ولا خلوة، ولا يحزنون، ودا كلام نهاائيبي يا أمي، أنا عايزة أعرس وألد وبس، الدهب استفيدوا منه انتِ وأبوي وعيالكم الآخرين.

دخلت الحجرة الأخرى، خلعت ملابسها كلَّها، وأخذت الفوطة المزيَّفة الملطَّخة بعصير الفراولة الأحمر الرخيص — ماركة «الشمس المشرقة» — جانبًا، في موضع سيلفت انتباه أمها، التي ستلومها على وضع الأوساخ في مكانٍ عامٍّ قد يراه والدها أو أخوها. وضعت أخرى نظيفة، ارتدت ملابس البيت، وهي جلباب بولستر وحيد قديم عليه مزق في الكتف الأيسر، وتحت الإبط خارطة داكنة من

العرق المطبوع الذي لا يمكن إزالته بالغسيل اليدويِّ العادي. كان لون الجلباب أصفر في الماضي، الآن أقرب لِلَّون الأبيض المتشرب بحمرة خفيفة. ارتمت على السرير. أغمضت عينيها، وهي تستعيد اللحظات الجميلة التي قضتها مع حبيبها «أحمد» في بيتهما بصحراء «أم درمان».

لليوم الثالث على التوالي لم يستطع «فتح الله فراج» النوم بانتظام، كلما يغمض عينيه، يرَ نفسه في صحبة «جبريل» وقد حضرا من الصحراء، وكان «جبريل» مريضًا بشدة، يشكو من بطنه ويسهل شيئًا أصفر، يحملق «جبريل» في أمِّ عينيه، وفجأة يسمع صوت الديك يصيح بشدة ثلاث صيحاتٍ مرعباتٍ وهو يضرب بجناحيه في الهواء مثيرًا عاصفةً من الغبار، وكأنه طائرةٌ مروحيةٌ عملاقةٌ تستعدُّ للإقلاع.

فتح عينيه، حملق في السقف. عندما أحسَّت «نصرة» بقلقه ضمَّته إليها بشدة، إلى أن استنشق رائحة حطب الطلح الذي تدخَّنت به ذاك المساء، وتذوَّق طعم عرقها الذي تشوبه مرارة خفيفة، كان يريد أن يقول لها شيئًا، أو كانت هي تحبُّ أن تحدِّثه في موضوعٍ ما. صمتا لوقتٍ من الزمان تخيَّلاه طويلًا. لمس ظهرها بكفٍّ مرتجفةٍ قلقة. كانت ترتدي جلباب نومٍ قطنيٍّ تحُّه كثيرًا، بدا له مبتلًّا بالعرق، أدخل كفَّه اليمنى تحت القميصٍ، كان جسدها باردًا ونديًّا، مدَّ ذراعه أكثر،

إلى أن لمس بكفِّه ردفها الأيسر، مرَّر أصابعه دون وعيٍ بين الردفين وحكَّها قليلًا بظفره.

كان قد بدأ تنفُّسها يعلو ويهبط متسارعًا، وازدادت دقات قلبها، سحب كفَّه ومعها قميص النوم، فدفعت شفتها السفلى في فمه، كانت قد اعتادت على رائحة الصعوط، ولو أنها كرهته في الأيام الأولى لزواجهما قبل أكثر من عشرين عامًا. عندها أغمض عينيه كما يفعل دائمًا عندما تدخل شفتها السفلى في فمه، حرَّك لسانه ببطء وعضها في شفتها برقة، وهو يعبث بأصابعه على حلمتي نهديها الكبيرين المندلقين على الفراش. كانت قد عادت للتنفس بانتظام، وربما قالت كلمات لم تخرج بصورةٍ طبيعيةٍ نسبةً لانشغال أعضاء الكلام بفعل الجسَد، ليست لديه رغبةٌ في عمل شيء، ولكنها عندما أبعدت شفتها عن فمه، عملت على تجريده من ملابسه، كان مستسلمًا وطيِّعًا، احتضنها، ضمَّها إليه بشدة، قبَّلها في عينيها وجانبي فمها وجبهتا، وفي أرنبة أنفها. كانا قد كفَّا عن تلكَ الأفعال منذ أن باض لهما ديك «جبريل أدومة كيري» ذهبًا، حوَّلاه إلى نقودٍ ووضعاه في شنطة الحديد التي ترقد تحت سريرهما الخشبيِّ الكبير العجوز، الذي يضطجعان فوقه الآن.

قالت له:

– البنت.

قال بصوتٍ خفيضٍ وهادئ:

- ما لها؟

قالت وهي تبحث عن عينيه في الظلام لترى — عبثًا — تأثير كلامها عليه:

- ستتزوَّج.

قال بيقينٍ بالغ:

- «أحمد»؟

أجابت بسرعة، وبصوتٍ عالٍ بعض الشيء:

- نعم، ولكني عايزاها تقرأ الجامعة أول.

أغمض عينيه، شاهد صورة «أحمد» وابنته ينامان معًا، كان ذلكَ واقعًا لا شكَّ فيه، على ذات السرير الكبير الذي ينام فيه الآن مع زوجته، كانا عاريين، ابنته ترقد على وجهها، مُعطيةً ظهرها لـ«أحمد»، رافعة ردفيها لأعلى، و«أحمد» في تمام نشوته يفعل ما يفعله الرجل مع زوجته، شاهدهما بثقب المفتاح، ولكنه فضَّل عدم التدخُّل حتى لا تقع خصومةٌ فاجرةٌ بينه وبين «أحمد» والبنت، وقد تقود إلى كراهيةٍ مدى الحياة، والأسوأ قد تنتهي العلاقة ويفشل مشروع الزواج، ولم يكن لديه تصورٌ لمستقبل ابنته غير الزواج ومن هذا الرجل بالذات، فرأى معالجة الموضوع بصورةٍ أخرى، لم يتوصَّل إليها إلى هذه اللحظة.

قال لها:

- أحسن يتزوَّجوا، الجامعة ملحوقة.

لم تستطع أن تقنعه، وهو لم يقل لها لماذا يصرُّ على رأيه، غير العموميات والحكم المُستهلَكة التي لا يؤمن بها هو نفسه، مثل:

المرأة للرجل.

والمرأة إذا بقت فأس ما بتكسر الرأس.

والزواج سترة حال.

وظل رجل ولا ظل حائط.

وعندما أصرَّت الأمُّ على رأيها، وإنها تريد لابنتها أن تتخرَّج طبيبة، أو مهندسة، وبعد ذلكَ تتزوَّج، فالبنت ما تزال صغيرة والزواج ملحوق، و«أحمد» بإمكانه أن ينتظرها، كلُّها ستُّ سنواتٍ لا غير. نهض من رقدته وجلس على حافَّة السرير يتلمَّس في الظلام ما بين اللحاف والسرير، أخرج كيسًا صغيرًا رخوًا، ضغطه في عدة اتجاهات، وضع سفَّة صعوط كبيرة ما بين شفته السفلى ولثته، بصق على الأرض، نظَّف حنجرته بكحَّة خفيفة، وهو دائمًا ما يفعل ذلكَ بعد أن يتعاطى الصعوط، اضطجع مرةً أخرى ووجهه مواجه لوجهها وتخفي ملامحها الظلمة تمامًا، وتبقى حرارة أنفاسها التي تثيره كلَّ ليلة وتدفعه إلى ضمِّها إلى صدره بشدة.

قال لها الحقيقة كاملةً وبكلِّ تفاصيلها التي لا تحبُّها، وتخشاها، بل

وترعبها جدًّا. لم تقل شيئًا، تنفست بصعوبة، أعطته ظهرها، وبعد لحظاتٍ وعلى غير العادة: عَلا شخيرها.

عندما أغمض عينيه مرةً أخرى لم يستطع أن يفتحهما، ليس نتيجة أن كابوسًا عاجله في بداية النوم، ولكنه وجد نفسه في صُحبة الديك وصديقه «جبريل أدومة كيري» يدخلون مغارة جبل «عضو الكلب»، وبدت له وكأنه يدخلها للمرة الأولى. كان الديك يمضي أمامه وهو يشعُّ نورًا يضيء لهما الدرب، وعندما وجدا قدمي الرجل العملاق الميت لم يحدث لهما كما حدث في المرة السابقة حيث كادا أن يموتا من الرُّعب، لمجرَّد أن شاهدا قدميه اللتين كانتا في حجم حمارين كبيرين بالغين. لولا أن الخواجة الذي يصحبهما قال لهما إنه يظن ظنًّا قريبًا من اليقين بأن الرجل ميتٌ وإنه لا يفعل شيئًا وعليهما الاستمرار في الدخول إلى المغارة: «لا بدَّ أن نحدد نهايتها اليوم». ولكنهما اليوم كانا متماسكين ومرًّا بالقدمين الكبيرتين كأن لم تكونا هنالكَ في الأصل، ولو أن «جبريل» قال له — أو تخيَّل أنه قال له أو لم يقل له: «ابقى راجل اليوم واختار.»

كان الديك يمضي بسرعةٍ رهيبةٍ وهما يهرولان خلفه، إلى أن بلغا مفرق رِجلَي العملاق الميت في مغارة جبل «عضو الكلب» وكان ذلكَ في منتصف الكهف تمامًا، له يدان عملاقتان تتقاطعان في صدره، دار الديك دورةً سريعةً أضاءت الكهف تمامًا، لم تكن اليدان

حجريَّتين، بل كانتا يدين من لحمٍ ودم، عليهما زغبٌ كثيفٌ ناعمٌ يغطيهما تمامًا، مثل الزغب الذي بصدره، تزحف عليهما وعلى صدره حشراتٌ صغيرةٌ مثل النمل، ولكنها تلمع مثل الذهب، وهياكلها النحيلة مثل أسلاك من التبر تعكس أشعة نور الديك، الذي فتح منقاره واسعًا شاسعًا واقترب من «جبريل» الذي أراد الهرب، إلا إن يدَي العملاق الميت في مغارة «عضو الكلب» أمسكتا به، ومكّنتا الديك من ابتلاعه، بينما كان «جبريل» المسكين يصرخ بكلِّ ما أوتي من صوت، وتردِّد جدران الكهف صداه، إلى أن اختفى تمامًا في بطن الديك مع اختفاء صدى صوته. تقدَّم الديك وأشار إلى «فتح الله فراج» أن يتبعه.

لم يحسَّ «فتح الله» إلى تلكَ اللحظة بالخوف، كأنما كان الأمر عاديًّا وطبيعيًّا وكأن الديك لم يفعل شيئًا. مضى خلفه مهرولًا إلى أن توقَّف الديك محاذيًا رأس الرجل الميت في مغارة «عضو الكلب»، كان الرأس في حجم القبة الصغيرة، وكما توقَّعه لم يكن رأسًا حجريًّا، بل كان رأس حيةٍ بذقنٍ حليقةٍ بعناية، بدون شارب، وبوجهٍ ناعم ونظيف، وفمٍ شبه مفتوح، ولكنه لاحظ أن العنكبوت تبني خيوطها على فتحة الفمِ وفتحتي الأنف، وأن خيوطها تهتزُّ بالهواء الذي يخرج في حركتي الزفير والشهيق البطيئتين، كان رأسًا شديد الضخامة وكأنه قبةٌ صغيرة الحجم، العينان عبارة عن هوَّتين كبيرتين مظلمتين

لا قاع لهما. قال له الديك:

– هو الوحيد الذي بإمكانه أن يقبل ولكنه لا يغفر.

– يقبل شنو ولا يغفر شنو؟

قال الديك وهو بقفزةٍ واحدةٍ يصعد على قمة رأس الرجل الميت في مغارة «عضو الكلب»:

– كلَّ شيء.

قال «فراج» مندهشًا:

– هو منو؟

قال الديك ببساطة:

– الرجل الميت في مغارة «عضو الكلب».

– يعني منو؟

– الحارس.

– حارس الذهب؟

– لا.

– حارس شنو؟

– إنه صاحب الأرض، صاحب باطن الأرض أيضًا، الذي تنتهشون لحمه وتشربون دمه كلَّ يوم، وهو صاحب السماء وباطن السماء.

– منو ينتهش دمو؟ نحن عمال، مجرَّد عمال!

- أنتم يد الفاس التي من الشجرة ذاتها.

- كويس الفاس!

قال الديك وهو يهبط إلى الأرض قربه:

- انظر!

وفيما يشبه شاشة السينما داخل هوَّة في عين الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب»، كان الجلابة أصحاب أعمال الذهب يُشوون في ذهب منصهر، وهم يصرخون في هلع. قال له الديك:

- إنه لا يغفر، وهذه هي فضيلته.

- أعمل شنو أنا؟

- ما عليك إلَّا أن تأخذ نصيبكَ الأبدي؛ ما تستحقه. كان عليكَ أن تختار بين الفقر والديك، فاخترت الديك الذي هو أنا، أليس كذلك؟ يمكنه أن يقبل تراجعكَ الآن، وكلُّ شيء سيزول مباشرة، المال وأنا! واعلم أن الإنسان صنيعة اختياره، وهو الضحية الكبرى لحريته. وأنتَ بدخولك للقبر قد وقَّعت عقدكَ الذي هو مصيرك، وفرصتكَ الوحيدة الآن هي أن تلغي ذلكَ العقد الذي سيتبعكَ إلى ما بعد الموت.

كان الرجلُ الميت في مغارة جبل «عضو الكلب»، مستيقظًا أو نائمًا، ولكنه يتنفَّس في هدوء، وعندما صاح الديك صيحةً مرعبة، أطلق جناحيه في الهواء مثل طائرة مروحية عملاقة، استطاع أن يفتح

«فتح الله فراج» عينيه. كانت زوجته تصدر شخيرها الرتيب، وهي عاريةٌ تمامًا، لم يستطع أن يرى وجهها، بينما كان جسدها حاضرًا بقوةٍ في المكان، فقد كان الظلام دامسًا، ولكنه لا يمنع جسدًا فتيًّا من أن يعلن حضوره، فالأجساد لا يحجبها الظلام. لم يستطع النوم. تمتم بصوتٍ منخفضٍ بينما تجحظ مقلتاه في الفراغ: «نعم اخترتُ الديك، الديك والذهب، من يفشل في تحقيق سعادته في الدنيا التي هي بين يديه ويخبرها جيِّدًا وتخبره ويعركها جيِّدًا وتعركه، فكيف يضمن السعادة فيما بعد؛ أيْ في الآخرة التي لا يعرف عنها شيئًا. لقد اخترتُ الديك، لن أبيع الحقيقة بالظنون.»

صَائِدُ الْبَيْض

الآن يهمُّه أكثر الذهب، حتى إذا كان سيفعل به الديك فعلة الجانِّ في المخدوم، فالإذعان لشهوة ديكٍ مقابل الثراء: مقايضة عادلة. الذهب الذي يعني حياةً تشبه الحياة مقابل الفقر الذي يشبه الموت. إنه يريد منه أكبر كمية ممكنة، يريد أن يغادر الفقر للأبد.

بعد أسبوعٍ بالكمال والتمام من مغادرة أسرة «فتح الله فراج» لحي «زقلونا-جنوب»، إلى مربع ١ بـ«كافوري» بالخرطوم بحري، عاد «فتح الله فراج» وحده لبيته ومعه بناءون، قام البناءون فيما بعد بعمل سورٍ عالٍ جدًّا حول المنزل من الطوب والأسمنت، وبوابةٍ من الحديد والصاج الصلب، فلقد تركوا كلَّ منقولاتهم القديمة بالمنزل، لم يحملوا معهم سوى شنطة الحديد المشحونة بالنقود، أمَّا الدجاجات فقد أهداها بقفصها إلى جارةٍ لهم فقيرة تربطها بهم ذكريات جميلة، وقد قاسمتهم في يوم من الأيام كسرة الخبز وصابون الغسيل.

وفي طريقه إلى «كافوري» طلب «فتح الله» من السائق أن يعرج به على منزل صديقه المرحوم «جبريل أدومة كيري» بـ«زقلونا-شمال»، وهو الحي الذي أطلق عليه الوالي اسم «قُباء»، لا يدري أحد معنى الاسم، ولكنهم حوروه إلى «كوبا»؛ أسهل نطقًا ويعرفون معناه. كان يحمل عددًا كبيرًا من اللُّعب للطفلتين، وهدايا للبنت وأمِّها عبارة عن ملابس جديدة غالية الثمن وجميلة، بعض العطور، والأطعمة المعلبة، ومليونين من الجنيهات.

فرحت الطفلتان بالهدايا، وفرحت الأمُّ بالملابس الجديدة

والعطور. إنها افتقدت الملابس الجديدة منذ سنوات، طويلة، ولاحظت أنَّ «فتح الله» كان قلقًا ومرتبكًا وهو يصرُّ على اللعب مع الطفلتين على الأرض، وعرفت أنه التواضع الجميل الذي يتصف به، وحلَّفته بالرسول صلى الله عليه وسلم لينهض ويجلس على السرير، فرضي بعد لأيٍ وتمنُّع. كانت الطفلتان قد تركتا بيضهما الحجري وأخذتا في معالجة اللعب الإلكترونية المعقدة التي لم ترياها في حياتهما، كانتا مندهشتين وفرحتين فرحةً لا يمكن وصفها.

أخذ يحكي لها عن حياته الجديدة في خجلٍ وارتباكٍ واضحين، وهو يصنع كذباته حول مصدر الذهب، وكيف إنه غامر مرةً أخرى بالعودة سريعًا إلى مواقع تعدين الذهب، وحصل على حجرٍ كبيرٍ من الذهب الخالص، وكاد أن يقضي عليه الشيطان حارس الذهب، وكيف إنه تذكَّر التميمة المباركة التي كان يردِّدها زوجها وصديقه المرحوم؛ تلكَ التي جعلتهما يعبُران مغارة الرجل الميت في جبل «عضو الكب» ومعهما الخواجة الكافر الذي لا يخاف من شيء، وليس في ذلكَ عجبٌ فمن لا يخاف الله ورسوله لا يخاف من الشيطان، بل على الشيطان أن يخاف منه. وأخذ يردِّد عليها التميمة في تعتعةٍ وطيشٍ غريبين لا يشبهان الثقة التي تبدو على المرحوم زوجها وهو يرتِّل آياته المقدسة التي تخصُّه هو وحده في الكون. وقد سمعتْ المرأة بالطبع بقصة حصول «فتح الله فراج» على الذهب بينما يتداولها الناس في

الحي، وسمعتها منه هو شخصيًّا أيضًا أكثر من مرتين على ما تظن.

عيناهُ لا تستقرَّان على حال، تتجوَّلان في نواحي المنزل وكأنه يبحث عن شيءٍ ما، الديكُ يسرح مع الدجاجات قريبًا منه، بل بإمكانه لمس ذيله الطويل الملوَّن إذا مدَّ يده اليسرى بكامل طولها، بل إن الديك يتعمَّد القرب منه بصورةٍ واضحةٍ وكأنه يريد أن يوصل له رسالةً ما، أو كأنما يريد أن يذكِّره بتلك الواقعة بالذات، يوم أراد أن يستلفه للمرة الثانية من أجل أن يستولي على بعض بيضه، بل كأنما كان الديك يعلم بخطة «فتح الله فراج» الجديدة. الكلب «كولي» يرقد تحت الزير، يطرد الذباب المتطفل على ظهره بذيله، ويبدو أنه نائم أو مسترخٍ بصورة تامَّة وعميقة.

أكَّدَ «فتح الله» لها أنه سوف يقوم برعاية أسرة صديقه طوال حياته، وعليها ألَّا ترفض أو تتردَّد في أن تطلب منه في وقتٍ من الأوقات أيَّ مبلغ من المال، مهما كبر أو صغر، وتعتبر أنَّ ما عنده من مال هو ملك لها، و«الذهب زائل وتبقى العلاقات الإنسانية والصداقة والأخوة.» وعند هذه الجملة، صاح الديك ثلاث صيحات، وهو يضرب بجناحيه في الهواء مثيرًا غبارًا كثيفًا وكأنه طائرة مروحية تهمُّ بالإقلاع، كان قد استقرَّ في الوسط تمامًا بين «فتح الله فراج» وزوجة صديقه «جبريل أدومة كيري». انتهرا الديك في لحظةٍ واحدةٍ صائحين: «كَرْ كَرْ.» ورمته أرملة المرحوم بحذائها فهرب بعيدًا في

اتجاه القفص، فلحقت به الدجاجات وهي تكيك. نفض «فتح الله فراج» الغبار عن وجهه، وتنفس الصعداء.

كان الديك قد زاد من إرباكه أكثر وشلَّ تفكيره، بل وجعله يحسُّ بالخوف من شيءٍ ما، فها هو الديك نفسه الذي يراه كلما أغمض عينيه محاولًا النوم، ويفعل تمامًا كما فعل الآن. ما قصة هذا الديك الغريب؟ الديك الذي يبيض ذهبًا؟ أهو شيطان؟ الديك الذي أبرم معه اتفاقًا مجهولًا في مغارة الرجل الميت في جبل «عضو الكلب»: «أن يختاره أو أن يختار الفقر» وهل حدث هذا الاتفاق فعلًا أم هي الكوابيس؟ ولكن لا يهمُّ كثيرًا ما هو الديك؛ ملك أم شيطان، إنه يستطيع أن يتحمَّل كلَّ شروره إذا كان من الجن، وكلَّ خيره إذا كان من الملائكة، طالما يستطيع أن يمتلك الذهب، وطالما سيصبح الذهب ملكه بصورةٍ شرعيةٍ دون تأنيب ضمير، لأنه سيدفع مقابله «القبول»؛ أيْ قبوله بالديك، فلا يظنُّ أن الديك أسوأ من الجانِّ الخادم الذي شرطه ممارسة الجنس مع المخدوم أينما، وقتما، وكيفما شاء، فمعروف لدى الجميع أنه ليس للديك ذكَرٌ. الآن يهمُّه أكثر الذهب، حتى إذا كان سيفعل به الديك فعلة الجانِّ في المخدوم، فالإذعان لشهوة ديكٍ مقابل الثراء: مقايضة عادلة. الذهب الذي يعني حياةً تشبه الحياة مقابل الفقر الذي يشبه الموت. إنه يريد منه أكبر كمية ممكنة، يريد أن يغادر الفقر للأبد. المبلغ الذي يمتلكه الآن دفع منه قسط البيت

واشترى الأثاث وأقام الكرامة ووفَّر بعض الأغراض الأخرى المهمَّة والضرورية للحياة الجديدة، له ولزوجته وأطفاله، وهو أيضًا يحتاج لعربة، حيث لا توجد مواصلات عامَّة في ذلكَ الحي الراقي، ولكي يستمرَّ في هذه الحياة الجديدة يحتاج لدخلٍ متواصلٍ أو مالٍ كثير، وهو يعي ذلكَ جيِّدًا، ولكنه بينه وبين نفسه قد حسم أمره: لا عودة للفقر مرةً أخرى.

كانت «رشا» قد دخلت المنزل وفوجئت بحضور «فتح الله» الذي بدا لها نظيفًا جدًّا، وشمَّت عطره منذ أن خطت رجلُها عتبة الباب الخارجي، نهض لتحيَّتها، وقدَّم لها لومًا خجولًا سريعًا لأنها لم تحضر الكرامة مع أمِّها والتوأم، فاعتذرت بأنها كان لديها محاضرات في ذلكَ اليوم بالذات، وأخبرته بأنها حضرت في اليوم التالي ولكنها وجدت البنائين يشيِّدون الحوائط، وأخبروها بأن أصحاب البيت رحلوا إلى «كافوري» في ذات يوم الكرامة مساءً.

- صدقت معاك يا عمو، وبقيت بتاع راحات، من «زقلونا-جنوب» إلى «كافوري» وجهًا لوجه، من النار للجنة مباشرة، ألف مبروك يا عمو!

قال لها يحاول أن يكون متواضعًا:

- والله رغم الفقر كنت بحلم بالرجوع إلى «كافوري»، لبيت والدي الله يرحمه، كان فيه غفير (خفير) ... أنت عارفة أنا مولود

هناك؟

بينما كان يقول ذلكَ تذكَّر أمَّه التي لا يعرفها ولم يرَها ولم يحكِ أحدٌ له عنها، حتى والده نفسه لم يفعل ذلكَ ولو صدفةً أو عن طريق الهفوات. ولكن الإحساس بالأمِّ ووجودها في مكانٍ ما في حياته، بل وأثرها القوي عليه في وعيه وفي مناماته لا يمكنه أن يخطئه أبدًا، بل أصبح يخاف أن يذكر أباه إلَّا لمامًا، لأن ذلكَ قد يجعل البعض يفكِّرون في أمِّه التي حكينا عنها في صفحاتٍ سابقات، وقد يسأل سائلٌ عنها، وحينها لا يدري ماذا تكون إجابته، وقد تقع كارثةٌ ما، بينما يحسُّ أحيانًا بينه وبين نفسه عندما كان طفلًا أن تجاهل الناس وسكوتهم عن سيرة أمِّه يحدث بالتآمر غير المتَّفَق عليه.

تحوَّل النقاش إلى موضوعٍ آخر عندما سألته «رشا جبريل»:

- وين «السر» يا عمو؟

أجابها متأثرًا:

- والله ما عارفين وين هو، ولكن عندما اتصلت به أمُّه قال إنه قريب وحيجي، بعد أسبوع، يجي فجأة ويسافر فجأة ولا نعرف عن تنقُّلاته شيئًا.

استأذنت على أنها تودُّ أن تغيِّر ملابسها وتستحم: «الجو نار».

علاقتها بـ«السر فتح الله فراج» بدأت منذ أن كانا طفلًا وطفلة، هو يكبرها بخمس سنوات، أيْ في عمر أختها الكبرى المرحومة

«شوشايا»، العلاقة الجميلة بين الأبوين جعلت الأسرتين تندمجان وكأنهما أسرة واحدة، ولأن «السر» هو الولد الأكبر سنًّا في الأسرتين فإنه يعتبر الأخ الأكبر لكلا البيتين، وهو بالفعل كان يمارس سلطات الأخ الأكبر هنا وهناك، ولولا الفقر الذي جعله يقطع دراسته ويتجنَّد في الجيش في سنٍّ مبكرة ثمَّ بالأمن العام، وبالتالي لو لم ينقطع عن الأسرتين لأصبح أخًا فعليًّا على الأقل، أو لكان الوضع مختلفًا بالنسبة لأخته الشقيقة «ميرم»، ولها هي كذلك، ولو أنه كان طيبًا وبسيطًا وحنونًا جدًّا منذ نعومة أظافره، ووفقًا للمعلومات التي تصلها عنه في مواقع عمله من زملاء الجامعة النشطين سياسيًّا، فهو يعتبر شخصًا مثاليًّا ولا علاقة له بالعنف المعروف عن المؤسسة التي ينتمي إليها، وكان رغم صغر سنه يفرِّق بين ضرورات الخدمة وبين السلوك الشخصيِّ الذي يخصُّ الأفراد، لذا كانت «رشا» لا ترى فيه شخصًا سيئًا بأية حال من الأحوال، ولا متناقضًا أيضًا، مجرَّد موظف يؤدي واجبه الخدمي، وهو أيضًا قال لها ذات مرة إنه ليس من واجبات وظيفته ضرب الناس أو قتلهم وتعذيبهم، ولم يطلب منه أحدٌ ذلك، كما إنه لم يفعل من تلقاء نفسه. الغريب في الأمر أن علاقتها بأخته «ميرم» لم تكن جيدة، بل ليست على ما يرام، ربما لبعض الغيرة من جانب «ميرم»، حيث إن «رشا جبريل» كانت تفوقها جمالًا وذكاءً، ولديها كثير من المواهب، وإنها أيضًا محبوبة ومعروفة بين الناس،

وإنها استطاعت رغم الفقر أن تواصل دراستها إلى أن تدخل الجامعة، ولم تستطع «ميرم» أن تتسامح مع ذلك، مع تلكَ القوة الإيجابية والطاقة الكبيرة لدى «رشا»، لذا غالبًا ما كانت لا تحبِّذ الاقتراب منها كثيرًا، وأحيانًا إذا وجدت من يشاركها رأيًا سلبيًّا عن «رشا» فإنها لا تتردَّد في أن تخبره بأنها تكرهها جدًّا. أمَّا من جانب «رشا»، فإنها أيضًا كانت تعتبر «ميرم» منحرفة أخلاقيًّا، ولو أنها بينها وبين نفسها تحسدها على علاقتها العاطفية المستقرَّة مع «أحمد زكي» ذلكَ الشاب الوسيم الملتزم الذي يحبُّ بصدق، التجربة التي تفتقدها هي بصورة كبيرة. الأسرتان تعرفان تلكَ العلاقة المتوتِّرة بين البنتين، وتعرفان أن علاجها ليس بالسهل، وتتركان الحلَّ للزمن الذي دائمًا ما يحمل مفاتيح الأقفال الصدئة.

التوأم تحبَّان زيارة «السر فراج» للبيت، لأنه عندما يأتي من عمله لزيارة الأسرة، يحضر لهما هدايا جميلة، وأحيانًا إذا توفَّر لديه بعض المال يأخذهما مع الصغير «فراج فتح الله» إلى منتزه «المقرن» بالخرطوم، حيث يلعبون في المراجيح ويركبون القاطرة ويدخلون بيت الأشباح الذي يحبُّونه جدًّا لأنه يجعلهم يصرخون ويضحكون في نفس الوقت، وهو إحساسٌ يملأهم بالإثارة.

رأت «رشا» أن عليها أن تنضمَّ لأمِّها و«فتح الله» في الراكوبة، ولكنها عندما فرغت من الاستحمام وجدت «فتح الله» يقف استعدادًا

للخروج، فوعدته بأن تزوره في المنزل وتحضر معها التوأم، ولكي تشكره أيضًا، أشارت إليها أمُّها بالهدايا التي أحضرها معه، فشكرته كثيرًا وهي تقلِّبها في رزانة واضحةٍ وتشهٍّ مخبوء.

الديكُ عاد مرةً أخرى، كان قريبًا جدًّا منه، لم يلاحظ «فراج» ذلك، خلفه الدجاجات الثلاث، التوأم أيضًا تركتا لعبهما المتواصل وانضمَّتا لموكب وداع «فتح الله». عندما تقدَّم «فتح الله» نحو باب الشارع، كان الديك قد سبقه إليه، ودون أن يراه «فتح الله» تعثَّر به، فانتهره وهو يتخطَّى العتبة للخارج، وقامت الأرملة بضرب الديك بحذائها ففرَّ عائدًا إلى داخل البيت. كانت عربة الأجرة تقف في الخارج في انتظار «فتح الله» الذي يبدو أنه قد نسي أمرها تمامًا، واندهش عندما وجد السائق يجلس خلف مقود السيارة، لقد بقي بالداخل قرابة الساعتين، فاعتذر للسائق، الذي ابتسم له بما يعني: «كلُّ شيء بثمنه».

عندما تحركت العربة، واختفى أفراد أسرة «جبريل» المرحوم، تحسَّس «فتح الله» جيبه ليطمئن إلى أن البيضتين في مكانهما، ثمَّ قال للسائق وهو يضع سفة الصعوط ما بين لثته وشفته السُفلى: «عليك الله السوق العربي، عمارة الدهب».

عندما تلاشى عن ناظرهم آخر خيط غبار للعربة التي تقلُّ «فتح الله»، واتخذت الطريق الجانبي الذي سوف ينتهي بالأسفلت

بعد عشر دقائق على أقلِّ تقدير، عادت الأسرة الصغيرة بتشوُّقٍ ولهفةٍ لمعاينة هدايا العم «فتح الله فراج» السخية، وقاموا بتجريب الملبوسات على أجسادهم، وكانت المقاسات مضبوطة بدقةٍ رهيبة، مماَّ أكَّد شكوكًا دبَّت لدى الأمِّ بأن زوجته «نصرة» هي التي اختارت الهدايا. أصرَّت التوأم «رؤى»، ألَّا تخلع ملابسها الجديدة مهما حدث، أمَّا «رانيا» فقد قامت بخلعها ووضعها في شنطة والدتها القديمة المترهِّلة، فهي تفكِّر في لبسها مرة أخرى يوم العيد، الذي سوف يأتي حتمًا بعد شهور طويلة أو قصيرة قادمة لا تدري عن مقدارها شيئًا. الفتاتان الصغيرتان تتشابهان في المظهر، بل تتطابقان، أمَّا في السلوك فتختلفان كثيرًا؛ فـ«رؤى» قليلة الكلام، ولكنها عنيدة وتفعل ما تراه هي مناسبًا لا غير، ويُطلِق عليها الصبية من الجيران: «الشريرة»، وهم يميِّزون بينها وبين أختها بالطباع لا غير، فعندما تكونان صامتتين أو نائمتين، يصعب على الجميع ما عدا أسرتيهما التفرقة بين «رؤى» الشريرة و«رانيا» التي لم تكتسب إلى الآن أيًّا من الألقاب غير «التومة»، وهو يُطلَق عليها وعلى أختها أيضًا، وكل التوائم الذين بحي «كوبا» أو «زقلونا-شمال» أو كما أسماه الوالي ذات نزقٍ جهادي، ثمَّ نسيه: «قُباء».

أمَّا «رانيا» فكانت هادئة الطبع، طيِّعة وحلوة المعشر، مجاملة، تبدو أكبر من عمرها قليلًا، وهي التي اكتشفت أن البيضتين قد اختفتا في

الوقت الذي كانت فيه «رؤى» مشغولةً بملابسها الجديدة، هنالكَ بيضة حجرية واحدة فقط. سألت عنهما أختها «رؤى»، وظلَّتا تبحثان عنهما في كلِّ الأماكن المحتملة ولم تحصلا إلَّا على واحدة فقط، وهي التي كانت داخل قفص الدجاجات. عندما تشاجرتا في البيض بالأمس، أعطت أمُّهما واحدةً لكلٍّ من البنتين، وأودعت الثالثة القفص درءًا للمشاكل، وضعتها في ركنٍ قصيٍّ حتى لا تدركها يد الطفلتين، أخبرت «رؤى» أمَّها باختفاء البيضتين، قالت الأمُّ وهي تعطى تركيزها كلَّه للحوار الساخن بينها وبين ابنتها الكبرى في توزيع المليوني جنيه على الحاجات الكثيرة العالقة منذ أن توفي والدها، وقبل وفاته بشهور؛ أيْ منذ أن أعدم الوالي مهنته التي يسترزق منها:

– الحمد لله، عشان نرتاح من الشكلة اليومية في البيض، يا ما أنت كريم يا رب!

وأضافت في شماتة:

– إن شاء الله تاني ما تلقوهم.

قالت «رشا» مواصلة حوارها مع أمِّها:

– الملابس الداخلية أهم حاجة يا أمي، وبعد داك نشوف موضوع الأزمة!

قالت الأمُّ في إصرارٍ متجاهلةً سؤال الطفلتين:

– لا، لازم تمشي الدكتور تفحصي وتشتري أدوية الأزمة الحقيقية،

كفاية حبوب الحساسية.

انصرفت الطفلتان وهما تتبادلان اللوم والاتهام، كلٌّ واحدة تصرُّ على أن الأخرى هي المسئولة عن ضياع البيضتين. كان الديك يجري خلفهما، ويمرُّ بينهما بين حينٍ وآخر، إلى أن جلستا في موقع اللعب في ظلِّ الراكوبة الكبيرة، ما بين الحجرة الكبيرة والراكوبة ذاتها. التحقت بالديك بعض الدجاجات، استجاب لغزل دجاجةٍ صغيرةٍ حمراء، مرَّت أمامه وأصدرت صوتًا له معاني يدركها الديك وتدركها التوأم أيضًا، حنى جناحه الأيسر لها، دار حولها نصف دورة، دعاها لوجبةٍ من الحَبِّ وهمية، حيث نقر الأرض وكأنه يهمُّ بالتقاط وجبة شهية. اقتربت منه الدجاجة الصغيرة الحمراء أكثر. عندما قرَّب منقاره من رقبتها، انحنت على الأرض دافعةً مؤخرتها للهواء الطلق، رافعةً الريش الذي يغطِّيها لأعلى ولأسفل وللجوانب، فصعد عليها، مرة وأخرى، لاصقًا مؤخرته بمؤخرتها، ثمَّ نفضت ريشها وهربت بعيدًا وهي تكيك. التوأم تراقبان ذلكَ كلَّ يوم، وإنهما تستمتعان بغزل الدجاجات، وتعرفان أن تلكَ هي الطريقة التي يضع الديك بها البيض في بطن الدجاجات، وقد سألت «رؤى» يومًا أختها الكُبرى «رشا» عن ما إذا كان والدهم «جبريل» قد وضعهم في بطن أُمِّهم بذات الطريقة؟

حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالأُم

إن هذه السيدة، التي ترتدي ببساطة، وتغنِّي ببساطة، وتبتسم ببساطة، وقد تحبُّ أيضًا ببساطة، هي سيدةٌ في غاية التعقيد، ويشبِّهها بالكيبورد في الكمبيوتر، حيث إن المستخدم يتعامل في الظاهر مع أدواتٍ بسيطةٍ وواضحةٍ وسهلة، ولكنَّ العملية الإلكترونية التي تقوم بأداء مهامِّه الكتابية هي مسألةٌ معقدةٌ لحدِّ الجنون، فالمستخدم البسيط لا يلقي بالًا لكلِّ ما هو خلف الكيبورد، ولكنَّ العالِمِ المفكِّر عندما يضغط على رقمٍ واضحٍ في الكيبورد، فإنه يحسُّ بشبكة التعقيدات التي تحدث بمعدَّلٍ أسرعَ من سرعة الضوء، ويضع لها ألف حساب، فالبساطة يجب أن تُؤخَذ مأخذ الجد، كما يقول الفيلسوف «هازلت»، فهي عمليةٌ فنيةٌ معقدة.

عندما اشتدَّ به ألم البطن وكثر الإسهال، قال لـ«فتح الله فراج» الذي كان متشكِّكًا فيما يخصُّ إسهال صديقه والخاتميين المختفيين.

– أنا بعلت الختم!

قال «فتح الله فراج» وفي فمه ابتسامة ذابلة:

– نعم أنا عارف، ولكن أنت ما قلت لي!

قال وهو يضع كلتا يديه في بطنه:

– بلعتهن يا زول!

قال «فتح الله فراج» وهو يضحك باستمتاع:

– أحسن يا اخوي لمتين ونحن نعمل تحت الناس وهم يعيشوا بعرقنا نحن، نحن نصاقر الشيطانين والجنون ونكير ملك الموت في الحفر والجبال والصحاري وهم يخموا ويملوا كروشهم، مبروك يا اخوي، بس بطنك ما تبخل لينا بالختم، اخراه وريحنا وارتاح يا رجل.

ابتسم «جبريل» على الرغم من حُرقة الألم الذي يشعر به، كان يحسُّ بأن شيئًا ما في بطنه ينقر في مصارينه، تمامًا كما يفعل صقرٌ جائعٌ في أحشاء جثة، إذا كان يجيد وصف ما يحسُّ به فعلًا لعرف أن

ديكًا شرسًا يأكل أحشاءه وينهشها بمخالبَ قاسيةٍ كأنها قُدَّت من الحديد، وأن صياح الديك الذي سمعه عند الصبح ما كان يأتي من الخارج، بل إنه فعلًا انطلق من أحشائه هو بالذات.

كانا في بيت «جبريل»، وبين أسرته، ولكن «فتح الله فراج» كان يسهر الليل بطوله في رعاية صديقه ويطلب من الأسرة أن يأخذوا راحتهم، وأنه لا خوف على «جبريل كيري» وأنه سينهض من مرضه سريعًا جدًّا. وفي الرابعة صباحًا وعلى صياح ديك الفجر طلب «جبريل» الذهاب للمرحاض، فاصطحبه «فراج» كلُّه أمل ورجاء في صيد الخاتمين هذه المرة. عند باب المرحاض جلس «جبريل» للتبرُّز على رمال الأرض. بينما وقف «فراج» قربه يراقب في قلق، لم يخرج «جبريل» شيئًا. تكلَّم «جبريل» في يأسٍ وألم:

– خوفي كله أموت والختم في بطني!

قال له «فراج» في حزن:

– ماح تموت، تأكد ماح تموت، والختم ح يطلعوا ح يطلعوا.

عندما عادا للحجرة مرة أخرى استفرغ «جبريل» من أمعائه سائلًا أصفرَ ثقيلًا مرتين، ثمَّ جلس فجأة وسط الحجرة، بعد أن تخلَّص من سرواله الطويل المصنوع من التيترن الياباني الرخيص، وفي لحظات قلائل سقط خاتمان كبيران من تحته، نظيفان غير ملوثين بأية سوائل، ولو أن القِدم يبدو عليهما وتراكم السنون؛ أيْ كأنما أُخذا من القبر

مباشرة إلى الحجرة. ولم يلاحظ «جبريل» أو «فراج» صياح الديك في تلكَ اللحظة، فقد صاح صياحًا مُرعبًا أشبه بصراخ الفيلة. لقد كانا منشغلين بالكنز الذي يسقط من است «جبريل» الطاهر الآن، نقيًّا ومُدهشًا وجميلًا، تحيط به هالة مُتَخيَّلة من الثراء المرتقب وشميم المال. نام «جبريل» بعد ذلكَ في هدوء، وأخذ يتنفس في سلامٍ مثل طفلٍ رضيع. ثمَّ مات وهو نائم.

بعد مراسم الدفن بأسبوع. أخبر «فتح الله فراج» أسرة صديقه بأمر الخاتمين. لو عرفت «رشا جبريل» أن والدها قد بلع خاتمين وجدهما في القبر النوبي، لعرفت أنه مسموم ولأخذته إلى مستشفى الحوادث بالخرطوم، مهما كلَّفهم ذلكَ من مالٍ قليلٍ أتى به هو، وهي متأكدة أيضًا أنهم في المستشفى سوف يقومون برعايته ولو بالقدر الذي يحفظ له حياته لا أكثر، ولكن صمت الرجلين عن حقيقة المرض، كان له الأثر الأول في موت والدها بذلكَ الإسهال الأصفر، فهي تعلم أن أجدادها النوبة القدماء كانوا يحمون ممتلكاتهم من السرقة بسمِّها بمصل الثعابين.

تولَّى «فتح الله فراج» أمر الخاتمين عند الصائغ، وكانا كأجمل ما يكون، مصنوعان من الذهب، وفي المنتصف بهما جعرانان صغيران منحوتان من الياقوت الأخضر، أمَّا على الجانبين فتوجد نقوشٌ سحريةٌ في غاية الدقة، أقرب لأحرفٍ نوبيةٍ قديمة أو رموزٍ توغل

معانيها في التاريخ والقدم، تحتاج لشامبليون جديد يفضُّ غموضها ويبطل سحريتها كما فعل مع اللغة الهيروغليفية، أمَّا في باطن الخاتمين فيوجد نحتٌ لديكٍ أو طائرٍ أشبه بالديك.

سأله الصائغ عن ما إذا كان يريد أن يبيع الخاتمين، إلا إنه رفض ذلكَ قائلًا إنهما أمانة من رجلٍ مات قبل أسبوع، ويجب أن تؤدَّى الأمانات إلى أهلها. في الحقيقة كان هو أيضًا يخاف من الموت، يخاف منه بشدة، ويعرف أن سرَّ موت صديقه يكمن في هذين الخاتمين لا أكثر، سرقهما «جبريل» فكان عقابه الموت، فالأولى به ألا يُلدغ من ذات الجحر الذي لُدغَ منه «جبريل».

قال له الصائغ المراوغ، إنه يمكنه أن يستبدلهما بخاتمين أغلى منهما سعرًا، وأثقل وزنًا وجمالًا، وأكثر عصرية، ويعني بذلكَ آخر موضةٍ من الخواتم الذهبية التي تحبُّها النساء كثيرًا وتفضِّلها على غيرها، ويطلقن عليها اسمًا ذكوريًّا طاغيًا وهو: «الكاردينال». أخبره «فتح الله» بأنه لا يغير رأيه. حسنًا، طالما ستبيعهما أسرة المرحوم في يومٍ ما، فعليه أن يكسب فيه أجرًا، وخيرٌ أن يبلغه في ذلكَ اليوم، وسيحصل على أعلى سعرٍ يتمناه، نقدًا وعدًّا: «وليك مني هدية خاصَّة.»

ورفض الصائغ أن يستلم المبلغ الذي وضعه مقدَّمًا لـ«فتح الله» مقابل تنظيف الخاتمين، وأكَّد له أنه يكفيه شرف تنظيفهما ولمسهما بيديه، ممَّا أثار فضول «فتح الله» ليعرف شيئًا آخر عن الخاتمين، ولكن

الصائغ اكتفى بجملٍ قصيرةٍ مبهمة، تتحدَّث عن القيمة التاريخية للآثار النوبية، وحذَّره من أن الحكومة إذا علمت بهما ستصادرهما، ولمَّح له بأن الذين سيصادرونهما سيبيعونهما في الحال: «وأنا في انتظار أسرة المرحوم.»

حكى الحكاية كلها بحذافيرها للأسرة، ليبيِّن أهمية الخاتمين، والأهم أن يظهر وفاءه العظيم لصديقه وأسرته، ولا بأس إذا أرادوا بيعهما أن يُستشار في الأمر، فهو سيضمن لهما أعلى الأسعار، مع تأمين عملية البيع، ولكنه لن يقوم ببيعه بنفسه.

ما لم يقله لهم «فتح الله» إنه كاد أن يوافق على بيع الخاتمين، فعرض الصائغ قد أسال لعابه، ولكنه في اللحظة التي فكَّر فيها بالبيع، وجد نفسه في دوامة أشبه بالحلم: شاهد «جبريل كيري» صديقه ينحني على الأرض، يخرج مُديته الكبيرة التي يذبح بها الماشية، كان نصلها يلمع كالبرق، أدخل المُدية كلها في بطنه، فانفتحت كوَّة كبيرة في ما فوق السُّرَّة، وذلكَ دون أن يسيل منها سوى شيءٍ شديد الاصفرار، خرج منها الخاتمان يلمعان في ضوء الشمس، وفجأة أتى ديكٌ كبيرٌ شرسٌ من حيث لا يدري، قد يكون سقط من السماء أو انبثقت عنه الأرض. لم يرَ مثله في حياته، كان أقرب للذئب منه لفصيلة الطيور. صاح الديك ثلاث صيحات، ثمَّ ضرب بجناحيه الهواء، ممَّا أثار الغبار الكثيف، وبدا وكأنه طائرة مروحية تهمُّ بالإقلاع،

قال له الديك، بصوتٍ أجش: «الموت، الموت، الموت.» ثمَّ نفض جناحيه بشدَّة، حمل «جبريل» على ظهره وطار به محلِّقًا في السماء، ولكن عينَي الديك ظلتا تحملقان فيه، حمراوين كالشرر، وتصيحان: «الموت، الذهب، الموت.»

احتفظت «رشا» بالخاتمين في مكانٍ أمينٍ لا تصله أيادي التوأم القلقة التي تعبث بكلِّ ما تدركه وتضيعه في لمح البصر. كانت «رشا» تعلم تمامًا أن الخاتمين هما إرثٌ ثقافيٌّ قوميٌّ لا يُستهان به، وأن التصرَّف فيهما ببيعهما يعتبر جريمةً أخلاقيةً وإنسانية، وأنها لن تقوم ببيعهما، على الرغم من الفقر الذي تعاني منه أسرتها، وهي أيضًا لن تسلِّمهما إلى أية جهة حكومية كانت، تخشى عليهما من أن يصبحا ضحيةً لفسادٍ وإفسادٍ منظَّمَين، في زمنٍ تعتبر فيه الدولةُ كلَّ إرث شعوبها القديمة الثقافيِّ غير الإسلاميِّ هو ليس سوى سلسلة من الضلالات والوثنية، ستقضي عليه بالإهمال أو الإتلاف المتعمد أو بالسرقة الذكية المنظمة، هي تؤمن بذلكَ إيمانًا قاطعًا، وفي ذاكرتها حادث سرقة المتحف القوميِّ الشهير. على كلٍّ هي لا تأتمن سوى نفسها. صورة والدها وهو يسهل لا تفارق مخيلتها مطلقًا، ووصيته لها قبل وفاته بيومٍ أن تعتني بأختيها وأمها، وأن تحافظ على نفسها وشرفها، كانت ترنُّ في أذنيها.

هي لا تنتمي لأيِّ حزبٍ سياسي، ولكن ظروفها المعيشية

الصعبة، وإهمالها وأسرتها من قبل المؤسسات الحكومية، وسوء إدارة الموارد والفساد المؤسسيِّ المستشري في البلاد، والحروب الكثيرة التي تديرها الدولة، في دارفور وجبال النوبة والنيل الأزرق، محرقة النخيل في الشمالية، إغراق آثار الحضارات النوبية بالسدود الغبية، والفقر المدقع لفئةٍ والثراء الفاحش لفئةٍ أخرى، الغلاء والاحتكار، انفصال الجنوب، الرئيس الوحيد الأبدي الفائز دائمًا في كلِّ دورات الانتخابات، التزوير في الاقتراحات العامَّة، اغتصاب وجلد البنات، جرائم الحرب، قرارات الولاة المتخبطة، ختان الإناث، سرقة المال العام، مفاخذة الرضيعات وزواج القاصرات، المحسوبية والعنصرية التي تفيخها خطابات المسئولين وجرائدهم، المحاباة: كلُّ ذلكَ جعلها تجد نفسها في المعسكر الآخر الرافض للسلطة القائمة، بل المقاوم لبقائها بشدة.

يطلق عليها أصدقاؤها «الإنسان الكامل»، ويعنُون كمال الأخلاق، ولو أنها جميلة، والمقصود بجميلة أنها بالغة الجمال، ولو أن ما تبدو فيه من ملابسَ قديمةٍ وخارج نسق الموضات كلِّها، بسيطة ورخيصة، لم يقلِّل من جمالها الظاهريِّ في شيء. جمالٌ يخلو من كلِّ لمسة اصطناعية، فهي لا تستخدم من المنظفات غير الصابون، ومن المرطبات غير زيت السمسم، ويمكن ترشيحها كملكة جمال القرن الأفريقي على الأقل. وهي تعي ذلك، ويعي أصدقاؤها الطلاب

وأساتذتها ذلكَ أيضًا، وهي تثير غيرة الطالبات الثريات والفقيرات على حدٍّ سواء، لكن طيبتها ومباشرتها في التعامل ونواياها النظيفة تجاه الآخرين، كانت الدروع التي تحميها من شرور المحبَّة والحسد.

في الأيام الأوائل لوفاة والدها، وبعد «رفع الفراش» وانتهاء مراسم العزاء، وبعدما سافر أعمامها وعادوا إلى بلداتهم البعيدة بـ«جنوب كردفان»، وانتهى مخزونهم الصغير من المواد التموينية الذي تكرَّم به الأعمام والمعزُّون، جلست البنت وأمُّها فيما بعد اليوم الأربعين لوفاة الأب «جبريل أدومة كيري»، وأخذتا تفكِّران في أمر الأسرة الصغيرة، والتحدي الكبير الذي ينتظرهما لتظلَّا على قيد الحياة، بل لتواصل «رشا» دراستها إلى أن تتخرج من كلية الهندسة، وهذا همٌّ لو تعلمون ثقيل، لم يترك لهما «جبريل» شيئًا من المال يُذكر، سوى ذينكَ الخاتمين الغريبين، ولكن الأمَّ والبنت قرَّرتا عدم بيعهما إلَّا إذا أصبح الأمر حياة أو موت.

كانت الدجاجات توفِّر لهم بعض البيض، ولكن ليس بكميةٍ تجارية، فكلُّ ما لديهم من دجاجاتٍ بلدياتٍ لا يتعدى الخمسة، وديكٌ واحدٌ أتى وحده يوم وفاة عائل الأسرة الأب «جبريل» وانضمَّ لفريق الدجاجات الحزينات اللاتي لا ديك لهن، وكنَّ يتلصصن على ديوك الجيران المطاليق. كانوا يستخدمون البيض في الإفطار، كما أن «فتح الله فراج» لم ينسَهم، على الرغم من فقره المدقع فإنه يقدِّم إليهم

ما يستطيع من عون، وكلما أرسل ابنه «السر» إليه مبلغًا من المال، أخذ بعضه لأبناء «جبريل» صديقه، كما إن أسرة والدهما يرسلون قليلًا من المال أحيانًا، ولكن الدعم الأكبر كان من أسرة الأم، الأمِّ التي قرَّرت أن تعمل عملًا يليق بمؤهلاتها، وما تعرفه وتدرَّبت عليه طوال حياتها.

حملت سلَّتها الفارغة ذات صباحٍ باكر، ركبت المواصلات، ونزلت عند السُّوق المركزي بـ«الخرطوم»، تفرَّست الباعة الجائلين الفقراء وهم ينادون لبضاعتهم، كانت الفاكهة الطازجة تنظر إليها من كلِّ صوبٍ وجهة، اللحم معلقٌ في الواجهات النظيفة يغازلها بصمت. تذكَّرت زوجها اللاحم الأعظم، الذي كان يشبعهم من أشهى اللحوم يوميًّا، عليه الرحمة. أكوام الخضار هنا وهنالك، على الأرض، على المنضدات الصغيرة، على الجوالات المبتلة بالماء. «الخرطوم» كعادتها قريةٌ كبيرةٌ طازجة. مثل هذا السوق رأته في صباها في قريتها بـ«كردفان». إذا نحَّت جانبًا المباني العالية، السيارات الفارهة على جانبي الطريق، السادة الأثرياء الذين يشترون بالجملة كلَّ شيء، الأطفال المشردين الذين يسعون ما بين هنا وهناك يلتقطون البقايا والمرميات، لأصبح هذا المكان نسخةً مكبرةً من سوق «أم دفسو» أو سوق «أبو جهل» بمدينتها الصغيرة.

ثمَّ تمشت نحو العمارات الشاهقة تخوم حي «أركويت»، عبرت

شارع الأسفلت الذي يسع أربعًا من السيارات، عبرته بخفة القط، هي قد عاشت في «الخرطوم» سنواتٍ طويلة، وتعرف كيف تتجنَّب السيارات المسرعة، وتعبر الطُّرق التي تخلو من سبيلٍ للمشاة. تمشَّت بين الشوارع الترابية التي تفصل العمارات الشاهقات عن بعضها البعض، لأوَّل مرةٍ تلاحظ ذلكَ التناقض الكبير بين تلكَ البيوت الباهظات الكلفة وبين شوارعها المتسخة المتناثر عليها الأوساخ وبقايا الأطعمة. سألت نفسها في صمت: لماذا لا ينظِّفون الشوارع، فهي لا تكلِّفهم شيئًا، وبإمكانهم أن يستعينوا بعمالٍ من «زقلونا»، نساء ورجال يعملون باليومية. رأت نفسها وجاراتها الفقيرات وشباب الحي وآباءهم العاطلين عن العمل يعملون بجدٍّ في تنظيف الشوارع وواجهات البيوت الثرية من الأوساخ. كان أصحاب العمارات الشاهقات يبتسمون، فتظهر أسنانهم البيضاء التي تشعُّ مع ضوء الشمس، يقدِّمون الماء المثلج والأطعمة الشهية للعاملين الفقراء، وعندما ينتهي العمل يهَبُون أهل «زقلونا» النقود، فيأخذونها ويهرولون نحو السوق المركزي، ويشترون بها اللحمة والخضروات والفاكهة الطازجة الشهية، ويعودون لأبنائهم فرحين، ويعود المال مرةً أخرى لأصحابه.

طرقت أوَّل باب، ثمَّ لاحظت أن به جرسًا، لمست الجرس، فسمعت صليله يأتيها من الداخل، انتظرت قليلًا، ثمَّ انتظرت أكثر،

ثمَّ سمعت وقع أقدام، كانت الخادمة الأجنبية هي التي فتحت لها الباب، سألتها بلكنةٍ عمَّا تريد، قالت لها إنها تريد «ناس البيت»، فردَّت الخادمة الجميلة بأن هذا المنزل ليس به «ناس»:

– إنه شركة.

قالت في حَزَنٍ وهي تنسحب تدريجيًّا نحو عرض الطريق:

– معليش، كنت قايلاه بيت.

في منزلٍ يبعد شارعين عن المنزل الأوَّل وجدت ضالتها. قالت لها السيدة الرقيقة السمراء، إنها يمكنها أن ترى غسيلها وأسلوبها في النظافة، وإذا أعجبها، فإنها ستسمح لها بأن تأتي إليهم مرة في الأسبوع: «هل تجيدين الطباخة؟»

«رشا»، كانت تقوم في أوقات فراغها بتمشيط الطالبات بالداخلية، على أحدث الموضات في تصفيف الشعر، على الطريقة الإثيوبية أو الكينية أو البوب الشهيرة، وتعرف أساليب أخرى للمشاط، كما إنها أيضًا تعمل في الإجازة في الكوافير التجاريِّ بشارع «المعونة» ببحري، فهي تجيد رسم الحنَّاء بأشكالٍ هندسيةٍ فائقة الجمال وغير مطروقة، وتطلق خيالها في إعطائها أسماءً لا تخطر ببال النساء الزبائن اليوميات، فيندهشن ويطلبن خدماتها، بل يتبارين في أن يحظين بحناء المهندسة — كما يدعُونها — وخاصَّةً تلكَ التشكيلة المُسمَّاة: «جَنِّنيهُ». بذلكَ توفِّر مصاريف المواصلات،

وتستطيع أن تغطِّي بعض حاجياتها الصغيرة، وما يخصُّ التوأم من متطلباتٍ يومية.

عجزت كلُّ قوَّادات الجامعة الماكرات عن أن يجررنها إلى وحل الغواية، كان المعجبون والعاشقون كثر، وهم يدفعون بسخاء، بعضهم أساتذة جامعات، وآخرون عسكر وتجار وموظفون وشيوخ دين، ساسة، شعراء حداثيون وكتاب قصص قصيرة، أعضاء برلمان داعرون ... وغيرهم. كانوا يرغبونها، فهي الفتاة الأكثر جمالًا، وهم في العادة مغرمون بالفتيات اليانعات صغيرات السن، قليلات التجارب، واللائي ليست لهنَّ علاقاتٌ مع الذكور الآخرين معروفةٌ للعامَّة على الأقل. يعرضون للقوَّادات المتملقات ما يغريهنَّ ويحفِّزهنَّ للمجازفة، ولكنها ترفض الانخراط في أقدم مهنةٍ عرفتها الإنسانية. كانت تقول لهنَّ بهدوء، عندما تقفل كلُّ الطرق الأخرى، فهي التي سوف تبحث عنهن. وهذا يعني أن انتظارهنَّ قد يطول.

تريد «رشا» أن تجرِّب حظَّها في عمل يديها، وتجد متعةً بالغةً وهي تقاوم الفقر بهذه الطريقة الخشنة، وساعدتها كثيرًا قراءة الروايات والقصص في توسيع إدراكها بالحياة، كانت دائمًا ما تجد نفسها في البطلات الفقيرات، وكيف أنهنَّ يعشن الحياة مستثمراتٍ فقرهنَّ ذاته بتحويله إلى ثروةٍ ضاربة، كما كانت تعجبها بطلات «جبران خليل جبران» السحريات التقيات، وهنَّ قد خلقن لديها

وعيًا مبكرًا بالعالم الماديِّ والدينيِّ والحقوقي؛ كانت الحياة بالنسبة لها روايةً طويلةً، كلَّ يوم يتخلَّق فيها فصلٌ جديد، وتضاف إليها بطلاتٌ شرساتٌ يقاومن من أجل بقائهنَّ كما يردن هن، وليس كما تقودهنَّ الظروف الموضوعية. القوَّادات لا يفهمن ذلك، لا يفقهن في المعرفة الخاصَّة بالإنسان، يعرفن أنها فقيرة، بالتالي إذا وجدت المال فإنها لن ترفضه، وقناعتهنَّ كبيرةٌ في أن الفقر يؤثر في نظرة الإنسان لما هو خير وما هو شر، وقالت لها إحداهنَّ ما يعني أنها إذا خرجت مع أحد الزبائن، فلا يعني أنها ستخسر شيئًا وأن العالم سينتهي: «فما فائدة العفة والبطن فاضية قُفَّة؟»

كان هذا يضحكها لا أكثر؛ المقصود أن سذاجتهنَّ تضحكها وتثير في نفسها الغثيان، والقوَّادات لسن مخلوقاتٍ نزلن من الجحيم، ولكنهنَّ طالبات معها في الجامعة، وعاملات بمؤسسات ذات صلة، وما يشبه الصديقات والأصدقاء، أمَّا القوَّاد الأعظم فهو «الفيسبوك»!

قال لها «فتح الله فراج» إن والدها كان يعلِّق على الذهب آمالًا عريضة، كان دائمًا ما يحلم بأنه المخرج النهائيُّ من الفقر والعوز، لذا لم ينتبه لنصائح قدَّمها له رجل يُسمَّى «أونور» البجاوي الحداد بشجرة عم «عبد الرحيم»، الذي حذَّره من أن الذهب به خيرٌ كثيرٌ ولكنَّ شرَّه أكثر: كان هو و«جبريل» قد حسما أمرهما، ولكن الخطأ

الأول هو أنهما أعلنا لأكثر من شخصٍ ولأسرتيهما إنهما يرومان الذهب، فوصية «أونور» لهما — وهي معروفة ومطبقة حرفيًّا لدى الدهابة — إنهم لا يعلنون ذلك، ولا يذكرون الذهب باسمه، يسمُّونه أيَّ اسمٍ عرضي، مثلًا: العُشرة، الحجارة، أو الشيء، حتى يضللوا الشيطانَ، لأنه عندما يعرف أن هنالكَ من يريد الذهاب للذهب، فإنه يذهب قبله ويخفيه أو يحرسه، فالشيطان يعتبر أن كلَّ الذهب الذي بالعالم، هو ملكيةٌ خاصَّةٌ له، وعليه حمايتها من المتطفلَين، وهما: بنو البشر، والعفاريت التي هي مخلوقاتٌ وسطٌ بين الشياطين والبشر.

الخطأ الثاني، هو أنَّ والدها، عليه الرحمة، ما كان يجدر به أن يبتلع الخاتمين، ولقد «نصحته بنفسي»، وأخبره «أونور» أيضًا بوضوحٍ تام، و«لكن القدر يعمي البصر».

والخطأ الثالث، قالته هي لـ«فراج»: «لا أنت ولا هو، ما في زول قال لينا أبوي بلع حاجة من القبر!» قالت له إنها؛ أيْ هي وأمها، اتفقتا على أن تحتفظا بالخاتمين من أجل التوأم، عندما تكبران وتدخلان الجامعة بإمكانهما بيعهما والاستفادة من سعرهما في الحياة ومصاريف الدراسة، وقالت لنفسها: «قد لا تتحملان ما تحمَّلتُه، والقادم أخطر»، وهذه الجملة الأخيرة التي همست بها لنفسها أيضًا، قفزت لها من ذاكرةٍ مشحونةٍ بالشعر، ومن مفكِّرةِ المحبَّةِ الخاصَّةِ

للشاعر العراقي «مظفَّر النواب»، ودون أن تشعر أخذت تردِّد:

«هل كانت بغيٌّ،

ليس لها أحدٌ في هذي الدنيا الرثة؟»

قالت لها القوَّادة:

– استفيدي من شبابك، بكرة تلقي نفسك في مهب الريح، وتقولي ياريت، حيث لا ينفع الندم.

ثم أضافت ما يُشبه دعاية شركة اتصالٍ كاسدة:

– استمتعي واكسبي.

تحبُّ «رشا» الغناء، تعشقه، كان صوتها من طبقة «سوبرانو»، وأداؤها يكسبه بُعدًا أسطوريًّا آخر، طلب منها بعض أصدقائها الذين بالجبهة الديمقراطية مشاركتهم في أداء كورال الجبهة بالجامعات السودانية، فأعجبتها الفكرة، ثمَّ أصبحت مع الأيام قائدة الفرقة الغنائية كلِّها، كانت تعجبها من كلِّ الكورالات جملةٌ واحدةٌ وهي:

«مش بتطلع كلّ يوم الشمس أجمل،

والنخلة أطول جيد وقامة»

ومن أجل هذه الجملة الشعرية وحدها حفظت عشرات الأناشيد الوطنية التي تدعو للديمقراطية والوحدة وحقوق الإنسان، أمَّا تلكَ التي لها أهداف حزبية واضحة، فلم تتوقَّف عندها كثيرًا، كانت

تردِّدها بآليةٍ وكأنها لا تعنيها في شيء، ولكي تشغل نفسَها أكثر بالجمال، كوَّنتْ مجموعة «تصوُّف» الإنشادية، وتغنِّي من خلالها نصوص النفري والنابلسي وابن عربي والحلاج وبعض أشعار والت ويتمان وإ.إ. كامنجز، وفصلًا قصيرًا من رواية «الطواحين».

كان القوَّاد الأعظم «الفيسبوك (**facebook**)» يحمل إليها رسائلَ داخليةً من المعجبين وأشباه المعجبين، السفلة، والمتطرفين دينيًّا، والشاعر «عبد الله الشيطان»، يُلقَّب بالشيطان ولكنه يحمل اسم «عبد الله نورين» في بطاقته الشخصية، يحمل إليها أيضًا رسائلَ غرامٍ ملتهبةً، وجنونَ عشقٍ ناريٍّ، ولكنه كاذبٌ وخبيثٌ وتسيل من ألسنته الشهوة وكلُّ رذائل الدنيا.

الجميل في الفيسبوك إنه غير ملحاح ويمكنها أن تهمل تلكَ الرسائل، بل إنها لا تقرأها في كثيرٍ من الأحيان، ولو أنه يحتال عليها أحيانًا، فذات مرةٍ أرسل لها رجلٌ يسمِّي نفسه «نانا»، فظنَّت أنه فتاة، ولكنها اكتشفت أنه أحد الداعرين المنتحلين جنسيًّا وفكريًّا، وكرهت نفسها جدًّا ولعنت اليوم الذي قبلت فيه أن تقرأ رسائله، ولحسن حظِّها أيضًا أنها لا تمتلك لاب توب أو كمبيوتر أو موبايل، بالتالي لا تدخل الشبكة العنكبوتية إلَّا صدفة، لذا تستمتع بوقتها في قراءة الكتب الورقية، وتستلفها من مكتبة خيرية بالصحافة، بمبلغٍ زهيدٍ جدًّا يُدفَع شهريًّا. وعندما عرف أمين المكتبة أنها قد تعجز عنْ

دفع المبلغ قام بإعفائها، طمعًا في مشاركتها في أنشطة المكتبة الثقافية والاجتماعية. كانت تقيم الأمسيات الغنائية من خلال «جماعة تصوُّف»، التي أصبح لها صيتٌ ثقافيٌّ معقولٌ بعد أن انضمَّ إليها كثيرٌ من المغنِّين الهواة، الشباب المثقَّفين بالذات، أو على الأقل الذين يتذوَّقون منامات الوهراني، ومواقف النفري، ويطربون لجنون إدوارد إستلن كامنجز (e. e. cummings)، وفظاعة فرانز كافكا.

من خلال «جماعة تصوُّف» تعرَّفت «رشا جبريل» على أوَّل عشاقها الحقيقيين، وهو الروائيُّ «أدومة» مؤلِّف رواية «الطواحين»، وكلمة الحقيقيين هنا تعني أنه استطاع ببصيرةٍ شعريةٍ، على الرغم من أنه روائيٌّ، أن يدرك أن بجسد «رشا» طقسًا روحيًّا مخبوءًا، ولا يمكن استثارته إلَّا بالصلاة. وممَّا جعل لعشقهما أن يصير ممكنًا، إن «أدومة» أدرك منذ اللحظات الأولى التي شاهد فيها «رشا» وهي تغنِّي قصيدة التركي «أورهان والي»:

«أعشق الجميلات
أعشق العاملات أيضًا
وأعشق الجميلات العاملات
أكثر.»

إن هذه السيدة، التي ترتدي ببساطة، وتغنِّي ببساطة، وتبتسم

ببساطة، وقد تحبُّ أيضًا ببساطة، هي سيدةٌ في غاية التعقيد، ويشبِّهها بالكيبورد في الكمبيوتر، حيث إن المستخدم يتعامل في الظاهر مع أدواتٍ بسيطةٍ وواضحةٍ وسهلة، ولكنَّ العملية الإلكترونية التي تقوم بأداء مهامِّه الكتابية هي مسألةٌ معقدةٌ لحدِّ الجنون، فالمستخدم البسيط لا يلقي بالًا لكلِّ ما هو خلف الكيبورد، ولكنَّ العالِمَ المفكِّر عندما يضغط على رقم واضح في الكيبورد، فإنه يحسُّ بشبكة التعقيدات التي تحدث بمعدَّلٍ أسرعَ من سرعة الضوء، ويضع لها ألف حساب، فالبساطة يجب أن تُؤخَذ مأخذ الجد، كما يقول الفيلسوف «هازلت»، فهي عمليةٌ فنيةٌ معقدة.

طالما كان لا يعرف عنها الكثير، كانت قد قدَّمتْ نفسها إليه، بأنها السيدة ذات العلاقات العاطفية الشائكة، وكان هذا آخر ما يتوقَّعه، على الرغم من أنه لا يعني عنده الشيء الكثير، وهو أيضًا يعني أنها سيدةٌ ناضجة، فالخبرة العاطفية هي الكنز الذي لا ينضب معينه، وقالت له أيضًا إن وراء كلِّ ما تقوم به أحزانًا كثيرة، وقد استخدمت بعض بيتِ شعرٍ للشاعر «أمل دنقل»:

«أحزانٌ بلا جدوى،
ودمعةٌ سدى.»

وكانت تعرف أن الحقيقة عند الروائيِّ هي خليطٌ من الخيال والطفولة، وهو ميَّالٌ لأن يبقى طفلًا طوال الوقت، تبيَّن لها ذلكَ

أوَّل مرةٍ عندما كانت تقرأ السيرة الذاتية لماركيز: «عشت لأروي»، فالأكاذيب التي بهذه السيرة تفوق حقائق الواقع الفعليِّ الذي يحكي عنه «ماركيز» وعاشه وعرفه وخبره ذاتيًّا، ولثلاثة أسبابٍ تتحوَّل أكاذيبه الجميلة إلى حقائق دامغة:

أولًا، هو لا يدري أنه يكذب كثيرًا، أو قليلًا، فهو يروي، وبذلك اعترف ضمنيًّا بأنه يستخدم ملكاتٍ سردية. الشيء الثاني أنه مقتنعٌ في قرارة نفسه بأن لا حقيقة أكبر من التخيل، أمَّا الشيء الثالث، فأنه لا يضرُّ أحدًا بكذباته تلكَ الصادقات اللذيذات، بل لقد أمتع الكثيرين دون حدود، في كلِّ أنحاء العالم، بكلِّ اللغات المكتوبة. فالروائيُّ الجيِّد هو الكاذب الأكثر مهارة.

بهذا الظنِّ المتبادَل بين الاثنين، تخلَّقت العلاقة، وظلَّا مثل صديقين لا أكثر؛ صديقين حميمين. كلُّ ما كتبه «أدومة» من روايات هي رواية «الطواحين»، لديه أخريات لا يعرف كيف يقوم بنشرها ولا متى، يشتكي دائمًا من الناشرين ويتشكَّى قليلًا من كسله وقلَّة همَّته، وأحيانًا يبدو مثل الكثير من المثقفين المحبَطين الذين يكيلون اللوم للسُّلطة الزمانية، ويحمِّلونها فشلَهم الاجتماعي، بل فشلهم الجنسيَّ والعاطفيَّ أيضًا. يكتب بعض القصص القصيرة في الجرائد هنا وهنالكَ مجانًا، يعمل معلِّمًا بالمدارس الثانوية، وعمره ثلاثون عامًا؛ أيْ إنه يكبرها بسبع سنواتٍ على الأقل. مرَّا بظروفٍ في العشق

كثيرةٍ وغريبة، عبرا اختباراتٍ معقدةً وضع أحدهما الآخر فيها، حلُما بكلِّ جميل. مثل طفلين في «مرجيحة» كانا يهبطان ويصعدان بالدنيا والعالم.

الحبُّ في مدينة «الخرطوم» نوعٌ من المغامرة غير مضمونة الجوانب، لأنه ببساطةٍ قد ينتهي بالعاشقَيْن في حفرةٍ كبيرةٍ عند ضواحي «أم درمان» وتنهال عليهما الحجارة من آثمين آخرين، يرجمونهما وهم يكبِّرون ويحوقلون، وعلى رأسهما قاضٍ كئيبٌ يدَّعي التقوى ويرمي بحجارةٍ كبيرةٍ بائلةٍ رأسيهما، وإذا لطف الله بعباده فقد تكون نهايتهما بالجلد بما يراه القاضي كافيًا لإعادة الأرواح الآثمة الضالَّة إلى زرائبِ الربِّ الفسيحة الطاهرة.

وحدهم الأثرياء، وأقارب السياسيين، والدستوريين، وكبار العسكريين، ورجال الدين، هم الذين يعرفون كيف يستمتعون بهذه الفضيلة الإنسانية بطمأنينةٍ وحريةٍ أكثر من أيِّ شخص آخر، دون أن يتعرَّضوا للعقاب والملاحقة القانونية، لأنهم يختبئون من الشرطيين في بيوتهم الحصينة وعرباتهم المظلَّلة، وموبايلاتهم التي تتصل في حالة الضرورة بـ«الكبير»، الذي بجملتين حاسمتين يجعل رجل النظامِّ العامِّ يعتذر للعاشقَيْن ويتلاشى في ظلام المدينة لاعنًا حظَّه لبقية اليوم.

كانا يعيان ذلكَ جيِّدًا، ولكن إلحاح فكرة الحُبِّ نفسها، والحاجة

لاكتشاف الآخر، وجنون الرغبة في الاقتراب من بعضهما البعض، قادتهما للمغامرة، ولكن هنالكَ جوانب أهمَّ في هذه العلاقة، سنلقي عليها بعض الاهتمام، مثل عدم مقدرتهما على تعريف العلاقة التي يقعان في جُبِّها؛ أهي حُبٌّ أم مفاكَرَةٌ ومثاقَفَة؟ لأن ما يدور بينهما من نقاشٍ فكريٍّ معرفيٍّ أكثر ممَّا يدور بينهما من همسٍ وتواجدٍ وملاطفةٍ ومجاسدةٍ، والأخيرة لم يفكِّرا فيها مجرَّد تفكير. ثمَّ هنالكَ «فوبيا الرجل»، التي ظهر بها لا يدعُ مجالًا للشكِّ أن «رشا» تعاني منها كثيرًا، بالأدقِّ فوبيا جسدِه بالذات، للدرجة التي جعلت «أدومة» يظنُّ أنها قد اغتُصِبتْ من قبل. سوف تحكي له في المستقبل حكاية أمِّها وأبيها، وكيف كانت تسمع وترى وهي طفلة، وإن صرخات أمِّها كانت تطير قلبها من صدرها، ولا تصرخ أمُّها في العادة إلَّا إذا تعرَّى والدها «جبريل كيري» وأسقط جسده العاري عليها، تجري تلكَ المعارك في السرير الملاصق لسريرها مباشرة.

لم تتردَّد «رشا» لحظةً في أن تمكِّنه من أن يراها عارية، ولم يحدث ذلكَ صدفة، ولكنه حدث إثر حوارٍ عميق، واقتنعت بأن تستعرض تحفتها الآدمية الحية أمامه، تمامًا كما تفعل الموديل، ولم يكن للأمر شأنٌ بالجنس، لم يفكِّرا فيه مطلقًا كما ذكرنا سابقًا، كانا يفكِّران في موسيقى الجسَد، موسيقى تخصُّها، وهي السحر الذي يجذب إليها الآخرين. لكي لا تقلق هي، لم يحاول أن يستخدم كاميرته لتوثيق

الحدث، لكنه يعرف أن وراء الكاميرا دائمًا الشكوك، ولم يكن رسامًا يمتلك مخيلةً تشكيليةً ليرسمها فيما بعد، وليس بنحّاتٍ أو مصوِّرٍ من أية درجة، ولكنه يحبُّ الموسيقى. كان يقف أمامها مشدوهًا، والأحرى به أن يقوم بعملٍ ما، بفعلٍ ما، فخطر بباله أن يصلِّي، صلاةً من أجل هذا الجسَد العبقري؛ صلاة الجسَد. لم تخطر بباله سورةٌ ما، أو آيةٌ من أيِّ كتابٍ مقدس، لم تمرَّ على خياله أسطرٌ من أيِّ زبورٍ كان، كان «النفري» الحاضر الوحيد، وفي الأفق تلوِّح له بأيدٍ مرتبكةٍ فقراتٌ من «هكذا تكلم زرداشت» لنيتشه، كان يحفظها منذ سنواتٍ طويلةٍ ماضيات، قالت له وهي تنتصب مثل تمثالٍ من البرونز: «وعدتني بصلاة الجسد»؛ فصلَّى يرتِّلُ:

«أبناؤنا المشرَّدونَ على جسَدِكِ الحار،
يرقصونَ على إيقاعِ نبضِك،
يتمرجحونَ في هدوءِ أنفاسِكِ وابتسامتِكِ الناعسة.
أنتِ مُسجَّاةٌ هنالكَ بكاملِ إرادةِ الوقتِ والقهوة،
بكاملِ صُراخِ العُشيباتِ المُصطفاةِ في سبيلِ النشوة،
يمهِّدنَ سُبُلَ الرَّب،
ينشدْنَ صلاةَ الجسد: أُحبُّكِ، أُحبُّكِ، أُحبُّكِ، ألفَ نجمٍ وطائر،
زرافةٍ في سافنَّا «كُوما قنذا» الغنيَّة،

وأنتِ مثلَ ماءٍ يتدفَّقُ بينَ صخرتينِ طيِّبتينِ كأحجارِ موسى،
تبعثرينَ جسَدكِ في المكان،
تتشهِّينَ الشيءَ أن تذوبي فِيَّ.
ومثلي كما لمْ يعلمْهُ الله،
خائنٌ وماكر،
لا يثقُ في حنينٍ يموءُ كهرٍّ جبليٍّ شبِق.
صلاةً لأجلكِ وحدكِ،
أقلِّدُ فيها إفكَ الحمام، وصدقَ الذئاب، وفِسقَ الدجاجاتِ،
وأبكي؛ لأني أغنِّي بصوتٍ وأبكي بصوت،
وأجني ثمارَ النهودِ التي تزهرُ فيكِ بصوت،
أدعو وأعلمُ أن الإلهَ يجيبُ دعاءَ الشقِيّ.
أصلِّي صلاةَ الجسَد،
لربٍّ يظلِّلُ ليلَ البناتِ الجميلِ بجناحَيَّ،
وأنتِ البُنيَّاتُ يَنَمْنَ في خاطري،
يخَفْنَ الرجالَ جميعًا إلَّا أنا، الوحيدَ في جوقةِ الجوارح،
يعطي الطمأنينةَ والخوفَ والجنَّ وشهوةَ الانتشاءِ بذاتِ الألم.
أصلِّي لأجلكِ صلاةَ الجسَد،

لا سُورةَ تُقرأ، لا توراة، لا إنجيل،
لا كماسترا، لا مشيل فوكو أو فوكوياما، لا فيدا،
لا سردياتٍ كتلكَ التي في كتابِ الموتى،
لا النفري، لا شيركو بيكا س، لا شيخ سنار التقى فرح،
لا دون جوان خليعًا.
ليسَ سِوى بُوذا ينقِّطُ ميلادَ عيسى المسيحِ بحبرِ اللوتس،
يديرُ بوصلةَ القياماتِ والأمهاتِ الجميلاتِ إلى وقتنا المتَّقِد.
صلاةً لأطفالِنا في الجسد.
ما بين صدرِكِ ونهدِكِ ونعليكِ،
ما بين شاربِ اللذةِ، وسكينةِ الجنجويدِ في رقابِ المساكينَ،
أصلِّي لأجلكِ صلاةَ الجسَد،
مثلَ النخيلِ يلطِّفُ وجهَ السماءِ المحرَقَ بالشمسِ والانتظار،
مثلَ الدليبِ والدوم، تعلو بأوراقها وتُسقطُ أبناءَها كأبنائِنا
المشردينَ في الأرض.
أصلِّي لأجلكِ وحدَكِ صلاةَ الجسَد.
امنحيني صلاةً تُصلَّى لأجلكِ.

لأجلكِ وحدَكِ صلاةُ الجسَد.
كُنَّ في الليلِ والغربةِ نفسَ المسافةِ ما بين ليلٍ وغربة،
نفسَ الجسَد.
أحبُّكِ، أحبُّكِ، أحبُّكِ، أحبُّكِ كثيرًا كحبةِ رملٍ، كذرةِ
تِبرٍ وحنظل.
أحبُّكِ جدًّا كشدوِ طيورِ الكُلج، كوخزِ ضميرِ الحمام.
أحبُّكِ أيضًا، وأنَّى، ولكن، وثمَّ، وبعد، وليت التي، ثمَّ
ماذا، وكيف؟
صلاةً لأجلكِ وحدَكِ،
كأطفالِنا المشرَّدينَ فوقَ أديمِ الجسَد،
بلذَّةِ الرملِ الذي نغنِّي لهُ،
أحبُّكِ، وكنَّا يمرُّ القطارُ بعيدًا رويدًا رويدًا، تهمسُ لي:
«بِحُب ... حبيبي، بِحُب».
أمدُّ يدي للسماءِ وقلبي،
أستعينُ بشيخي وسيِّدي النفري، بالمواقف والمخاطبات،
أصلِّي وأسلِّم، أشبعُ الوقتَ والميتين.
رأيتكِ عندَ الصباحِ البهيِّ تحلبينَ النعاج،
تثقو بلحنِ سليمانَ النعاج،
نشيدًا لإنشادِ الجسد.

كنتِ تنثرينَ وردَكِ ملءَ المساء،
كغاردينا البعاعيتِ [1] مسمومةً ومُشتهاة، يفوحُ عطرُكِ،
يُسكِرُ شهوةَ الاتعاظِ الغبيِّ لدينا «وحشُ السريرِ الزنيم»،
وأنا مثلَ قنٍّ يهيمُ بزوجةِ ملك،
وأنتِ سلطانةٌ تُغوي خِلًّا يخونُ ويوفِّي،
بِحُبٍّ يغنِّي:
لنا ما لنا مِن حنينٍ لنا، لنا ما لنا مِن جمال.
يا هذه، يا مجدليةَ الروح، يا مريمي، ومريمي الأخرى
وفاطمتي.»

أكثرُ ما يعجبه بصورةٍ عامَّةٍ في المرأة وسطها ونهداها، وزاوية النظر التي تنظر إليه بها بينما يضع كفتيه في وسطها، تعجبه المرأة التي تحسُّ بمجرَّد النظرة، تعي همس القلب للقلب، تفهم لغة الجسَدِ وتتحدَّثها، المرأة التي تجاوب أسئلته الغبية قبل أن تتشكَّل في ذهنه. الجنس لا يعني له الكثير، بل قد لا يعني شيئًا على الإطلاق، الجسَدُ في كماله كلوحةٍ لفنانٍ صادق، تُدخِل المتعةَ في النفس واللذة، دون أن تُلمَس أو تُتَذوَّق أو تُشَم. فاللوحة لا رائحة لها، ولكن التي لا تستطيع أن تملأ رئة المشاهد بعبيرٍ كونيٍّ منعش، هي تخطيطٌ جامدٌ وممل. واللوحة لا طعم لها، ولكنها ماسخةٌ وكئيبةٌ تلكَ التي لا تثير

(1) البعاتي هو الشخص الذي يحيا من الموت.

مرارتُها جنونَ الفم. واللوحة لا ملمس لها، وستظلُّ لينةً وباردةً، إذا لم تحسَّ الأصابع بطزاجتها وسخونة ملمسها. كذا الجسَد. والفنُّ بصورةٍ عامَّةٍ إذا لم يُثِرْ حفيظتكَ فإنه لا يكون قد نضج بعد. الفنُّ إذن مثل الجسَد، لا يمكن أن يمرَّ دون سؤال.

ظنَّ أن بينهما لغةً مشتركةً فيه ووعي. خطرت له فكرة أن يعبِّر عن ذاته، أن يتعرَّى مثلها، وهنا كادت أن تقع الكارثة، كانت فكرة عُري الرجل ترتبط عندها بالجنس والألم والصراخ الليليِّ الحزين، بحشرجات الاحتضار التي تطلقها أمُّها، لا شيء آخر، وإنها لا تحبُّ أن تفعل ذلكَ الآن، بل تخاف منه خوفًا واضحًا، فمنعته أن يخلع ثيابه. كاد أن يفهم وجهة نظرها ويعي حقيقة شعورها وتجربتها المريرة، ولكنه أحسَّ بالإحباط عندما قالت له: «إذا تزوَّجنا، فقط إذا تزوَّجنا. هل سنتزوَّج؟» فضاع في لجج الإفهام وتاه.

كانا يستمتعان بتجربة التحكُّم في النفس، يسمِّيانها «التحكُّمُ المطلَقُ في الرغبة»، ويظنَّان أن المتصوِّفة الأوائل كانوا لا يبالغون كثيرًا وهم يتخلَّصون من شهواتهم أو يعبُرونها نحو الموضوعية، وبذلك تصبح المرأة العارية كالشجرة، تُعجِب ولكنها لا تثير غرائز الإيقاع؛ فمن الذي يضاجع زهرة! ولا يخفى تأثير رواية «الطواحين» على الاثنين؛ الكاتب نفسه وفتاته. وكانا في الحقيقة يعيان ذلك، ففكرة التحوُّل إلى شخصياتٍ سرديةٍ تحتاج لخيالٍ جامحٍ ولجسدٍ له

حساسيةٌ عاليةٌ في تقبُّل الإشارة «الكهروروحية» وتحويلها إلى فعلٍ أو أفعالٍ تحقِّق متعةً كبيرةً وتوازنًا في الجسَد والروح والعقل؛ وتلكَ مدرسةٌ من التصوُّف.

قالت له: «صلِّ لأجلي صلاةَ الجسَد. » فرتَّلها.

لا يستطيع «أدومة» أن يخدع نفسه بفكرة الطهارة وأنه لم يتشهَّ هذا الجسَد الحيَّ المشحون باللذة الذي يُستَعرَضُ أمامه، لم تكن بوذيَّته أو صوفيَّته أو ما يسمِّيه تمارينه الروحية الخشنة، أو ما يسمِّيانه معًا: «واحدانيته»، لتنجيَه تمامًا من الرغبة، ولكنه التأدُّب والالتزام بما اتفقا عليه. وضع في مكان الجسَد شجرة، شجرة جميز عملاقة، كانت كالنائمة أو المنوَّمة أو أنها تدَّعي الاثنتين معًا، الشجرة تتنفَّس في هدوء. لمسها برفقٍ في أخمص قدمها اليسرى، مرَّر أنامله عليه، شمَّه واضعًا أنفه فيه، مسح به القدم كلَّها، وكمن غيَّر رأيه فجأة، ترك القدم المسترخية التي أخذت تستجيب لأنفاسه الساخنة، ليُغرق أنامله في شعرها الأسود الكثيف، كانت أوراقها نديةً ووحشيةً ولينة، ثمَّ ينحني برفقٍ ويقبِّلها في شفتها السفلى. كتب فيما بعد بكراسته:

«كانت شفتاها كالماءِ
لهما لونٌ،
ورائحةٌ، ومذاق.»

أُونُورْ يُرِيدْ تَغْيِيرْ النِّزَام

مرَّ بهم، جنديان شابَّان فترا من الحرب وقد ماتا مرارًا وتكرارًا في معارك مختلفة، وميادين قتال قريبة وأخرى بعيدة، وهما الآن في طريقهما إلى أسرتيهما في الخرطوم، في صورة أشباح ترتدي زيًّا عسكريًّا متسخًا، وفي جيب كلٍّ منهما لا شيءٍ من المال، قد تتعرَّف عليهما بعض الأمهات.

الرأسمال الذي تحتاج إليه «ملكة الدار» من أجل المقهى الصغير الذي ستقيمه تحت شجرة عم «عبد الرحيم» قليل، لا يتعدَّى المئة جنيه، المشكلة كانت في المكان، ولو أن الشجرة لها ظلٌّ كبيرٌ وممتدٌّ إلى منتصف الطريق الترابي، وما فوق جسر المجرى، إلا إنها تستضيف «أونور» الحدَّاد بسيوفه وسكاكينه وقصصه، و«ماجدة فضل الله» بائعة الزلابية بصاجها الكبير ومنقدها القديم، وعم «عبد الرحيم» الحلاق ومنفِّذ الجراحات الصغيرة. من المعتاد أن يدعوه البعض بالدكتور، وكان يعجبه اللقب كثيرًا ويطرب له أيَّما طرب، ولو أنه يخاف كثيرًا من أن تعرف الجهات الرسمية أنه ما زال يمارس ختان الأطفال ويقوم بالعمليات الجراحية، حيث تمَّ تحذيره مرارًا وتكرارًا، ولكنه لا يعرف مهنةً غيرها، وهو يعتبر نفسه أكثر مهارةً في هذا المجال من كلِّ الأطباء. كان عليها أن تستشير عم عبد الرحيم أولًا، كأبٍ روحيٍّ ونهائيٍّ للشجرة، إذا لم يكن هو السيد المالك لها بالتقادم ووضع اليد. وقد رحَّب بالفكرة، وخاصَّةً أن العلاقة التي تربطه بـ«جبريل» المرحوم كانت كبيرة، وكانا أكثر من أهل، وقام كلُّ شاغلي الشجرة بإفساح مكانٍ لـ«ملكة الدار»، بكلِّ طيب خاطر ومحبَّة، وكان «أونور» قد أبدى استغرابه في أوَّل الأمر، لأنه يظنُّ أن

من واجب «فتح الله» عندما فتحها الله عليه أن يفتحها هو بدوره لأسرة صديقه، ومن العيب أن يترك الأسرة تصل للمرحلة التي تخرج فيها زوجة صاحبه للبحث عن الرزق بهذه الصعوبة، ولكنه فضَّل الصمت، وفي قرارة نفسه ينوي مواجهة «فتح الله» بالموضوع في أوَّل فرصة يلقاه فيها، «فتح الله» الذي نسيه تمامًا ولم يقدِّم له ولو هدية صغيرة، وهو السبب الأساسي في ثرائه، هو من قدَّم إليه كلَّ المعلومات عن الذهب، ونصحه بصدق: «ولكن الله كريم.»

الشجرة في الحقيقة أشبه بسوق صغير، أو هي السوق الأساسي لأهالي «زقلونا» بقسميها الجنوبي والشمالي، تُعرض حولها الكثير من المستلزمات اليومية الضرورية للحياة، مثل الخضروات واللحوم وبعض الفاكهة الرخيصة، حبال صنع العناقريب، السمك البلطي والصير صغير الحجم، كما يوجد قسمٌ لبيع منتجات الألبان مثل الروب والزبد والسمن والجبن البلدي، والدجاج البلدي وبيضه، ويمتدُّ سوق الشجرة إلى ما بعد مساحة ظلِّها بعشرات الأمتار، في مستطيلٍ عرضه عشرون مترًا، وطوله لا يقلُّ عن أربعين مترًا أخرى، يبيع بالسوق النسوةُ والرجالُ جنبًا لجنب، وعند نهاية السوق من الجهة الشرقية توجد مرجيحة كبيرة في شكل دائرة، لا تنشط إلَّا في الأعياد، وتبقى طوال السنة أدِمة وخاملة، تلعب بها الريح التي تتسكَّع في أطراف المدينة ليلًا، وقد يشغلها بعض الأطفال الذين لا

يذهبون للمدرسة صباحًا، وتلاميذ المدارس في العصريات. على بعد مئة متر من هذه المرجيحة يقع ميدان المولد النبوي الشريف. أهمية الشجرة أنها مركز السوق كلِّه على الرغم من وجودها في الركن الجنوبيِّ منه وعلى حافَّة مجرى التصريف.

وضعَتْ أمامها أربعة بنابر[1] جديدة، ومنضداتٍ صغيرةً صنعها لها بالدَّين «صابر» النجار، رسم في المنضدة الكبيرة التي تضعُ عليها حاجياتها وردتين لا يمكن تحديد اسمهما أو نوعهما أو شبيه لهما من الورد في الطبيعة، ولكنهما جميلتان، وبينهما كَتب بخطٍّ زاهٍ بيتًا من قصيدةٍ شهيرةٍ تزِنُّ وترِنُّ في رأسه منذ أن قرأها قبل سنواتٍ مكتوبةً في الغطاء الخلفي لركشة[2]، لا يدري كيف يتخلَّص منها، وقد واتته الفرصة الآن: «كفتيرة تفك الحيرة يا بت أحسن من غيرا.» وتحتها توقيع صغير بأحرف مائلة: «م.ش.»، وكان سائق الركشة يعني بهما الحرفين الأوَّلين من اسم الشاعر الثوري «محجوب شريف»، وصابر يعجبه التوقيع.

أوَّل من اشترى منها هو «أونور» الحدَّاد. «فرْعَتْ ود حلال وبلال»[3]، قالت لنفسها ذلكَ، ووضعتِ النقود في درج منضدتها

(1) البنبر كرسيٌّ من الخشب منسوجٌ بالسعف، وهو قصير يرتفع عن الأرض قليلًا.

(2) نوع من العربات الآلية الصغيرة الحجم.

(3) أي أن الشخص الذي اشترى منها أول كوب شاي، هو شخص ابن حلال. و«فرع» بلغة النساء في السودان تعني أول المشترين.

الصغير، بعد أن بسملتْ وشكرتِ الله في سرِّها أيضًا. كان يرتشف الشاي بمتعةٍ خاصَّة، وعند المنتصف طلب قطعتي زلابية كبيرتين من «ماجدة فضل الله»، أحسَّ بأن للشاي نكهةً خاصَّةً، نكهة البيت، وليس مثل شاي السُوق الذي لا طعم لا رائحة لا لون. قال لها وهو يضع الكوب على المنضدة الصغيرة أمامه فارغة: «ما شاء الله تبارك الله.»

منذ ذلكَ اليوم، أصبح شاي «ملكة الدار كيري»، معروفًا ومشهورًا في سوق الشجرة، وظنَّ الجميع أن سيكون لها مستقبل مشرق بالسوق، إلى أن فاجأتها «الكشَّة» ذات صباح، مثلها مثل بقية الباعة غير الشرعيين بالسوق، ورُميَت معداتها التي تعمل بها، سويةً مع سكاكين «أونور سدنا»، ومقصات عم «عبد الرحيم» الأثرية، وصاج «ماجدة» وزلابيتها وزيتها وما باعت به من نقود، طماطم وخضروات «شيخ الدين»، عجلات «أبكر» العجلاتي، سمسمية «أمونة»، وأطباق، وسعف، ولحمة، وجرجير وعناقريب، وجرادل مشروبات باردة، وكراسات وكتب مزورة، قفتين كبيرتين من سمك البُلطي المحمَّر بزيت الفول، وصواني باسطة قديمة، كوارع ورؤوس ضأنٍ معدَّة للبيع، بعض قوارير العرق الفارغة، ما استطاع الشرطيون نزعه من كراسي المرجيحة، وعلى رأس كلِّ ذلكَ الجميعُ رجالًا ونساءً مشحونين في لوريين كبيرين للشرطة. وهو ذلكَ اليوم

الكئيب الذي هتف فيه «أونور» وهو يصعد على برميل الجاز الفارغ في باطن اللوري، بأعلى صوته وبلكنةٍ بجاويةٍ مرحة:

«أونور يريد تغيير النزام.»

وهتف خلفه البقية، بينما يعبر بهم اللوري أزقَّة «زقلونا» متجهًا نحو طريق الأسفلت العامِّ إلى قسم الشرطة الجنوبيِّ بوسط المدينة:

«الشعب يريد تغيير النظام.»

وكان الشرطيون يحاولون إسكاتهم عبثًا، وهم يضربونهم بصورةٍ عشوائيةٍ بالسياط والعصيِّ المكهربة، وهم صاعدون على الزوايا التي بجوانب اللوريين، يضع الواحد منهم إحدى رجليه خارج صندوق اللوري والأخرى داخله، يشبهون بذلكَ الأسماك المنشورة على حبلٍ بغرض تجفيفها.

كان اللوريان يمضيان بسرعةٍ فائقة، يطلقان صفارة الإنذار المرعبة، وعندما عبرا السوق المحليَّ ليتَّجها نحو شارع «عبيد ختم» هتف عمال وعاملات، وموظفون وموظفات، وعابرو سبيل وعابرات، باعة ومشترون، غاسلو سيارات، بعض اللصوص واللصَّات، سيدات محترمات كنَّ يشترين في أدب، بائعات خضارٍ وفـولٍ وتسالٍ، بائعات الكسرة والشاي والزلابية، موظَّفات حكوميَّات في طريقهنَّ للمكاتب، «نجدة منصور»، متشرِّدات، متشرِّدون، هتفوا مع ثوَّار اللوري الذين لا يعرفون لهم وجهة،

ولا يدرون شيئًا عنهم: «الشَّعبْ يريدْ تغييرَ النظام.» إلى أن اختفى اللوريان وسط العمارات الشاهقة.

عبدالله ديدان في صحبته ابنيه التوائم، حسن مرسال، أمين التوم، أمين محمد أحمد، محمد أحمد، غادة وخديجة، أشجار النيم العملاقة على الرصيف قرب باعة الفول المصري المطبوخ، النيل مكي قنديل، طارق الباشا، طارق جبريل، إدريس داوود، طارق جبريل عبد الكريم إدريس آدم، الفاضل المقبول، صالح فرح، ابتهال عوض الملقبة ببهولة، الصادق حسين، الطيب كبسون، حسن بابكر، طلال الطيب، عبد الرازق محمد موسى، صلاح إبراهيم، الزهري، صلاح محمد الحسن وكان يحمل على رأسه جرة من بول الإبل، ويُعرف في الجزر التي أتى منها بـ«صلاح الكافر»، كان يجري خلف عربة الشرطة ويصيح مناديا أونور، يريد أن يقول له شيئًا ما، امنا حسنوي، خادم الله بت جادين، فاطمة بشير، فاطمة كرار، فاطمة هندي، علي أبو خواطر، يحيى فضل الله، صلاح سر الختم علي، فاطمة محمد إبراهيم، عبد الرحمن الحاج موسى، سعاد إبراهيم أحمد، فطومة عبد الكريم إدريس آدم، علي الجمل، عوض علي، سلوى آدم بنية، مختار علي، الصول علي أبكر، أمل آدم، أمونة جورج، أوكير المجنون، حسن بترول، حسن قاشنا، أندريا مارلو، علوية علي، علي محمد علي، السر فتح الرحمن، السلطان تاج الدين (وكان وسيمًا

جدًّا)، علي عبد اللطيف، مريم عبد الكريم إدريس آدم، منى عثمان الحسن، علي الدولي، علي محمد مصطفى الشهير بـ«علوبة المشوطن»، حواء حواء حواء، النبي نوح، نبي جبران خليل جبران، سِحَيتُو، الإنجيل الخامس لنيتشة، عمال الصحة على لوري لشحن البقايا البشرية، كلبان يتبولان على بعضهما البعض، طلحة السماني، امرأة كانت تعبر الشارع الضيق المؤدي إلى السوق المركزي من السكن الشعبي، برتقالة متعفنة مرمية بإهمالٍ تامٍّ ونهائيٍّ على الرصيف ولم يلاحظ وجودها هنالك أحد، تحتها دودة صغيرة تستجير بالبرتقالة من حرِّ الصيف، الرصيف، دكتور مبشر حسن عبد الكريم، عبد الرحمن عينة، عبد القادر التركاوي، عمر هجام، بعانخي مندهشًا، عبد الباقي بابكر السندروم الأعظم، المهندس إبراهيم سالم، مي التجاني، أبكر آدم إسماعيل، حبيبة آدم اتيم، منصور خالد، طه حسن يس، الأمير طه، الهبابة نارمان، السلطانة صفية عباس محمد نور عالم، دار السلام حسين، عزيزة آدم اتيم، سامية سليمان عامر، تاج الدين، بحر الدين، محمد نور، نوال عيسى هارون، عيسى هارون، الجدي، زهور، نجوى، جون قرن دي مبيور، منعم سليمان، حبيب نورة، علي يس، علاء الدين الجزولي، صباح الخير، الخير الابوابي، سارة الابوابي التي عندما مرت بها عربة الشرطة العملاقة وعليها الثوار عبث بثوبها إعصار مخيف فارتبكت، النور محمد النور، الروائي

فايز السليك، نعم رحمة، مالك عقار، الطيب السطيح، مريم عبد الله كرامة، مواسير إسكلير اليهودي اللاتيني الذي يبحث عن أُمَّة غريبة في موقع ليس ببعيد عن السوق المركزي، آمال الكارب في صحبة كوكبة من الجدات الجميلات، سألنها بصوت واحد: «ألم يسقط بعد!»

جبريل الجزار، الدكتورة رؤى حفيدة الملكة آمنة، غازي عبد الحي، متولي عبد الحي، الملكة آمنة، الدكتورة أجاك جونسون، جابرييل جارسيا ماركيز، سلوى محمد عبد الله، الملكة نصرة، نصرة محمد عمر، إبراهيم إسحق إبراهيم، الحسن عبد الله، خميس عبد النبي، زايد عبد النبي، نورة عثمان، نورة محمد عثمان، نورة إبراهيم، نورة، بائعة الدوم، لص قصير القامة يدخل إصبعًا رشيقًا في جيب متسولٍ أعمى، امرأتان تعبران الطريق، امرأة تقف على الرصيف، رجل قصير يحمل جوالاتٍ فارغات، سرب من طيور ود ابرق، سنبريات، كلب، كلبان، حشد من العسكر يمضون نحو حتفٍ لا يحبونه، عبد العزيز بركة ساكن، منصور الصويم، صلاح مصطفى، إبركس، هاني حسين ضوى، أمل أحمد، صفية إسحق، ليلى صلاح، منى الطيب، عبد العزيز الطيب،محمد الناصر أحمد ابشوك، رباب وسحر وزينب،ياسمين ابراهيم، جلال الجميل، الصادق حسين سلطان، ذو النون آدم، نعمات خيري، الصادق الرضي، حافظ

حسين وهو الصديق الوفي لبعض الفاسقين الذين لو كان هنالك حاكم شديد الإيمان بالمشروع الروحي لتوَّجه ملكًا ثم قتله، إبراهيم يحيى، الأب توتو كوه، حسين باجور، سمية هندوسة، أميمة مصطفى، مصطفى سيد أحمد ود المقبول، الطاهر خالد، محمد خالد، محمد عيسى، عمدة رهيد البردي كان يشتري بعض الأسماك، سبأ القنصل، ميسرة، الابن المقدَّس منجد باخوس على ظهر حمار يتوقَّف عند الرصيف متجنِّبًا عربة الشرطة، ألم قشي، ود أمونة، أحمد محمد إبراهيم، الطيب المشرف، أبو عركي البخيت، السرة، ست الدار، بابكر السوداني، النور تية، حسب الله علي جامع، مصطفى عيسى، حيدر النور، مريم النور، عادل موسى نادر، ود النارووظ، محمد الناصر أبشوك، جعفر خضر وكان يمسك به خمسة من رجال الأمن وهو يضحك بأعلى صوته، عبد الرحمن كفل، كمال مرجان، ياسر شيبة، معاوية بائع الخضار، إبراهيم مكابسة، زينب بدر الدين محمد، إدريس همد، جمال همد، حامد همد، الشامخ علي موسى، خالدة صابر، موسى إدريس، طيارات، بلدي، آدمو، منال التوم، هالة الميناوي، أحلام ساتي، عم سيف، مها شبيني، علي نصر الله، السيد وسوس، القديسة الجميلة جُوبا والنبي الطيب نور الدائم لعنا شرطة النظام العام وأبا الوالي، عصام عيسى رجب أطلق قبلة في الهواء نحوهم فتشكَّلت قصيدة وشعلة ضوء، عصام أبو القاسم الصول، عصام

أبو القاسم، علوية محمد عثمان، نميري، عادل مزاجات، العم بيلي، الأم حواية حسب الله، زينب عيسى، آمال عيسى، نضال، زهرة، أمونة، سعدية، ليلى، الأسفلت الساخن يقبِّل أرجل الأطفال الحفاة المتشردين، دودتان، السني دفع الله، عم سالم أحمد، عبد اللطيف المكي، مبشر حسن، محاسن بركة ساكن، حسين شريف، رجل أعرج، مبارك الصادق، سيدة تبيع الطعمية، عربة متعطلة في الطريق الجانبي بها سيدة مريضة، عقرب، محمد الحسن سالم حميد، محجوب محجوب وأولاده الشياطين، إبليس، صوت الفنان محمد الأمين من دكان بائع الليمون ينشد: «الثورةُ انطلقت.» الدخري داوود الدخرى، أسامة الكاشف، أسامة الكارب، أسامة مأمون، أسامة محمد عبد الله، أسامة يس، عصام محمد عبد الله، ود البرقو أحمد، أحمد ود القرود، إبراهيم النيل، سيدة كوكريب، تيس يخُصُّ شخصًا يُدعى مكي، شكيري توتو كوة، عاصفة ترابية تصنع أعاصير صغيرة تدور في شكل دوامات من الريح تحمل الغبار وأكياس وحاويات النايلون الفارغة، طفلان يجريان بعيدًا عنها وهما يهتفان: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله معانا ما تغشانا.» تفاجئهما عربة الشرطة وهتاف شغيلة سوق زقلونة، الشمس الحارقة، بائع الكتب القديمة، الشاعر عبد الله شابو، الخالة زهرة بائعة الشاي، جون تابان، إسحق موسى، الزينة بت الخير، الوليد مادبو، رجلان يحتسيان الشاي تحت كوبري

السوق المركزي، هادية العمرابي، فضل إسماعيل حسن السروجي، حاتم إلياس، نعمة بدوي، لبنى أحمد، إيثار احمد، نعمة حسين، انتصار نور الدائم، ايما الكارب، إيمان شريف، الروائية آن الصافي، صورة لنابليون بونابرت على جريدة قديمة يلعب بها الإعصار، عربة مطافي، أغنية شائعة تنطلق من راديو يحمله رجل معلقًا على كتفه، صوت لوري الشرطة يخترق هتاف الهاتفين، شاعر عندما مرت العربة بقربه تذكَّر كلَّ أشعار بابيلو نيرودا، ومظفر النواب، وعالم عباس محمد نور، وحكاية البنت التي طارت عصافيرها.

مرَّ بهم، جنديان شابَّان فترا من الحرب وقد ماتا مرارًا وتكرارًا في معارك مختلفة، وميادين قتال قريبة وأخرى بعيدة، وهما الآن في طريقهما إلى أسرتيهما في الخرطوم، في صورة أشباحٍ ترتدي زيًّا عسكريًّا متسخًا، وفي جيب كلٍّ منهما لا شيء من المالٍ، قد تتعرَّف عليهما بعض الأمهات. محمد محمد خير، حلوم بائعة الفول المدمس المعروف بفستق العبيد والتسالي. محمد خير عبد الله، عاصم الصويم، موسى حامد، سارة الجاك، عمر الصايم، محمد المهدي المجذوب، ست الريد عمر، مناهل حماد، أركة موسى أركة، سدنا أونـور، النفري، جلال الدين السيوطي،اسماعيل حسن فضل السروجي، الطيب محمد الطيب، سلمى النور، إبراهيم نقد، محمد أحمد المهدي، شيماء آدم، عبد القادر ود حبوبة، صديق الحلو، جكسا

لرصد الانتهاكات، محمد حسين، أبو سمرة، عز الدين علي عامر، النور عثمان أبكر، شُكْشَة، حسن فضل الله، عبد الماهل حسن فضل الله، زرادشت، كارل ماركس، الأستاذ محمود محمد صالح، ست الدار بت أحمد جابر، فاطمة ميرغني، سيدة إبراهيم، حاج الريح، سلطان أبشوك، الشيخ أبشرى ... وقبل أن يعبر اللوري العملاق تلك الطرق المأهولة بالبشر وبعض المسئولين، مر على مجرًى مائي، فهدأت سرعته، وهنا هتف شغيلة سوق زقلونة: «الشعب يريد تغيير النظام.» الشيخ فرح ود تكتوك.

مرَّ بهم، طـلابٌ من مدرسة الشارع وطالباتها، مـرَّت بهم شوارع عدة وأزقة، وقطط ميتة، وأخرى تدبُّ في السبيل تبحث عن أرزاقها، سكرانان، ملقيتة اسحق، سيدة ابراهيم، آدم ملك، زينب عيسى،الاستاذ عبد الباسط يس، منى عثمان الحسن، إبراهيم هاساي،هاشم شرقي، حياة الدود، عربة كارو، أميرة رزق الله، بدرية عبد الفضيل ألماظ، عاملات وعمال يوميون يفترشون الأرض، علوية علي، مُنى الباشا ... مرَّت بهم الأرض، والنيل، والنيل الأزرق والأبيض والسوباط وبحر العرب، وستيت وبا سلام والعطبراوي لوَّحوا لهم من بعيد، وعلى جانبي الشارع كانت أعمدة الكهرباء وأبراجها العملاقة تنحي تحيةً لهم، ثم قبل أن تتوقف العربة بمباني الشرطة: اكتملَ وجهُ الله.

اللوريان يتوقفان عند بوابة الشرطة، ويحيط بهما في الحال جندٌ مدجَّجون بالعصيِّ والأسلحة الخفيفة، وينهالون عليهم ضربًا مبرحًا، وهم يشتمونهم بألفاظ نابية. صاح ضابطٌ سمينٌ وسيم، خرج من أحد المكاتب:

– وين «أونور»؟

فقز «أونور» من بين الجموع بعد أن دفع العسكريَّ الذي يضربه بعصاةٍ غليظةٍ بعيدًا:

– أنا سيادتك؟

قال الضابط وهو ينظر إليه بازدراء:

– أنت عايز تغيِّر النظام يا «أونور»؟

قال «أونور» وهو ما زال غاضبًا:

– «الشأب» كله يريد تغيير «النزام» يا سيادتك، والله سيادتك البلد أحسن ما يكون فيهُ حكومة، ورب «الكَأْبَة»، كان يكون زي الحلاوة، الناس «تئيش» مرتاااحة، تشتغل أي شغل، وتسافر أي مكان، وتكون الدنيا بخير.

قال الضابط وهو يدَّعي الغضب:

– يعني عايز الفوضى؟

قال «أونور» موضحًا:

– ورب «الكَأْبَة» أونور ما «آيز فودة»، عايز يشتغل ويأكل حلال،

ولكن الحكومة هي «الآيز فودة» يجي يكسر البيوت ويشيل بضاعة الناس، ويدق الناس زي البهايم، وأنت شايف قدامك يا سياتو. ما في احترام لا للرجل ولا مرا ولا «تفل» صغير ذاتهُ.

قال له الضابط وما زال يدَّعي الغضب:

- وحتشوف أكتر.

وعاد إلى مكتبه حيث انفجر في ثورةٍ من الضحك. حُرِّرَتْ بلاغاتٌ ضدَّهم جميعًا بالتآمر لإسقاط النظام الدستوري بالبلاد بالقوة، الإخلال بالنظام العام، التشرَّد، البيع بدون تراخيص، الإتجار بالخمور.

أتى «فتح الله فراج» وابنه، وقاما بضمان «ملكة الدار»، كما ساعد في إيجاد ضامنين لبقية المتهمين جميعًا، حيث إن لا أحد منهم لديه من يضمنه من ذوي الوجاهات والمعروفين اجتماعيًّا، موظفين حكوميين أو ذوي عناوين ثابتة، وبذلك أُطلِق سراحهم جميعًا على وعد بأن يُبلَّغوا باليوم الذي سوف تُعقد فيه المحاكمة. بعد شهرين بالتمام في محكمةٍ صوريةٍ بائلة، حُكم عليهم بالجلد جميعًا نساءً ورجالًا.

حلف عليها «فتح الله» بالطلاق ألَّا تعود لبيع الشاي، وأن تبقى بالبيت، وهو سيقوم بتغطية مصروف المنزل اليومي، مصروف «رشا» بالجامعة والطفلتين بالمدرسة، وكلِّ ما يطرأ من مصروفاتٍ من الآن إلى «يوم القيامة».

الْمَالُ وَالْبَنُونَ وَالدِّيك

كانت قد اعتادت على حبيبها، وأصبحت ممارسة الجنس بينهما عادةً ملحَّة، وخاصَّةً في أيام الفقر، حيث لم تكن هنالكَ مساحةٌ لأيِّ متع أخرى أو ترفيه، فكلُّ ما يجعلها تحبُّ الحياة وتستمرُّ فيها، هي اللحظات القليلة التي تقضيها معه، اللحظات التي يتركها فيها تلتصق بصدره وتستنشق رائحة عرقه، وتستمع إلى نبض قلبه، وذلكَ أهمُّ لها من الدنيا وما ومَن فيها. ما كانت تنتبه للفقر في تمظهراته كلها: تلبس ما توفَّر، تأكل ما وُجد، كانت محرومةً من كلِّ ما تحتاج إليه البنت من زينةٍ وضروريات، طالما كان هنالكَ حبيبها «أحمد»، يرغب فيها كما هي، ويعشقها هي وحدها، يأخذها إلى بيته في الصحراء ليستودع الشيء بين فخذيها، وسيتزوَّجها في آخر الأمر، عندما يكمل بناء بيته ويوفِّر مصروفات الزواج.

افتراضُ سوء النية في كلِّ من يقترب منه، كانت تلكَ التميمةَ السحريةَ التي تحميه من لصوص وسماسرة السوق وفاعلي الخير الزائفين، فالدروس التي تعلَّمها في حياة القاع كانت بالعمق والمرارة اللتين جعلتا منها منارةً يهتدي بها في كلِّ خطوة يخطوها؛ أن يعرف قيمة كلِّ مليم بيديه، ولن يفرِّط في شيء، يريد أن يظلَّ غنيًّا للأبد، وسيبقى هذا شعاره لزمنٍ قد يطول.

بمجرَّد أن عرف الكثيرون بأن «فتح الله فراج» قد حصل على كنزٍ من الذهب، انهال الناس عليه بالمشروعات المربحة التي تمكِّنه من مضاعفة أمواله في أشهر قليلة، تجارة حرَّة وحلال مضمونة وسريعة الربحية. كان «فتح الله» لا يفهم في الاستثمار، لا قليلًا ولا كثيرًا، ولكنه يعرف قيمة كلِّ قرشٍ لديه، ويعلم — من خلال غريزةٍ أن يبقى ويستمرَّ ثريًّا — أن عليه ألَّا يستعجل في اتخاذ قرار يترتب عليه دفع نقودٍ مهما قلَّت أو كثرت. ومن طبيعته أنه لا يستعجل شيئًا، ولكن عندما يأتيه المشروع من أقرب الأقربين، وهو أخو زوجته الضابط ذو الرتبة العسكرية الكبيرة، المُقرَّب من الشخصية الرئاسية المبجَّلة، يكون الاستثمار في المؤسسة العسكرية نفسها، وهي مؤسسة مشهود لها بالضبط والربط، ولا يساوره الشكُّ في نزاهتها. ولو أنه

لم يفهم المشروع بصورةٍ واضحة، إلا إن زوجته أكَّدت له إن أخاها يريد له الخير، وهو دائمًا يقف في صفِّه، وذكَّرته بحادثة زواجهما، و«فتح الله» يعرف ويتذكَّر، ويشكره على موقفه الداعم له، ولولاه لما تمَّ زواجه من «نصرة».

كما إن المشروع كان بسيطًا جدًّا، وهو أن يشتري ثلاثين عربة «جيب» أمريكي من دلالة الجيش، وتقريبًا المبلغ كان محدَّدًا جدًّا، ثمَّ يقوم بصيانة وإعادة تأهيل العربات وبيعها بأسعارٍ عاليةٍ ومغرية. عليه هو أن يظهر في المبايعات والتقدَّم للدلالة وإصدار الشيكات، وسيقوم سيادة الجنرال بما هو أهمُّ من ذلك؛ أيْ أن يجعل الدلالة ترسو على «فتح الله فراج»، وسيتقاسمان الربح مناصفةً، فهي شراكة نظيفة لا غبار عليها، أو عليهما.

زوجة أخيها المنعَّمة، تنازلت كثيرًا من عرشها، وأوكلت إلى نفسها مهمَّة إدغام «نصرة» وابنتها في المجتمع الراقي الجديد، بتقديمهما لصديقاتها وبناتهنَّ بالحي، وذلكَ بعد عمليات تنظيفٍ وتطهيرٍ وصنفرة بشرة، وغسيل مخ، أو ما تسمِّيه بالنظافة التي فرضتها عليهما فرضًا، وقبلتاها بدورهما بكلِّ سرورٍ وطيب خاطر، وحدث ذلكَ سريعًا في بحر شهرٍ لا أكثر، فالتعليم الذي اكتسبته «نصرة» في صباها أفادها كثيرًا في تقبُّل الحياة الجديدة الراقية، كما أفادها في أن تجعل زوجها يفهم العمليات الحسابية البسيطة فيما

يخص استثماراته وشركته الجديدة مع أخيها:

٣٠ عربة «جيب» أمريكي.

العربة في الدلالة سترسو عليه بـ ٥٠٠٠ جنيه سوداني.

سيقوم بصيانة كلِّ العربات وإعدادها بمبلغ لا يتعدى ٣٠٠،٠٠٠ جنيه، سيبيع العربة الواحدة بسعر أقله ٣٠،٠٠٠ جنيه.

يعني ذلكَ يا أبا السر، وهو يحبُّ هذه الكنية حُبًّا شديدًا:

التكلفة الكلية = ١٥٠،٠٠٠ + ٣٠٠،٠٠٠ = ٤٥٠،٠٠٠

سعر البيع = ٣٠ × ٣٠،٠٠٠ = ٩٠٠،٠٠٠

الربح المتوقَّع = ٤٥٠،٠٠٠

في ضربةٍ واحدة ٤٥٠،٠٠٠ ؛ يعني بالقديم أربعمئة وخمسين مليونًا. نعم، المال يجرُّ المال، والفقر إذا لم يَحسُن التعامل معه، فإنه يجرُّ الفقر لا محالة. الإنسان الذكيُّ هو الذي يستطيع أن يخرج من دائرة الفقر إلى ساحة الغنى الفسيحة، كالشعرة من العجين، وألَّا يعود للفقر مرةً أخرى، والفقر هو فقر العقل من التفكير، وليس فقر الجيب من المال.

استطاع «فتح الله» عن طريق زوجته الذكية جدًّا، أن يفعل ما يحقُّ لرجلٍ عانى من الفقر ما عانى والآن يريد أن ينعم بالحياة كما ينعم بها الناس عادة. كانت حياتهما ستمضي سلسةً وطيبة، لولا ما يشغل بالهما من موضوعين شائكين؛ وهما موضوع علاقة ابنتهما

المريبة مع «أحمد زكي»، وموضوع أسرة صديقهما «جبريل كيري».
ولكن بالنسبة لـ«فتح الله فراج» فإن ما يشغله فعلًا شيءٌ واحدٌ لا أكثر، هو الديك؛ فقد داوم هذا المخلوق اللعين على أن يهاجمه في نومه وصحوته، بل أخذ يدير كلَّ تفكيره بالطريقة التي يرغبها الديك، لا كما يشاءها «فتح الله فراج». وكان يحدِّث زوجته كثيرًا بأمر هذا الديك الغريب، فقدَّمت إليه نصيحة، وهي أن تأخذه لأحد الشيوخ بريف «الخرطوم»، لأن هذا الديك الذي في رأسه هو نفرٌ من الجن، ربما أصابه في القبر النوبيِّ كما أصاب صديقه «جبريل» وأودى بحياته.

لم يخبرا أيًّا من أطفالهما بغرض سفرهما إلى ضواحي «الخرطوم». قالت الأمُّ لـ«ميرم»: «سنذهب إلى جدك بالقرية، يومين ونجي راجعين، وحنخلي «فراج» معاك في البيت، ما تهملي فيهو وتخليه يمشي الشارع، الجمعة والسبت مدرستك في إجازة، ما فرقت معاك.» وأعطتها المصروف، ولكن في بالها أن تقول لها: «إياك وأحمد زكي!» لكنها آثرت الصمت، تجنُّبًا للشجار العنيف بينهما، وخاصَّةً بعد الحادثة الأخيرة.

منذ أن عرفت الأمُّ نشاطها السريريَّ مع ابن أختها «أحمد»، توتَّرت العلاقة بينها وبين «ميرم»، وأخذت تمنعها من الخروج من المنزل إلَّا بصحبتها هي نفسها، أو بصحبة أخيها الصغير «فراج» عندما يكون

المشوار قريبًا جدًّا. وإن الأمَّ تحدَّثت مع ابن أختها بصراحةٍ ووضوح، وأكَّدت له إنها لا تمانع أن يتزوَّج ابنتها، هو في آخر الأمر ابن أختها، ولكن عليه ألَّا يختليَ بابنتها، تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف، إلا بعد أن يتزوَّجا على سنة الله ورسوله. بذلكَ منع «أحمد زكي» نفسه من الحضور لبيت خالته إلَّا في المناسبات العامَّة، مثل اليوم الذي رحلت فيه الأسرة إلى «كافوري».

ولكن البنت فكَّرت أخيرًا في أمرٍ صعبٍ عليها، ولكنه كان المخرج الوحيد الذي يمكِّنها من لقاء حبيبها «أحمد»، وهو أنها وافقت على مواصلة دراستها، أن تقوم بالجلوس لامتحان الشهادة السودانية مرةً أخرى، حتى تتمكن من تحقيق رغبة والدتها في دراسة الطب أو الهندسة أو الصيدلة، وهي علوم تكرهها من عمق قلبها، ولكن «المضطر يركب الصعب» كما يردِّد والدها عند الخيارات المستعصية. ولو أن الأمَّ تشكَّكت في نواياها، إلا إنها لم ترفض الفكرة، وطربت لها كثيرًا، وقامت بتسجيلها عند فصل إعادةٍ بمدرسةٍ خاصَّةٍ لها صيت، يذهب إليها أبناء الأثرياء، بها ترحيلٌ خاصٌّ من باب المنزل إلى باب المدرسة والعكس، ممَّا زاد التوتُّر بين البنت وأمِّها، فالترحيل يضبط حركتها ويحدُّ من حريتها.

كانت قد اعتادت على حبيبها، وأصبحت ممارسة الجنس بينهما عادةً ملحَّة، وخاصَّةً في أيام الفقر، حيث لم تكن هنالكَ مساحةٌ لأيِّ

متع أخرى أو ترفيه، فكلُّ ما يجعلها تحبُّ الحياة وتستمرُّ فيها، هي اللحظات القليلة التي تقضيها معه، اللحظات التي يتركها فيها تلتصق بصدره وتستنشق رائحة عرقه، وتستمع إلى نبض قلبه، وذلكَ أهمُّ لها من الدنيا وما ومَن فيها. ما كانت تنتبه للفقر في تمظهراته كلها: تلبس ما توفَّر، تأكل ما وُجد، كانت محرومةً من كلِّ ما تحتاج إليه البنت من زينةٍ وضروريات، طالما كان هنالكَ حبيبها «أحمد»، يرغب فيها كما هي، ويعشقها هي وحدها، يأخذها إلى بيته في الصحراء ليستودع الشيء بين فخذيها، وسيتزوَّجها في آخر الأمر، عندما يكمل بناء بيته ويوفِّر مصروفات الزواج.

لكي تكسر حصار الحرمان العنيد الذي ضربته عليها أمُّها «نصرة»، أدمنت المحادثات الطويلة عبر الموبايل، واسكايب **Skype**، ومشاهدة الأفلام الجنسية التي تتداولها طالبات الفصل الأكبر سنًّا. تعلَّمت الاستمناء الذاتي، شاهدت ذات مرةٍ بطلة فيلم روائيٍّ سجينةً تقوم به في زنزانتها الباردة المعتمة المعزولة، دفعها التعبير الغريب الذي يبدو على عيني البطلة وهي تصل ذروتها، حالة الاسترخاء والهدوء العميقين التي تعقب ذلك، الإحساس بالانتصار على السجن والظلام والسجانين وشهوة الجسَد أيضًا، حيث كانت تقوم بذلكَ وحيدةً، أو بوجود السجَّان خلف القضبان، وتحت عدسات الكاميرات السرية. شاهدت الفيلم عشرات المرات،

وقرَّرت أن تكون هذه السجينة: بها رغبةٌ وحشيةٌ في أن تنتصر. على من أو على ماذا؟ لا يهم.

دخَّنت السجائر مع الطالبات في الحمامات والحفلات المباحة التي تنظِّمها المدرسة، وتستغلُّها الفتيات في نزقهن. كان دخان السجائر يهدِّئ أعصابها المضطربة، ولو أنه يجعلها تكحُّ وتحمرُّ عيناها ويصيبها باحتقانٍ في الأنف.

إلى أن تعرَّفت بـ«سُهى»، أو تعرَّفت «سُهى» بها، وهي ابنة سياسيٍّ شديد الثراء وشديد التدين، وهو الشيخ السياسيُّ الطبيب الذي أقنع المؤسسة الدينية بتحريم الصعوط عندما استيقظ ذات صباح ووجد ابنته تنام وتحت شفتها السُّفلى كُرةٌ لزجةٌ بائسةٌ منه، وكأن يعلم العلاقة بين سرطان اللثة وهذه المادة النطرونية المخدرة، ولكن وزير المالية الذكيَّ أقنع الجميع بأن ذلكَ سيفقد الدولة المفلسة ١٧٪ من الدخل القومي، ويفقر ألفين من التجار الوطنيين، ومنهم خمسون سياسيًّا مشهورًا، وما لا يقلُّ عن مليوني تاجرٍ محلي، فتراجعت الفتوى الدينية من التحريم إلى الكراهية، ثمَّ إلى التحليل الخجول.

كانت البنت تعيد الفصل الثالث معها، تريد أن تحرز درجة نجاح لا أكثر، لكي تدرس الطب في «ماليزيا» على النفقة الخاصَّة، والدها يريدها أن تعمل طبيبةً في المستشفى الخاصِّ الذي يمتلكه، أو أستاذةً في إحدى كلياته الطبية الخاصَّة التي لا يرغب في أن يضمَّ ابنته إليها،

يجب أن تتخرَّج البنت في جامعة محترمة مُعترَف بها عالميًّا. الطالبة المتعثرة ذاتها هي التي بَسَّطَتْ لها مسألة دراسة علوم الطب، وفقًا لما فهمته من أبيها: «معرفة الأمراض ومسبِّباتها وعلاجها لا أكثر.»

كان شعارها هو «من حقِّ البنت أن تستمتع بحياتها الآن، والمستقبل بيدي الله.»

عرَّفتها «سُهى» بسائق حافلة الترحيل، «حسن باشري»؛ شابٌّ أربعينيٌّ نشط، وتقول عنه «سُهى» إنه يحفظ الأسرار وخدوم، لا يطلب مالًا كثيرًا، وقالت لها أيضًا: «بشبش يوفر كُل حاجة، البنقو والحبوب والسجائر والرجال كذلك.»

منذ ذلكَ اليوم استطاعت «ميرم» أن تقضي ساعتين مع «أحمد»، بواقع مرتين في الأسبوع، مقابل مئة جنيه لسائق حافلة الترحيل. قالت لها الأمُّ من بين أسنانها، وهي تعطيها المصروف: «إذا دخل «أحمد» البيت دا في غيابنا، ما حتشوفيهُ تاني في حياتك!»

لم تقل شيئًا، نظرت لأمِّها في أمِّ عينها، أخذت النقود، دخلت غرفتها، أغلقتها عليها، واتصلت بـ«أحمد»، أخبرته بأن أمَّها وأباها سيسافران بعد قليل، وأن السائق الآن في انتظارهما، وأنها ستكون في انتظاره هو بالمساء بعد أن ينام «فراج» الصغير، وعليه أن يتدبَّر أمره، لأنه سيبيت ليلته معها في غرفتها الصغيرة الجميلة.

في واقع الأمر لم تكن غرفتها صغيرة، كانت غرفتها أكبر من

الحجرتين اللتين كانت أسرتها كلُّها تشغلهما في «زقلونا»، مساحتها ٦×٨ أمتار مربعة، وهي شقةٌ مصغَّرة، لها شرفةٌ ترتفع قليلًا عن الأرض، لها نافذةٌ بحجم مساحتها من الزجاج، تطلُّ على حديقةٍ صغيرة. بالغرفة حمامٌ كبيرٌ ملحق به «ساونا» و«جاكوزي»، وسرير واحد «كينج سايز»، خزانة ملابس أشبه بغرفةٍ صغيرة، كنبةٌ وكرسيان وثيران، تواليت إيطاليٌّ حديث، ثلاجة، تلفزيون بشاشة «LCD» مساحتها ٨٠ بوصة، وأشياء أخرى صغيرةٌ وكبيرةٌ ضروريةٌ لبنتٍ ثرية. جُهِّزت الحجرة عن طريق بيت خبرةٍ أوصت به زوجة الخال، لذا هنالكَ أشياء كثيرةٌ لم تستخدمها «ميرم»، بل لم تعرف لها اسمًا أو كيفية استعمال، في واقع الأمر هي لا تحتاج إليها، على الرغم من الدروس التي أعطتها لها زوجة خالها، وتلكَ الشروح التي تطوَّعت بها صديقتها «سُهى» عندما أتت إليها مرةً زائرة.

مملكتها هذه الصغيرة محرَّمٌ على كلِّ أفراد أسرتها دخولها؛ صغيرهم — ما عدا «فراج» — وكبيرهم، شاهدوها فقط قبل أن تأخذ «ميرم» مفاتيحها، جميعًا، للمرة الأخيرة وللأبد، بعضهم بأمرٍ من «ميرم» مثل الأم، وبعضهم تخوُّفًا من الحرج، مثل الأب والأخ «السر»؛ فـ«ميرم» في غرفتها لا تلبس شيئًا على جسدها، منذ طوفان أزمتها الطيني، وتلكَ هي الطريقة الوحيدة التي تحافظ بها على عزلتها، تلكَ العُزلة التي أقرب ما توصف به أنها نوعٌ من الاحتجاج

الحاد، وجسَدُها هو صرختها التي تُخيف وتُفزع.

رأت من النافذة العربة تأخذهما بعيدًا. بعد قليلٍ طرق «فراج» الصغير الباب وهو يبكي احتجاجًا على أن أمَّه لم تصطحبه معها. أخذته «ميرم» للمطبخ، فهو يحبُّ البيض محمَّرًا بالزيت، وهي عادةٌ قد اكتسبها من أيامهم الحزينات السابقات، حيث كان أكل البيض يمثِّل رفاهيةً غذائيةً مدهشة. ما زال يمكن امتصاص غضب «فراج» بوجبةٍ خفيفةٍ منه، فلم ينتقل «فراج» فعليًّا إلى الجوِّ الثريِّ الجديد ويتطبَّع بنهج الأغنياء، أو يدَّعي ذلكَ كما تفعل البنت وأمُّها وأبوها، خاصَّةً عندما يكونون في حضرة أهالي «كافوري» الأغنياء المنعَّمين. ما زال الصغير المسكين وحِلًّا في بنية الفقر، نفسيًّا، وفي سلوكه أيضًا، ولو أنه في قلب مدينة من الثراء الفاحش والأثرياء الفاحشين. تستطيع بيضةٌ واحدةٌ محمَّرةٌ بالزيت أن تنسيَه أمَّه لوقتٍ قصير، ثمَّ لوقتٍ أطولَ قليلًا، ثمَّ يندمج في اللعب بما يشاء من لُعبٍ بغرفته. وستأخذه «ميرم» أيضًا للحديقة في العصر، ستلتقي هنالكَ ببعض صديقاتها، ستلهون وتمرحن وتتبادلن الأخبار والنمائم البيضاء والزرقاء والسوداء. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، عندما سمعت جلبةً خفيفةً عند الباب، وصوتًا ينادي في تشوُّق:

– يا أمي «نصرة».

وهي الطريقة التي يعلن بها أخوها «السر» خبر وصوله وأنه

مشتاق لأمِّه، وكان نداؤه هذا يعجبها جدًّا في الماضي، وكان محبَّبًا لنفسها، وخاصَّةً في أيام الشدة، حيث يأتي «السر» محمَّلًا بالفاكهة والهدايا، أمَّا اليوم فلم تسمع أقبح وأكثر رُعبًا من هذا النداء الذي كان رحيمًا وجميلًا وطازجًا في الماضي.

وضع حقيبتين كبيرتين غريبتين في غرفته، لم يحمل معه سلاحًا هذه المرة، وهو دائمًا ما يرتدي الزيَّ المدني.

يكبرها «السر» بأربعة أعوام كاملات، ونسبةً لخدمته العسكرية، صار له جسدٌ رياضيٌّ وبنيةٌ ناضجةٌ جعلته يبدو أكبر من عمره الحقيقيِّ بسنوات كثيرة، كان مرحًا كعادته وطيبًا ويحبُّ النكات، وتصفه أمُّه «نصرة» بأنه «حنيِّن».

حمل «فراج» وضمَّه إلى صدره. عضَّه في أذنه. كان مزاج «فراج» قد اعتدل فجأةً لرؤية أخيه «السر»، وأخذ يمطره بالأسئلة الغريبة والركلات الصديقة، معبِّرًا بذلكَ عن شوقه ومحبَّته لأخيه كثير الغياب.

حاولت «ميرم» بقدر المستطاع أن تكون طبيعية، وألَّا تغرق نفسها في مصير لقائها بحبيبها «أحمد» الذي أصبح مستحيلًا. وضعت الإفطار لأخيها «السر» الذي أعلن أنه جائع ومرهق، لقد جاء من «كردفان»، قضى الليل كلَّه مسافرًا بشاحنةٍ عسكريةٍ متهالكة، وقال إنه لن يعود مرةً أخرى للعمل: «لقد استقلت نهائيًّا، ساعدني خالي،

أنا سأقرأ الجامعة يا «ميرم»، ما كلمتك أمي؟»

نعم أخبرتها أمُّها كثيرًا جدًّا، بل أخبرت كلَّ من قابلته وتبادلت معه كلمتين، بأن ابنها العبقريَّ سيعود للدراسة بعدما تبدَّل الحال، لقد كان أوَّل دفعته في كلِّ الفصول التي تيسَّر له حضورها، وعندما ترك المدرسة وانضمَّ للجيش أتى إليها مدير المدرسة بنفسه يرجوها أن تتركه يكمل دراسته، وإنه سوف يعفيه من كلِّ الرسوم المدرسية، ولكن الأسرة كانت تحتاج له أيضًا، تحتاجه كمُنتِج، وإن مشكلة المدرسة ليست الرسوم وحدها، ولكن مصروفات الإفطار والملابس، وثمن الكتب والمذكرات والمواصلات، حيث لا توجد مدرسةٌ ثانويةٌ بـ«زقلونا»، وعليه أن يستقلَّ المواصلات العامَّة إلى «السلمة» رائحًا وغاديًا. الآن يمكن لولدها أن يعود للمدرسة وسيحرز نتائج ممتازة، لم تحتَجْ لجدلٍ كبيرٍ لإقناعه بالعودة للدراسة، فقد كانت الرغبة مكبوتةً في ذاته، ولو أنه كان يحاول أن يستغلَّ وضع خاله، ويتقدَّم للتأهيلية بالكلية الحربية، ويتخرَّج ضابطًا حربيًّا برتبة ملازم. وقد شرع فعلًا في الأمر، فملفُّه النظيف وسيرته الحسنة في جهاز الأمن الوطني ورتبة خاله الكبيرة تؤهِّله لذلك.

كان خاله يريد أن يقدِّم خدمةً كبيرةً لأخته «نصرة» تمكِّنها من اجتياز محنة الفقر والفاقة والاعتماد ولو قليلًا عليه هو، وهذا لا يقدح في كونه كريمًا ونبيلًا، ولكن لا يدري كيف يكون مستقبل الأيام،

وإذا لم تعتمد الأسرة على ذاتها فإنها ستظلُّ في حالة إعاقةٍ دائمة، تعوق نموَّها الخاصَّ وتعوق من تعتمد عليه من خارجها، «والفقر يُعدي»، وهي مقولةٌ سمعها من رجلٍ ثريٍّ ذات مرة.

سينام قليلًا، وفي المساء سيذهب لزيارة أسرة العم «جبريل كيري»، يشتاق للتوأم، وطلب من «ميرم» أن تصحبه ومعها الصغير «فراج»، إلا إنها اعتذرت بأن عليها واجبات مدرسية تريد أن تقوم بها في المنزل. كانت لديه رغبةٌ عارمةٌ في التحدُّث إليها ومحاورتها، يريد أن يعرف تفاصيل أموال والده وحياته الجديدة كما تراها هي، ولكنها كانت تردُّ عليه في جملٍ قصيرةٍ غير مفيدةٍ في الغالب الأعم، كان مزاجها عكرًا وترغب في تدخين سيجارةٍ ملحَّة، وتحتاج للصمت والسكينة؛ أيْ تريد أن تكون نفسَها لا أكثر.

لقد أحسَّ بالتغيُّرات التي حدثت لأخته، جسديًّا؛ حيث إن وزنها زاد بصورةٍ ملحوظة، وعزا ذلكَ لتوفُّر وجودة الطعام، شعرها أصبح أكثر طولًا ونعومة، إلا إنها أصبحت قلقة، قليلة التحدُّث، وبها توتُّرٌ واضحٌ وجلي، كما إنه لاحظ أنها تلبس بصورة متعرية؛ أيْ ملابس البيت القصيرة جدًّا وذات الصدر شبه المكشوف، وكان يراها في الماضي بجلبابها الوحيد الذي هو أقرب للزيِّ الرجاليِّ منه لملابس السيدات. لم يهتمَّ بذلكَ كثيرًا. استأذنتْ ودخلتْ غرفتها.

اتصلت بـ«أحمد زكي»، أخبرته بأن أخاها جاء فجأةً من حيث لا

يُتَوقَّع، وأنه جاء نهائيًّا، ليس كالمرات السابقات عابرًا، وعليه إذا كان يرغبها أن يتزوَّجها بأسرع ما يمكن، وأنها لا تحتمل البقاء في هذا البيت، لأنها ببساطةٍ ستفكِّر بالانتحار، وقالت له: «برنامج الليلة قائم، ستبيت معاي في غرفتي.»

لا تدري كيف خطرت لبالها كلمة الانتحار، فهي لم تفكِّر فيها من قبل، ولم تحسَّ يومًا بأنها ستقوم بفعلةٍ كهذي، ولكنها ربما أرادت أن تسرع بإيقاع «أحمد» البطيء جدًّا في شأن الزواج. أبدى تخوَّفه من أن أخاها قد يكشف أمرهما، فهو سيبيت أيضًا بذات المنزل، وقد لا يفرق بينهما سوى حائط لا أكثر، وإذا حدث ذلكَ فإنهما قد يفقدان بعضهما البعض للأبد، وقد تحدث فتنةٌ بين الأسرتين.

عندما خرج «السر فتح الله» وفي صحبته «فراج» الصغير واختفيا في الطريق الجانبيِّ المؤدِّي إلى شارع النيل، دخل «أحمد زكي» «الفلَّا» الفارهة، ثمَّ الشقة حيث التقطته «ميرم» عند باب الشقة في هالةٍ من العطر المنعش، حملها على كفَّتيه كما يفعل دائمًا في بيته الصحراويِّ إلى غرفتها، حيث وضعها على السرير الكبير. بينما كان يلتقط أنفاسه لاحظ الثراء الفاحش الذي بدا على الحجرة الواسعة، تلكَ التجهيزات التي لم يرَ مثلها إلَّا في السينما والمسلسلات العالمية.

كان كلُّ شيء جميلًا وكاملًا، إلا إنه افتقد عنصرًا مهمًّا، وهو الرائحة التي تخصُّ جسد «ميرم»، تلكَ التي تنبع من مسامها مُعتصَرة

من دمها، رائحتها الأكثر إنسانية من كلِّ عطور الدنيا وبيوت أزيائها الثرية الزائفة، رائحة الفقر الطيبة مختلطةً بالتشهِّي غير المشروط، بدفء الحاجة، افتقد الرائحة التي تعلن عن إنسانية الإنسان، عن موسيقى إيقاع قلبه، تلكَ التي تحمل حكاياتٍ وقصصًا صادقة: افتقد حبيبته «ميرم»، عبق شرورها الجسدية.

قال لها وهو ينظر في عينيها اللتين أزالتا تينكَ العينين اللتين خبرهما جيِّدًا: «تغيرت كثيرًا في فترة قصيرة، ريحتك أصبحت قروش قروش. ولم يتبقَّ منك سوى عينين.»

ضحكا ولعبا، ولكنه اكتشف أيضًا أن هنالكَ متغيِّراتٍ أخرى في جسدها، كانت متوترة، وبدا جسمها مشدودًا، بل أحسَّه صلبًا وباردًا، لم يكن ذلكَ الجسَدَ السهل اللدن الطيِّع المستسلم للذة، المستجيب للمساته وهمسه، بل لدقات قلبه وخواطره غير المرئية. أحسَّ بأن البنت الشجرة أصبحت صخرةً صماء، والماءُ استحال إلى جبلٍ من الجليد. هل هي التي تغيَّرت فعلًا أم إنه هو مَنْ تغيَّر؟ أيْ إن الجوَّ الثريَّ والمكان الغريب قد أثَّرا في نظرته للأشياء وإحساسه بحبيبته. المرة الأخيرة التي التقيا فيها كانت منذ شهرين تقريبًا، وهي ليست فترةً طويلة، نعم لم تكن كما كانت دائمًا، ولكن لم يكن التغيير كبيرًا وشاذًّا ومخيفًا كما هو الآن. نعم: يخاف أن يفقدَها.

سُلْطَانَةُ الْجِنِّ وَالإِنْس

كانت تستجيب لغزله بمحبَّةٍ ورغبةٍ وجنونٍ وشبق، وعندما تبلغ ذروتها تشعر أن العالم كلَّه ملكها وإنها سلطانة الجنِّ والإنس والملائكة والجماد والنبات والحيوان، وكلِّ ما ليس له نوعٌ وجنسٌ وفصيلةٌ واسمٌ وصفة. هي مستعدة أن تضحِّي بكلِّ ما في الكون من أجل تلكَ اللحظة الفريدة، اللحظة التي أعانتها في الماضي في الانتصار على الفقر والفاقة، وحرَّرتها من سجن الوقت والمكان.

الحياة في «زقلونا» مثل السباحة في بئرٍ عميقة الغور، ضيقة، ذات جدرانٍ ملساء زلقة، يظلُّ الإنسان يسبح في حلقةٍ لا نهاية لها، إلى أن تخورَ قواه وتهِنَ عزيمته، فتبتلعه البئر في جوفها المظلم. كانت «ملكة الدار» تعي ذلكَ تمامًا، ولكنها ليست من الناس الذين يستسلمون سريعًا، بل هي من القلة الذين يسبحون في دائرة الجُبِّ ويطلبون النجدة في ذات الوقت.

كانت في الحقيقة مندهشةً من سلوك «فتح الله» تجاه أسرتها، وترى أن تلكَ «حنيَّة» زائدة واهتمام أكثر ممَّا هو متوقع. نعم هو صديق زوجها المرحوم ورفيق مغامراته الغريبة، ولكن كان اهتمامه واقترابه الكبير من أسرتها يبدو مرَضيًّا، وأصبح يضايقها؛ فهو الآن قد منعها من العودة للعمل في سوق «زقلونا» كبائعةٍ للشاي، ويقوم بصورةٍ منتظمةٍ بمدِّها بالمصروفات المطلوبة للأسرة، وقد حدَّثها قبل أيامٍ عن نيَّته بناء بيتٍ لها ولأسرتها، بعيدًا عن هذا الحيِّ الذي تفوح منه رائحة الفضلات الآدمية والحيوانية آتيةً من المجرى المفتوح الذي تتجمَّع فيه كلُّ فضلات سكان العاصمة «الخرطوم»، وهو يعاني عن نفسه من رائحةٍ زنخةٍ وجيوشٍ من

الذباب اللئيم. يريد أن يشتري لهم بيتًا في منطقة «السلمة» وهي حيٌّ جيِّدٌ ونظيفٌ نسبيًّا. البيت يطلُّ على طريق الأسفلت العام، وسجَّله باسمها شخصيًّا، وأخذ بالفعل في تشييده بمواصفاتٍ جيِّدة.

والشيء الآخر الذي أثار ريبتها، هو الشائعة الغريبة التي تقول إن «فتح الله» قد عثر على الذهب مع «جبريل»، وقد قام بدسِّ السُّمِّ لـ«جبريل» في الطعام لينفرد بالذهب. وهذه الشائعة أصبحت مع مرور الأيام هي الواقع الحقيقيُّ والقصة الفعلية لثراء «فتح الله»، وهي التي فسَّرت اهتمامه بأسرة صديقه المرحوم، نتيجةً لعقدة الذنب التي تؤرِّقه وتمنعه النوم. لكن «ملكة الدار» كانت في حاجةٍ للمال، في حاجةٍ ماسَّةٍ لكلِّ مليمٍ من أجل تعليم التوأم وابنتها «رشا جبريل»، ومصروفهم اليومي. كانت تخشى شيئًا واحدًا، وهو أن يطلب «فتح الله» يدها للزواج، كما لَمَّحت بعض النسوة في الجيران، لأنها كانت سترفضه رفضًا باتًّا، بل وتمنعه من دخول بيتها.

التوأم مندمجتان في اللعب مع «فراج» الذي يصغرهما بعامين، أمَّا «السر» فكعادته عندما يلتقي برشا يملآن البيت ضجيجًا وضحكًا وصخبًا، لا مبرِّر له في الغالب غير التواصل العميق الخشن، وعندما كانا أصغر سنًّا، كانا يتعاركان بالأيدي

ويتصارعان كصبيين.

لعبا »البلي« و»بنات بنات« و»دس دس« وكلَّ ألعاب الصبا، كانت طفولتهما مرحةً وثريَّة، نمَوَا كأخوين شقيقين، وظلَّا كذلك إلى اليوم، وقد ساهم الفقر ووضع الأسرتين المتقارب اقتصاديًّا في تقوية الروابط الإنسانية بينهما. أعجبتها فكرة أن يترك «السر» العمل في القوات النظامية، ولكنها أيضًا كانت تقول له إنه أن يعمل في الأمن شخصٌ مثاليٌّ وذو خلق، خيرٌ من أن يعمل به شخصٌ مختلٌّ نفسيًّا وبوعي زائف. كلُّ ما يهمُّ «السر» أنه يريد أن يكمل دراسته ويتخرَّج في الجامعة مثل أنداده الذين تخرج بعضهم ويعملون، وبعضهم ما زال في الفصول الدراسية الأخيرة.

كان الديك الذي لم يعُدْ يبيض بيضًا حجريًّا، يرعى الدجاجات قريبًا جدًّا من مجلس «رشا» و«السر». كانا يحتسيان القهوة. «السر» أيضًا يحبُّ الغناء، وأكَّد لها أنه عندما يعود للدراسة، سينضمُّ لـ«جماعة تصوُّف». قالت له ضاحكة:

– وكورال الجبهة الديمقراطية؟

قال مبتسمًا:

– أنا مؤتمر وطني.

هتفت مندهشة:

– معقولة؟!

قال وهو يخرج بطاقةً من جيبه:

– شوفي البطاقة دي، مش المؤتمر الوطني؟

– لا يهم البطاقة، المهم أنت.

كانت تعي أنه يريد أن يقول لها: لا يوجد شخص »مؤتمر وطني«، فالمؤتمر الوطني ليس فكرًا سياسيًّا وليس دينًا وليس طريقة تفكير أو أسلوب حياة، فهو مجرَّد وظيفة لا أكثر، وظيفة سياسية مؤقتة في الغالب، أيْ ثلة تنتظم مصلحةً ما، أكثر ممَّا تجمعها فكرة، ووقتما انفضَّت المصلحة انفضُّوا.

حدَّثها قليلًا جدًّا عن عمله الأخير بجبال النوبة، وكيف إنه شاهد الموت للمرة الأولى في حياته، كيف تختلط دماء الرجال والنساء والأطفال بدماء الجنود والدبابات والأشجار والطين والحجارة، وأقسم لها إنه سمع الجبل يبكي:

»قد لا تصدِّقين ذلك، ولكنه بكى وسمعه كلُّ المقاتلين والضحايا الذين كانوا يحتمون في كهوفه، قبل أن تحيلهم القذائف إلى رماد.

قرَّر القادة إنه لا يمكنهم السيطرة على الميدان، ما لم يتمكَّنوا من السيطرة المطلقة على الجبل، وهو طوْدٌ شاهقٌ يقبع وسط ميدان المعركة، يبعد عن مدينة «كادُقلي» حوالي ١٠٠ كيلومتر أو أقلَّ جنوبًا، تحيط به قريتان كبيرتان مزدحمتان بالسكان، يقيم أهل

القريتين في أيام السلم بالسفح، ويزرعون ويرعون ماشيتهم في الأودية التي تحيط به، أمَّا أيام الحرب فإنهم يسكنون في كهوفٍ عميقةٍ في الجبل، ويستطيعون أن يقيموا هنالكَ أيامًا وشهورًا، فهم يحتفظون بالماء والطعام المجفَّف، ولا يخشون الظلام والثعابين.

الرجال يحملون السلاح ويحاربون الحكومة وهي عدوُّهم الوحيد والدائم، إنهم متمرِّدون بالسليقة، ودائمًا ما يشتكون من ظلم السلطة المركزية لهم، ويتبعون أوَّل من يسعى لقتالها. عداءٌ موروثٌ منذ السلطنة الزرقاء التي كانت تقوم بغزوات البشر لاستخدامهم كرقيقٍ وجنود، وأيضًا كموردٍ لدخل الدولة، حيث يتمُّ تصديرهم للعالم الخارجي، وبيع البقية في الأسواق المحلية.

حرق الجنود القريتين، حتى لا يعود إليهما المتمردون. ويفضِّل القادة أن تُرحَّل القريتان تخوم «كادُقلي»، حتى تسهل إدارتهما أمنيًّا.

أنا ما حرقت أيَّ بيت! كانت مهمَّتي أن يبقى قائدي المباشر حيًّا أطول وقت ممكن. لستُ حارسًا شخصيًّا، ولكن عليَّ أن أكتشف مبكرًا أيَّ تآمرٍ في قواتنا نفسها ضدَّه، هنالكَ دائمًا أفرادٌ مندسُّون أو أفرادٌ يسهل شراؤهم، يقومون بتنفيذ خططٍ تخصُّ آخرين، أو تخصُّهم هم أنفسهم. أنتِ تتفقين معي في ذلك؟

طُلِبَ منهم الانسحاب الفوريُّ إلى مسافةٍ لا تقلُّ عن ميلٍ كاملٍ من الجبل، في اتجاه الريح. بالتالي، توقَّع الجميع أمرًا جللًا،

ثمَّ شاهدوا طائرات «الأنتنوف» تحلِّق عاليًا. ثلاث طائرات تبدو في أحجام الصقور، أخذت تُسقِط على الجبل أحمالًا ثقيلة، كانت مثل حاويات الماء الضخمة، تتقلَّب في الهواء لثوانٍ معدودات، ثمَّ تهوي على الجبل مصدرةً دويًّا مرعبًا، لتتحوَّل إلى كتلةٍ من الجحيم. ولكن الغريب في هذه القذائف، أنها تسيل مثل حمم البركان لتتسرَّب إلى عمق الكهوف، بين الحجارة. وعرفتُ فيما بعد أن جمهوريةً آسيويةً شعبيةً قامت بصناعتها خصِّيصى لحرب الجبال في السودان والدويلات الصديقة لها ذات البيئة القتالية المشابهة. إنها تتوغَّل وتتسرَّب عبر التشقُّقات التي بالجبل، وعبر فتحات التهوية، لتعانق أجساد المختبئين تحتها وتحرقهم حريقًا تامًّا. تكفي شرارة واحدة منها لقتل إنسان، حيث إن كلَّ قطرة منها تتسع لتشمل الجسَدَ كلَّه، وتنتقل لكلِّ ما يلتصق به من جمادٍ أو نبات أو حيوان. عندما سقطت القذائف الثلاث وأصبح الجبل الكبير مثل طوْد النار، وسالت الحمم على جانبية فيضانًا من اللهب؛ عندها سمعنا نحيبه، كان الجبل يبكي مثل الطفل، فأصابنا الرعب والحَزَنُ العميقان.»

قرَّر «السر فتح الله» في ذلكَ اليوم بصورة قاطعة ونهائية أن يرجع إلى البيت وإلى الدراسة، وألَّا يعود للخدمة العسكرية مطلقًا، فهو في الأصل لم يدخلها برغبته، كانت بالنسبة إليه مجرَّد

وظيفة لا أكثر.

قال لها: «يحتاج الناس هناك إلى قرن كامل عشان يعوضوا خسارتهم البشرية. ماتوا زي الجراد.»

صاح الديكُ صيحتين متتاليتين، ضرب بجناحيه الهواء، وسحب الدجاجات بعيدًا نحو القفص، وأخذ يغازلهن ويعتليهن واحدةً تلو الأخرى. كانت «رشا» تستمع إليه بكلِّ حواسِّها، بينما تمضي الأحداث في مخيلتها مثل فيلم رعبٍ تقليدي. رأت الجبل يذوب، وشاهدت البشر يتحوَّلون إلى رمادٍ في ثوانٍ ولما يكملوا صرختهم بعد، ورأت «السر» يفغر فاه مندهشًا، وسألت نفسها سؤالًا صعبًا: «هل يبتسم الطيار وهو يلقي قذائفه بصورةٍ ناجحةٍ وتصويبٍ جيِّد، هل يحسُّ بلذة النصر؛ أقصد فرحة أداء عملٍ بصورةٍ دقيقة؟ إذا أتيحت له فرصة أن يرى الضحايا وهم يشوون، هل سيقوم بطلعةٍ أخرى ضدَّ أهدافٍ أخرى؟ هل حقيقةٌ أن بعض الطيارين تغمرهم نشوةٌ طاغيةٌ عندما يصيبون أهدافهم، تصل لدرجة الإيراق؟ هل إن البعض سيتفرَّغون قرفًا؟»

كان يمتصُّ دخان سيجارة الـ«برنجي»، يملأ به رئتيه ثمَّ يطلقه في الهواء. لاحظت «رشا» أنه كان قلقًا جدًّا، كأنما قام بفعلٍ يندم عليه الآن، ولم ترَ من اللائق أن تسأله: هل قتلتَ أشخاصًا؟

قال لها، إنه يفضل دراسة الآداب، يريد أن يصبح كاتبًا،

ويكفي أن يسجِّل قصَّة حياته في كتابٍ ليصبح أشهر من «إحسان عبد القدوس»، وكان هذا هو الكاتب الوحيد الذي قرأ له كتابين، وهما: «في بيتنا رجل» و«شفتاه». قرأهما كواجبٍ وظيفيٍّ في مدرسة الاستخبارات، لم يفهم إلى الآن ما هو الهدف وراء التأكيد على هذين الكتابين بالذات، ولكنهم قالوا له: «قد تحتاج أن تتبادل بعض الحوارات مع أنصاف المثقَّفين.»

بعد الغداء استأذنها في الانصراف، طلبت «رؤى» أن يتركَ لهما «فراج»، إلا إنه قال إنه مشتاقٌ إليه، وإنه مضى زمن طويل لم يتحدَّثا فيه أحدهما للآخر، وسيحضره لهما الأسبوع القادم، سيأخذهما للحديقة أيضًا. ولأن «فراج» الصغير أُعجِب بالبيضة الحجرية، قامت «رؤى» بإهدائها له، أخذها وهو يكاد يطير من الفرح، أخفاها في جيب سرواله، وخرجا.

الشمس ساخنة. على الرغم من توفُّر المال لديه إلا إنهما استقلَّا المواصلات العامَّة، الحافلة الكبيرة التي كُتب عليها بخطٍّ جميل: «غباء-الخرطوم». لاحظ أن «قُباء» مكتوبة بحرف الغين.

أجلس أخاه الصغير في الكرسيِّ الوحيد الفارغ، وظلَّ هو واقفًا مع رجلين آخرين، بينما أخذا يسألانه عن أسرته وأبيه، ولِمَ لَمْ يستغل بيتهم في «زقلونا»؛ أيْ أن يؤجِّره؟ أو بإمكانه أن يحوِّله إلى بيت للدواجن، فالدجاج وبيضه هذه الأيام أصبح البديل الأساسيَّ

للحوم بعدما ارتفعت أسعارها وصارت: «نار الله الموقدة.»

كان يفهم تمامًا التلميحات التي تتخفَّى وراء كلِّ جملة يقولانها، فهو ذو الحس الأمني وذو الدربة المتقدِّمة في قراءة النيات الحسنة، وخاصَّةً السيئة منها، وهو أيضًا يعرف كيف يضبط نفسه ويردُّ في الوقت المناسب، وقد لا يردُّ إطلاقًا ويدَّعي عدم الفهم والبله، عندما توقَّفت الحافلة في أوَّل محطة ترجَّلا، أوقف عربة تاكسي، صاح بصوتٍ مبحوح: «كافوري!»

كان «فراج» قد ألصق وجهه بالنافذة يتفرَّج على المارَّة والمشاهد التي تمرُّ أمامه ماضيةً بسرعةٍ للوراء، عندما مرَّت الروضة التي كانت جميلةً في الماضي أمامه، أحسَّ بحنينٍ إلى أصدقائه الصغار وصديقاته، تذكَّر المعلمة «ماما أسماء»، وكيف كانت تفضُّ المشاجرات الصغيرة بينه وبين الصبية الآخرين، حيث إنه كان كثير الشجار، وعلى الرغم من صغر حجمه، إلا إنه كان يتفوَّق على خصومه، بسرعة حركته وإصراره على أن ينتصر عليهم. افتقد هذه المشاجرات في روضته الجديدة، كلُّ الأطفال الذين بها منعَّمون وهادئون وطيِّبون لا يميلون للمشاجرة، يقضون وقتهم في اللعب الإلكتروني ومشاهدة أفلام الأطفال القصيرة، هو نفسه أعجب كثيرًا بـ«توم آند جيري» وشخصية «ساندي بِل».

تستطيع أن تميِّز نقرات أصابع «فراج» على باب غرفتها، فهي

واهنةٌ وتبدو بعيدةً ولكنها متواصلة، حيث إنه لا يكفُّ عن الطرق ما لم تفتح له باب الغرفة، وإذا لم تفعل فإنها ستسمع صراخه وبكاءه خلف الباب، وهذا يؤلمها كثيرًا، فتلتقطه للداخل حاضنةً إيَّاه في صدرها، وكان «فراج» هو الوحيد الذي يستطيع أن يخترق عزلتها غصبًا عنها، لذا عندما سمعت نقراته الأولى، طلبت من «أحمد زكي» أن يدخل إلى الحمام، إلى أن تقوم بالتخلُّص من ذلكَ الجنيِّ الذي يقف الآن خلف الباب. عندما فتحت الباب قفز مباشرةً على صدرها شبه العاري، وأخذ يحكي لها عن التوأم، وأراها هديته منهما، وهي البيضة الحجرية، وقال لها:

- أنا ح أنوم معك الليلة.

لم يخطر ببالها إطلاقًا أن «فراج» سيقضي الليلة في غرفتها. على الرغم من أن لديه غرفةً تخصُّه، إلا إن «فراج» اعتاد على النوم في غرفة والديه وفي حضن آمِّه بالذات. قفز من صدرها للسرير، جلس القرفصاء في وسطه على علبة سجائر «أحمد زكي»، تحسَّسها بيديه ثمَّ رفعها مقدِّمًا إيَّاها إلى أخته سائلًا:

- بتشربي سجاير؟

أخذتها منه، ووضعتها داخل دولاب الملابس:

- لأ، السجاير حرام، لقيتها واقعة في الطريق وجبتها معاي.

قال لها وهو يمسك بطنه:

– عايز أمشي الحمام!

ادعت أنها لم تسمعه، ولكنه نهض متجهًا إلى الحمام، فحملته وخرجت به نحو حجرته، أضاءت مصابيحها، وأدخلته الحمام، أغلقته عليه وانتظرته على سريره.

قضى زهاء ربع الساعة بالحمام، عندما خرج طلبت منه أن ينام قربها في سريره، رضي بعد لأي، كان يرغب بشدَّةٍ في النوم معها بحجرتها، خلعت ملابسه، ألبسته ملابس النوم، سألته ما إذا كان جائعًا، ولكنه طلب عصيرًا فقط، شربه وهو يتثاءب، ضَّمته إلى صدرها، وعلى إيقاع أنفاسها، نام.

حلم بالديك يبيض في جيبه، ثمَّ يصيح صيحاتٍ مرعبات، يدور حول نفسه يضرب بجناحيه الهواء، ثمَّ يهمس له في أذنه بكلماتٍ غير مفهومات، فاستيقظ خائفًا، وجد اللمبات مضاءة، والفراش تحته باردًا، التلفزيون الصغير يعرض فيلم كرتون، البيضة الحجرية تقبع على المنضدة أمامه، حيث وضعتها أخته «ميرم» عندما أخرجتها من جيبه وهي تخلع ملابسه لتضع أخرى مكانها وهي ملابس النوم. الباب مغلق، لكنه لم يعثر على أحضان أخته الدافئة، ولو أن عطرها ما زال يغمر المكان كلَّه، اكتفى بأن يحتمي بحضن الدبِّ القطنيِّ الكبير، دميته المفضلة، أغمض عينيه ونام نومًا عميقًا.

كانت تدخِّن السجائر، ولكن «أحمد» لا يدري شيئًا عن ذلك، ولديها شهيةٌ عظيمةٌ للتدخين وهي ترى «أحمد» ينفخ الدخان الأبيض في الهواء، فأخذت تناوره وتقيس مدى استجابته لفكرة أن تدخِّن السجائر هي أيضًا، بدأت بملاحظة أن دخان السجائر يثير شهيتها وماذا لو حاولته مرة، ولكن كان رأي «أحمد» أن السجائر ضارَّة بالصحة، وخاصَّةً صحة النساء، لأنه يؤثر على الجنين، «ولكن لا بأس جربي مرة».

عندما امتصَّت الدخان في النفس الأول، لم تستطع أن تقاوم رغبة ابتلاعه كاملًا، تمامًا مثل المحترفين وقدامى المدخنين، وقد لاحظ «أحمد زكي» ذلك، ولكنها استدركت الأمر بأن افتعلت الكحة والاختناق بالدخان وهربت إلى المرحاض، ولكن بدلًا من أن ترمي السيجارة على الأرض أو المِطْفَأة، هربت بها، أغلقت الباب خلفها وأخذت تدخِّن بشراهةٍ إلى أن أتت عليها تمامًا، أسقطت كعبها في المرحاض، كحَّت بشدة، خرجت وألقت بجسدها العاري في حضنه شبه مغمى عليها.

– كويس في المرة القادمة ما حَ تتعبي كتير!

قرَّرا أن يتزوَّجا فورًا، عليه أن يُرسل والدته ووالده إلى والديها في يوم الاثنين، وأخبرته للمرة الأولى بأن أباها قد خصَّص لها الشقة العليا إذا تزوَّجت، والسفلى لأخيها «السر»، ولكن شرطه

ألا يستغلاها إلا بعد أن يتزوَّجا، «سنحتفظ ببيت «أم درمان» الصحراوي، وربما نؤجِّره للبعض».

للمرة الأولى في حياتهما يبقيان معًا، في سريرٍ واحدٍ الليل كلَّه، كانت تجربةً غريبةً وجميلةً وممتعةً لكليهما، ولو أن أسئلته حول جسدها كانت تتعاظم. لم يستطيعا النوم مبكرًا، تحدَّثا في مواضيع شتى متنوعة، شاهدا فيلمًا روائيًّا عن سجينةٍ تنتصر على عُزلتها بالاستمناء الذاتي. أعجبه الفيلم وأعجبها هي للمرة الألف، قالت له إنها تشبه تلكَ السجينة، ولكنها لم تخبره كيف كانت تقلِّدها في لياليها العصيبة في محبسها الإجباريِّ في بيت أبيها الثريِّ هذا.

حدَّثها عن عمله في التنمية، وعن تعقيدات العمل المضني، ولكنه أيضًا قصَّ لها عن صديقه الروائي «أدومة»، وعندما سمعت الاسم هتفت قائلة: «دا حبيب رشا جبريل؟»

حدَّثته عنه «رشا» كثيرًا في اللحظات القليلة التي يتصافيان فيها، وهي لحظاتٌ كثيرةٌ جدًّا، وأخبرتها بأنها تحبُّه، ولكنها أيضًا اعترفت لها بأنه من نوع الرجال الذي لا ينفع كزوج، لأن النساء اللائي حوله يجعلن منه حالةً أكثر منه إنسانًا، وهي لا تريد أن ترتبط بقافلةٍ من البشر، تريد رجلًا لها وحدَها، وهذا لا يتوفَّر في «أدومة»، ولكن ما يعجبها فيه هو ما يعجب الأخريات: أن تكون لهنَّ علاقة مع شخص مختلف، ولو كان اختلافًا وقحًا. إذا لم يكن

هنالكَ شخصان يحملان هذا الاسم الغريب، فقد يكون هو ذات «أدومة» الذي يتحدَّث عنه الآن.

هي لا تعرف شيئًا عن كتاباته، ولم تسمع بها، كما إنها لا تحبُّ القراءة، تحبُّ مشاهدة الأفلام الروائية الطويلة، وأيضًا أفلام الآكشن، وبعض الأفلام العربية والمسلسلات، فثقافتها ثقافة مشاهَدةٍ واستماع، أمَّا القراءة، فهي أمرٌ ثقيلٌ لا تحبِّذه ولا تميل إليه، وليست لديها المقدرة البصرية الكبيرة في متابعة الأسطر والكلمات الصغيرة التي تُرسم عليها، هي مغرمةٌ بالصورة والصوت وهذان لا يتوفَّران في الكتاب.

كان هو يعلم ذلك، ولكنه طلب منها أن تستمع إليه وهو يقرأ لها نصًّا قصيرًا جدًّا كتبه هذا الرجل، وهو بعنوان «صلاة الجسَد».

كان الليل قصيرًا جدًّا، استيقظا كلَّ ثانية منه، عاشا كلَّ لحظة فيه، أحبَّا بعضهما البعض، خطَّطا لمستقبلهما، أنشآ أسماءً لابنتهما، أطلقا عليها «سلام»، وإذا كان ذكرًا فهما سيسمِّيانه أيضًا «سلام»، هل بالإمكان أن يضعاه الآن؟

كانت تجاربها قليلةً جدًّا في الحياة، لا تتعدَّى الفقر والمدرسة و«أحمد زكي»، كلُّ الخباثات الصغيرة التي تقوم بها، والشيطنات المتفرِّقة، لا تقارن بشيءٍ أمام معرفته وثقافته وإلمامه بنواحي الحياة. كانت تحبُّ أن تستمع إليه وهو يتحدَّث، وهو يدخِّن، وهو يقبِّلها،

وهو يحملها على ساعديه ويدور بها في الحجرة، وهو يضمُّها إلى صدره فتستنشق عبق جسده المشحون بالنكوتين وعطره الخاص. كانت تستجيب لغزله بمحبَّةٍ ورغبةٍ وجنونٍ وشبق، وعندما تبلغ ذروتها تشعر أن العالم كلَّه ملكها وإنها سلطانة الجنِّ والإنس والملائكة والجماد والنبات والحيوان، وكلِّ ما ليس له نوعٌ وجنسٌ وفصيلةٌ واسمٌ وصفة. هي مستعدة أن تضحِّي بكلِّ ما في الكون من أجل تلكَ اللحظة الفريدة، اللحظة التي أعانتها في الماضي في الانتصار على الفقر والفاقة، وحرَّرتها من سجن الوقت والمكان.

الْبَيْضَةُ الْحَجَرِيَّة

قال له وهو يضربها على زجاج المنضدة: «دي بيضة حجر، أدوني ليها التومات.» فقفز الأب مذعورًا من مرقده كالملسوع، وأخذ يحملق في البيضة وكأنها عفريتٌ يخرج من قمقمه الآن، وبدون أن يشعر صرخ بأعلى صوته في ابنه بأن يعيد البيضة إلى حيث وجدها، أن يعيدها للتوأم وألا يقربها مرةً أخرى. وقف الطفل مندهشًا، ممسكًا بالبيضة في يده ولا يدري ماذا يفعل بها، ولا يدري لماذا تثير الرعب والخوف في والديه، وهي ليست سوى بيضةٍ حجريةٍ أهدتها إليه التوأم.

عندما دخلا الشقة، قابلهما «فراج» فرحًا مادًّا هديته ليريها لأمه، لا يدري لماذا دخلها كلُّ هذا الفزع من البيضة التي دفعها «فراج» دفعًا في كفِّها، لدرجة أنها رمتها بعيدًا عن يدها وكأنها جمرةٌ ملتهبة، لكنها تراجعت تدريجيًّا عندما رأت الدهشة في وجه «فراج» وأخته اللذين كانا في استقبالها عند الباب. لقد خرج «السر» مبكرًا إلى القيادة العامَّة لترتيب أمر حقوق ما بعد الخدمة وشهادات الخبرة وإخلاء الطرف، أبدت البنت ملحوظةً لأمِّها بأن تلكَ ليست سوى بيضةٍ حجرية، لا أكثر، فلِمَ الخوف؟ قالت الأمُّ بصوت مبحوح: «ما كنت أظنها تقيلة، تخيلتها بيضة عادية، من وين جبتها؟ من التومات مش كدا!»

كان «فتح الله» مشغولًا بالتخلُّص من جلبابيه وعمامته الثقيلة، حيث إنه لم يعتد على لبس جلبابين وعمامة، لأنه لم يمتلك سعرها في الماضي ولا يحبُّها الآن، يحسُّ بها حملًا ثقيلًا على رأسه وجسده لا ضرورة له، ولكن البروتوكولات الاجتماعية تحتِّم عليه لبسها، بل لبس أكبرها حجمًا وأكثرها ليونة؛ ليبدو مثل رجلٍ ثريٍّ يُوضع له ألف حساب وحساب. تدرَّب على لبس العمامة بواسطة أخي

زوجته الجنرال.

انتزعها من رأسه انتزاعًا، تخلَّص أيضًا من الجلباب الأعلى، وبقي بالجلباب القطنيِّ الداخليِّ القصير، نفض رجليه نفضتين سريعتين أطارتا فردتي المركوب بعيدًا، لتسقط واحدة منهما على الكونسول وتكاد أن تصطدم بمرآته المصقولة غالية الثمن، والأخرى حلَّقت في الهواء قليلًا واستقرَّت على الكنبة الكبيرة المستطيلة التي تقبع مواجهةً لمقعده.

نفخ الهواء في كسل، صاح أنه يريد ماءً باردًا من الزير، وهو قلةٌ فخاريةٌ ضخمةٌ يحتفظون بها في حجرةٍ قصيَّةٍ بعيدًا عن أعين الزائرين المترفين من الجيران، وأنه يريد أيضًا كيس صعوطه وسفنجته.

بدا واضحًا أنه ليس بمزاج طيب. اصطحبته الأمُّ «نصرة» إلى غرفته وأغلقت الباب خلفهما. قال له الشيخ بعد أن تفحَّصه جيِّدًا واستمع إلى قصته مع الديك، ومغامراته في التعدين العشوائي للذهب وسرقة ممتلكات الموتى من النوبة الأقدمين (طبعًا كان «فتح الله» وزوجته حريصين ألَّا يحكيا للشيخ قصة البيض الذهبيِّ والثروات التي جنياها منه) إن الديك هو الشيطان حارس الذهب.

وأكَّد لهما أن هذا الديك لن يفارقه ما لم يتم التخلُّص من

الخاتمين بالطريقة السليمة، وهي أن يحضرهما للشيخ، الذي سيقوم بوضع بعض التمائم عليهما، ثمَّ يُرمَيان في النيل في ليلةٍ مظلمةٍ أو أن يعيدهما إلى القبر النوبيِّ المسحور، ثمَّ على «فتح الله» أن يذبح ثورًا أسودَ أو أبيضَ شديد البياض كرامةً وفديةً لنفسه، وأن يحدث هذا في أوَّل يوم من الشهر القمري. أوضحا له أن الخاتمين موجودان في بيت أُسرة المرحوم ولا يمكنهما الحصول عليهما، كما إن الأسرة لا ترغب في بيعهما في المدى القريب، إنهم يحتفظون بهما للذكرى. ولكن الشيخ أكَّد على أن علاجه من الديك حارس الذهب يكمن في تلكَ الطريقة، ولا بدائل لها حسب علمه ومعرفته وفهمه للجنِّ والإنس.

لحق «فراج» بوالديه في الحجرة، كان مسرورًا جدًّا بعودة والديه، يحاول شتى الحيل ليعرف أين كانا بالضبط ولماذا لم يأخذاه معهما، ولكن أمَّه تبطل محاولته بالعبث في شعره وإغراقه بالأسئلة التقليدية: ماذا أُطعِمَ في غيابها، وكيف قضى ليلته، وهل تحدَّث كثيرًا مع أخيه «السر»، ولِمَ لَمْ ينَمْ في حجرة «ميرم»؟ أمَّا والده فكان يحاول جهده أن يمتثل للنوم، ولا يجاوبه بغير همهماتٍ قصيرةٍ لا معنى لها ولا فائدة تُرجى من ورائها.

كان «فتح الله» يدير حوارًا صامتًا مع الديك، يرجوه أن يتركه لكي ينام، ولو قليلًا، وإنه سيفعل كلَّ ما يأمره به، فقط إن يتركه

ينام ولو لدقائق قلية. كان الديك يقبع على جبهته، يضع كلَّ قائمةٍ من قائمتيه على عينٍ من عيني «فتح الله فراج»، وبمخالبه يباعد بين جفني العين، وبين فينةٍ وأخرى ينقر على أنفه، ويصيح.

عندما يئس «فراج» الصغير من جذب انتباه والديه إليه، أخرج البيضة من جيبه وخاطب والده:

- شوف عندي شنو؟

وبزاوية عينه اليمني نظر الأب للبيضة، وحاول أن يغمض عينيه مرةً أخرى وهو يقول له بصوتٍ ناعس:

- لا تلعب بالبيضة، كلها وخلص.

قال له وهو يضربها على زجاج المنضدة: «دي بيضة حجر، أدوني ليها التومات.» فقفز الأب مذعورًا من مرقده كالملسوع، وأخذ يحملق في البيضة وكأنها عفريتٌ يخرج من قمقمه الآن، وبدون أن يشعر صرخ بأعلى صوته في ابنه بأن يعيد البيضة إلى حيث وجدها، أن يعيدها للتوأم وألا يقربها مرةً أخرى. وقف الطفل مندهشًا، ممسكًا بالبيضة في يده ولا يدري ماذا يفعل بها، ولا يدري لماذا تثير الرعب والخوف في والديه، وهي ليست سوى بيضةٍ حجريةٍ أهدتها إليه التوأم.

لمز إليه الديك بعينٍ يُسرى ماكرةٍ وغمز، وعلى منقاره ابتسامةٌ مخيفة، قائلًا: «جبااااان.» وضحك وهو يضرب بجناحيه الهواء،

فيتطاير ريشه ليملأ الفراغ كله، لدرجة أن حجب عنه رؤية ابنه المندهش، وزوجته التي تحاول أن تشرِح للطفل المسكين أن والده عنده صداع وأنه مرهق من السفر لذا كان ردُّه بهذه الصورة، «فلنخرج للمضيفة أو غرفتك ونتركه ينام قليلًا.»

جلست «ميرم» قربها، بل التصقت بها كثيرًا، كانت تحسُّ القلق الذي تعاني منه والدتها، وتشعر بأن هنالكَ سرًّا مؤلمًا يأكل أحشاءها، ولكنها أيضًا تريد لحياتها أن تمضي، وتريد أن تبدأ مشوارها في عشِّ الزوجية بأسرع ما يمكن، والأفضل الآن، فمشاكل أمِّها وأبيها لا نهاية لها، منذ أن خلقهما الله قلقين ومهمومين ومشغولين بأمور الدنيا، هذا هو حالهما أثرياء كانوا أم فقراء، لا فرق لا فرق، قالت لها:

- «أحمد» ح يرسل أمه يوم الاثنين.

نظرت إليها أمُّها وكأنها لم تسمع شيئًا، كانت مقلتاها فارغتين من أيِّ معنى، حولهما هالةٌ سوداء، عندما أفرجت عن شفتيها لتقول شيئًا، كرَّرت لها «ميرم» الجملة، وهي تحملق في وجهها لترى ردَّة فعلها، قالت لها بصورة حادَّة ونهائية:

- ما في عرس يا «ميرم»، وكفاية النحنا فِيهُ الآن.

قالت لها مستفسرة:

- شنو النحنا فيهُ يا أمي؟

قالت لها بصوتٍ مبحوح:

- أبوك مريض!

قالت بخوف:

- مَالُهُ؟

قالت لها الأمُّ متجنبةً عيني ابنتها اللتين تخترقانها كالحربة:

- أبوك ما بيقدر ينوم، الليل كله يفضل صاحي. وتجيه هلاويس!

قالت في براءة:

- كويس يمشي الدكتور!

قالت الأمُّ وهي تعبث بشعر «فراج» الذي يدير البيضة في كفه:

- مرضُهُ ما مرض دكاترة، مرض «فكية».

قالت «ميرم» وهي تنهض من قرب أمِّها:

- ما في مرض اسمه مرض دكاترة ومرض «فكية»، المرض مرض، والحمد لله مرضه خفيف، أحسن يمشي الدكتور، يوم الأحد تحضر أم أحمد وأبوه.

قالت الأمُّ غاضبة:

- الزواج بعد الجامعة يا «ميرم»، ونحنا اتفقنا مش كدا؟

قالت «ميرم» مستنكرة:

- اتفقت مع منو؟ معاي أنا؟ لأ!

ولم تنتظر إجابة أو تعليق والدتها، دخلت حجرتها. أغلقت الباب خلفها بصوتٍ مسموع بل داوٍ، خلعت ملابسها. دخلت الحمام. جلست على المقعد. أخرجت سجائر «برنجي لايت» ذات العلبة الزرقاء من خلف المقعد، أشعلتها وأخذت تمتصُّ الدخان في قلقٍ بينما كانت أدمعها تسيل على خدَّيها، عقلها يعمل مثل ألف ساعة لها ألف بندول تدقُّ في ألف زمنٍ مختلف.

الأُمُّ وَالابْن

لم تقل له إن أخته العصامية الآن حُبلى وفي شهرها الأول أو الثاني أو أسابيعها الأولى، أو يومها الأول، المهم أنها حُبلى. لن يكذب حسُّها أبدًا. لم تقل له أيضًا إن «أحمد» ابن خالتها الهُمام الآن في غرفتها، في هذه اللحظة التي يتحدَّثان فيها، دخل عن طريق باب الشرفة المرفقة بغرفتها، شاهدت صورته منعكسةً على نافذة هذه الغرفة الزجاجية، وهو يعبُر الحديقة في سرعة الأرنب البري، بينما كانا يغطَّان في نوم عميقٍ هو وأخوه، ولم تقل له إن أخته تتفوَّق على الشيطان في حيلتها ومكرها؛ وإن الشيطان يستقي منها معرفته.

عندما خرج «السر» في صحبة «فراج» إلى السوق، دخلت إلى حجرة المنامة، وجدت «فتح الله» ما زال يتقلَّب ويتحدَّث إلى ديكٍ مجهولٍ لا تراه، رقدت مواجهةً له وأخذت تعمل بأصابعها على جبهته، تدلِّكها برقَّةٍ وهي تقرأ سورًا من القرآن بدون ترتيب، بدون إعدادٍ مُسبق، كلُّ ما يخطر في بالها تقرأه بخشوعٍ وتنغيم، حانيةً رأسها في وجهه، وقد صمت عن التحدُّث وبدأ يتنفَّس في هدوء، ويتأوَّه أيضًا بهدوءٍ وصوتٍ واهن، ثمَّ علا شخيره، قبَّلته في وجهه، احتضنته ونامت هي الأخرى.

كانت الأمُّ «نصرة» قد أعدَّت خطةً لإعادة ما يمكن إعادته من نقودٍ إلى أسرة «جبريل»، من أرباح استثمار المال في شراء عربات الجيش الخردة وبيعها بعد صيانتها وتحديثها وتحقيق أرباحٍ كبيرة، ذلكَ المشروع الذي ازدهر وأثمر وأصبح يدرُّ نقودًا طيبةً مباركة. وهي تظنُّ أن إعادة المال قد تقلِّل من مهاجمة الجنِّ الحارس للذهب لزوجها، على الرغم من أن زوجها أكَّد لها إنه بعد اتفاقه مع الديك أمام الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب»، أصبح المال كلُّه خاصَّته، وليست هنالكَ أية علاقة للذهب بأسرة

صديقه. ولكن لا بأس أن يساعدوهم في الله، وبحقِّ الصداقة والعشرة القديمة. وإنه قبل بالاتفاق وفضَّل الموت على الرجوع لمربَّع الفقر، وهي تفهم ذلكَ جيِّدًا، وتفهم ماذا يعني الفقر وإنها تكرهه. لذا قرَّرت أن تعالج مسألة تأنيب ضميرها هي بالذات بطريقةٍ أخرى مقبولة: أن تخصِّص كلَّ أرباح الشراكة بين زوجها وأخيها لمصلحة أسرة «جبريل»، وأن تمضي في إكمال بيت أسرة «جبريل» بـ«السلمة»، والأبعد من ذلكَ أنها ستضمُّ أسرة «جبريل» إلى أسرتها بالمصاهرة، ففي رأيها لا توجد بنت تصلح لابنها «السر» كزوجة خير من «رشا جبريل»؛ فهي متعلِّمة وذكية ومهذبة، وإنهم يعرفونها منذ ميلادها في «زقلونا»، يفهمون طبائعها وخيرها وشرها، والمثل العامِّيُّ يقول: «جنٌّ تعرفُهُ خيرْ مِن جنٍّ جديدْ.»

وكم تمنَّت أن تصبح ابنتها «ميرم» نسخةً من «رشا جبريل» في المثابرة والجمال، بل في كلِّ شيء، ما عدا أن تصبح شيوعية، نعم، يعيبها فقط أنها شيوعية. ويُقال إنها لا تصلي ولا تصوم، نعم ابنتها «ميرم» أيضًا لا تصلي ولا تصوم ولكنها ليست كافرة. وإن «رشا» تغنِّي الأغاني التي لا تعجب الحكومة، وقد تُعْتَقل في أيِّ وقت من الأوقات. ولكن الأمَّ تعترف بالجمال الآخذ بالألباب لـ«رشا» والأدب الجمِّ والعلم الغزير و«بشرتها الناعمة»، وهي

بالطبع تقصد لون بشرتها الأسود اللامع كالزيت.

ولدها لم ينَلْ حظًّا كبيرًا من التعليم، ولكنه الآن يعود للدراسة وسيتخرَّج طبيبًا أو مهندسًا، وهو ذكيٌّ ووسيمٌ ومحترم، ولا يُوجد ابنٌ أبرُّ منه بوالديه في العالم كله، كما إن فرق العمر بينهما ليس شاسعًا، فهو يكبرها بخمس أعوام ليس إلَّا، وهي تعرف كيف تقنعه بالزواج من «رشا»، ولا تظنُّ أن «رشا» سترفضه، هذا إذا لم يكونا متفاهمين في هذا الشأن، ويخططان للزواج مثلما تفعل ابنتها و«أحمد زكي»، إلا إنها حالما أبعدت الصورة عن مخيلتها، ظللتها سحابة من الحزن.

ابنتها «ميرم» تمثِّل لها مصدر حزنٍ وغمٍّ شديدين، وتحسُّ بأنها دائمًا ما تفشل في التعامل معها، فهي ذات مزاجٍ منحرفٍ وغير نمطي، منذ طفولتها، بل منذ ولادتها، حيث إنها كادت أن تودي بحياة أمِّها، عندما انقلبت في الرحم في الدقائق الأخيرة من الولادة، واندفعت بمؤخرتها للخارج بدلًا من رأسها، ممَّا جعل القابلة تصرخ في جنونٍ بلغتها النوبية القديمة: «وي بيووو.»

لولا وجود المركز الصحِّيِّ قريبًا من الحي، ووجود «فتح الله» و«جبريل» وعربة الكارو التي يجرُّها الحمار القويُّ في ذلكَ اليوم، لحدث ما لا تُحمد عقباه. «نصرة» لا تنسى ذلكَ اليوم وتلكَ الفعلة التي لم تُعفِ ابنتها من ارتكابها وهي لمَّا تولد بعد، بوعيٍ أو بغير

وعي. في كلِّ لحظة تكبر فيها كانت لا تشبه قريناتها وهي تحبُّ من الألعاب الخشنةَ التي تناسب الأولاد، تصطاد الطيور وتتسلق الأشجار والحوائط، وتلعب الكرة أيضًا مع الصبية، ولم تهتمَّ بمظهرها الخارجيِّ إلَّا بعد البلوغ، حيث أخذت أنوثتها تتفوَّق على نزقها، ونما صدرها بصورةٍ طيبة، استدارت أردافها، ونعم صوتها، وأخذت تسلك سلوك الصبيات. كل المعلمين والمعلمات بالمدرسة الابتدائية والثانوية كانوا يتوقَّعون لها مستقبلًا باهرًا في التعليم، إلا إن الفقر أوقفها عن مواصلة الدراسة، وهي لم تقاوم مطلقًا، بل استكانت لوضعها الجديد، وسمعت كلام والدتها، بأنه ليس التعليم هو كلُّ شيء، والفقر قد يمنعكِ من أن تفعلي ما تحلمين به، ولكنه لا يستطيع أن يقفل كلَّ الطرق أمامك، وكانت تشجعها على استمرار ارتباطها بـ«أحمد زكي»، وهو المستقبل الأمثل الذي ينتظرها. الأمُّ الآن تلوم نفسها أيضًا، ولكن في هذا الوقت لا حيلة لها، تصرَّفت كما يجب عليها أن تتصرَّف، ولكن خذلها «أحمد زكي» وخذلتها ابنتها عندما أصبحا يتعاملان كزوجٍ وزوجة، ولولا ستر الله لحبلت ابنتها سفاحًا من ابن أختها.

استيقظت على كحَّته، كان وقت صلاة المغرب قد حان، توضَّأ، أحضرت له المصلاة وأخذ يصلِّي. كعادته كان يقرأ سورًا من القرآن بأخطاء جمَّة في النطق لم تستطع أن تخلِّصه منها، وتركته

بها عندما وضعها بين خيارين: إمَّا أن يترك الصلاة وإمَّا أن يقرأ بالطريقة التي يعرفها، ففضَّلت أن يحافظ على صلواته طالما كان الله يدري ماذا يقصد «فتح الله» بلحنه.

عندما مرَّت قرب باب ابنتها سمعت موسيقى صاخبةً تتسلَّل من الداخل، نقرت لها الباب، انخفض صوت الموسيقى، نقرت الباب مرةً أخرى، فتحت ابنتها الباب، كانت في فستان نوم خليع، وبوجهها قناع من كريم مرطب للبشرة، قالت لها الأمُّ بدون مقدمات:

– سيكون الزواج في خلال أسبوع، جهزي نفسك.

قالت البنت وكأنها كانت تعلم بقرار أمِّها منذ شهور:

– أنا جاهزة يا ماما.

وعادت للداخل وهي تغلق الباب خلفها، ويعلو صوت الموسيقى مرةً أخرى. وقفت الأمُّ قليلًا عند الباب، لوت شفتيها في حركة تعجُّب. مضت إلى حجرة ابنها «السر». دفعت الباب فانفتح بهدوء، كان «السر» وأخوه الصغير ينامان في سلام قرب قرب. أيقظت «السر» برفق. جلست قربه على السرير، ثمَّ حدَّثته بهدوء، حتى لا يستيقظ «فراج» الصغير. أخبرته بأن أباه مريضٌ، ربما أصابه شيطانٌ أو جنٌّ في رحلته التي وجد فيها الذهب، وأنه سيعالج بإذن الله عند أحد الفقهاء تخوم «الخرطوم»، وأن أخته

يجب أن تتزوَّج الآن، على الرغم من رغبة الأمِّ في أن تكمل البنت تعليمها أولًا، ولكن البنت تريد الزواج وليس هنالكَ في رأسها غيره، ربما بعد أن تتزوَّج ستواصل دراستها إذا شاءت هي ورغب «أحمد»، وفي نظرها أن تتزوَّج في بحر أسبوعٍ وأن تبقى بالشقة العُليا، وهي تقريبًا جاهزة، و«أحمد» ليس بالغَريب عن الأسرة، فهو ابن أختها الكبرى، زواجًا بسيطًا جدًّا، عقدًا وكرامةً لا أكثر.

لم يكن «السر فتح الله» مهيَّئًا لكل هذه المعلومات الجديدة بالنسبة إليه في لحظةٍ واحدة، يعرف أن «أحمد زكي» يرغب في الزواج من أخته، كانت معلومةً معروفةً لدى الأسرة الممتدة، وهي من المسلَّمات التي أخذ أفراد الأسرة يردِّدونها بمناسبةٍ ودون مناسبة، ولكنه لم يعلم شيئًا عن علاقةٍ حقيقيةٍ بين أخته و«أحمد»، لدرجة أنه نسي الأمر برمته، وكان يرى أن من مصلحة أخته أن تواصل تعليمها، فأخته ليست مثل بنات هذا الزمان المنحلات، فهي ملتزمة، ويجدها في البيت كلما حلَّ به، لم يسمع عنها أية انحرافات في وسط الشبان، لم يرَها بعينه حياته كلَّها في صحبة رجلٍ غيره وأخيه وأحيانًا نادرة أبيه، وليست لها صديقاتٌ لهنَّ سمعةٌ سيئةٌ أو منحرفات، فهي مثالٌ للأخت المحافظة البارَّة، يمكنها من خلال عصاميتها هذه أن ترقى أعلى سلَّم التعليم، بل تستطيع أن تدرس خارج السودان دون أن يخشى عليها شيئًا، لا

يدري سببًا للعجلة في أمر زواجها، ويمكنه أن يتحدَّث إليها في هذا الشأن وهو واثقٌ بأنه يستطيع أن يقنعها، فالزواج تترتَّب عليه مسئولياتٌ أسريةٌ وأطفالٌ ويستحيل معه التعليم المنتظم، وهي ما زالت صغيرة، في بداية العشرينات من عمرها: «مش كدا يا أمي نصرة؟»

لم تقل له إن أخته العصامية الآن حُبلى وفي شهرها الأول أو الثاني أو أسابيعها الأولى، أو يومها الأول، المهم أنها حُبلى. لن يكذب حسُّها أبدًا. لم تقل له أيضًا إن «أحمد» ابن خالتها الهُمام الآن في غرفتها، في هذه اللحظة التي يتحدَّثان فيها، دخل عن طريق باب الشرفة المرفقة بغرفتها، شاهدت صورته منعكسةً على نافذة هذه الغرفة الزجاجية، وهو يعبُر الحديقة في سرعة الأرنب البري، بينما كانا يغطَّان في نوم عميقٍ هو وأخوه، ولم تقل له إن أخته تتفوَّق على الشيطان في حيلَتها ومكرها؛ وإن الشيطان يستقي منها معرفته.

قال لها:

– ح أتكلم مع «أحمد زكي» في موضوع تأجيل الزواج.

قالت له وفي فمها ابتسامةٌ طيبة:

– من الأحسن يتزوَّجوا، وبعدين الله كريم.

حاولت أن تجعله يفهم شيئًا، ولا تدري أفهم أم لا، ولكنه

توقَّف عن النقاش، بما يعني أن السكوت علامة الرضا. استيقظ «فراج» بعينين مغمضتين، مشى نحو المرحاض متعثِّرًا، أبدت الأمُّ ملحوظة أن الغداء جاهز، وتفضِّل أن يلتقي الجميع عند المائدة، وكانت تعلم أيضًا أن هذا الجميع لا يشمل ابنتها «ميرم»، فـ«ميرم» تأكل وحدها، وتنام وحدها، وتفعل كلَّ شيء بعيدًا عن الآخرين، وخاصَّةً أفراد أسرتها جميعهم.

كانت الغرفة مضاءةً بآخر أشعة الغروب الفاترة التي تتسلل في مثل هذه الأوقات عبر نافذة الشرفة الزجاجية الكبيرة، التي تفتح في اتجاه الغرب مباشرة. وهو جالس على المصلاة، أَلَّفَ دعاءً فوريًّا:

«اللهم أعوذ بك من شرِّ الشيطان الرجيم، والحاسدين وأولاد الحرام وبنات الحرام، وشياطين الدهب، والرجل الميت في مغارة جبل عضو الكلب.»

كرَّره مراتٍ كثيرة إلى أن دخلتْ الغرفة ووجدتْه يدعو به. كان ينادي بصوتٍ عالٍ وكأنه يخاطب أصمَّ سيجيب دعاءه حالما يسمعه، وبزاوية عينه اليسرى كان يرمق الديك وهو يرقد على المخدة، ويبدو في حالة نعاسٍ شديد. أضاءت لمبة النيون الكبيرة، فغرقت الغرفة في ضوءٍ ساطع، قالت له وهي تجلس على حافة السرير ليس ببعيدٍ عن رجليه، وقريبًا جدًّا من الديك الذي عندما

أحسَّ بها، تحَّول من أعلى المخدة، وقفز على سطح تربيزة كبيرة بها مرآةٌ للتزيُّن وأخذ يحملق في وجه «فتح الله».

– البت.

قال دون أن يرفع عينه إليها:

– ما لها؟

قالت بصوتٍ منخفضٍ شبه مخنوق:

– أحسن تتزوَّج.

قال وهو يرفع رأسه تدريجًا وينظر نحوها، متجنِّبًا أن تقع عيناه في عيني الديك المحمرَّتين، اللتين هما أشبه بجمرتين موقدتين:

– طبعًا أحسن، أنا قلت لك الكلام دا من زمااان.

قالت وهي تنظر في الأرض:

– يوم الإتنين ح يجي أبوه وأمه وجيرانهم للخطوبة.

قال دون تردُّد:

– للخطوبة والعقد والعرس ورحيل العروس مرة واحدة، كله في يوم واحد، خير البر عاجله، الشقة جاهزة وما في شي تاني.

كان بإمكانها أن تستمتع بالمال الكثير والحياة الرغدة والذهب والسكن الراقي الفاره والطعام، فالمال يجلب متعًا في الحياة كثيرةً ومختلفةً يصعب الحصول عليها في حالة الفقر والعوز. والمال أيضًا يجعل الحياة سهلة ويغيِّر الأولويَّات والتفضيلات،

بل الاهتمامات بصورةٍ عامَّة، بل إن له تأثيرًا مباشرًا على اللغة والروابط الاجتماعية، والنظرة إلى العالم وتفسيره، ولكن «نصرة» لم تحسَّ بكثيرٍ من ذلكَ في الحقيقة منذ أن أصابتها دودة الثراء الفاحش، لم تنعم براحة البال أو تصالح الضمير. وكانت الطريقة التي حصلت بواسطتها على المال، وابنتها، هما ما يمثلان لديها القلق الأكبر. وبينها وبين نفسها، إنها تحمِّل ابنتها فشلها الشخصيَّ في التمتع بمباهج الحياة، لأنها ومنذ أن قرَّرت إعادة المال لأسرة المرحوم من الأرباح التي يحصلون عليها من استثمار الذهب، ومنذ أن أخبرها زوجها بقصة الديك والرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب» وكيف إنه تحمَّل مسئولية الاحتفاظ بالمال مقابل قبول الديك، أصبح المال ماله هو بالذات، أمَّا البنت فبتمرُّدها تقود الأسرة إلى فضائحَ أخلاقيةٍ كبيرة، وقد فشل مشروع تقويميها تمامًا، وفشلت محاولة إدخالها للجامعة، وفشلت محاولة ترشيد علاقتها بـ«أحمد زكي»، بل فشلت في أن تجعلها مسلمةً محافظةً عن طريق بعض المرشدات من الأخوات التقيات العارفات بالدين، ولم تُفِدْ كلُّ حيلهن بتخويفها بعذاب القبر والجحيم الذي ينتظر النساء الضالات اللائي يفرِّطن في عذريتهنَّ ويفسدن أجسادهنَّ، ولو أن باب التوبة مفتوح، حيث بإمكان العبد الرجوع إلى الله وقتما شاء، وإن الله يقبل توبة

التائب، وهو أحبُّ إليه حينها من العبد المستقيم. كما لم يستطعن أن يقنعنها بالخير الذي ينتظرها في الآخرة إذا استقامت، حيث تصبح إحدى حوريات الجنة المكرَّمات المقيمات في نعيم الخُلد، وهنالك ستحظى بنكاحٍ لا يشبه نكاح الدنيا، فهو أعظم متعةً للأجساد، وأشبع للشهوة، وأرحم للروح، وقلن لها إن نكاح الجنة يدوم ٧٠ سنة من المضاجعة المستمرة، وستحظى بخمرٍ ألذَّ وأطيب. ولكن حدث العكس، فكادت «البت» الشريرة أنَ تفسد إحدى الأخوات التقيات عندما سألتها:

- هل أنت ستصبحين حورية في الجنة يوم القيامة؟

فردَّت لها الأخت بالنفي لأنها لا تضمن لنفسها الجنة، فلا يضمن الجنة سوى عشرة من المسلمين والرسول محمد، فسألتها:

- كيف تضمنينها لي أنا، وأنت لا تضمنينها لنفسك؟

فتردَّدت الأخت قليلًا قبل أن تجيبها، بأن عليها أن تعمل صالحًا وتتبع سواء السبيل بما أتى في القرآن الكريم من مكارم الأخلاق والحديث وما تناقله السلف الصالح وأمَّن عليه علماء المسلمين، والبقية هي إرادة الله فيما يختار لها؛ جنة خير أم جحيمًا مقيمًا.

فقالت لها «البت» النزقة:

- خير لي متعة مضمونة في الدنيا من جنة مجهجة في الآخرة.

وسألتها سؤالًا مباشرًا:

- هل جربت نكاح الدنيا؟

قالت الأخت الطيبة التقية وقد بدا عليها الخجل:

- لا، أنا ما متزوِّجة!

ثم أضافت وهي تتجنَّب النظر إليها في عينيها:

- وأنت؟

ابتسمت البنت وهي تقول بغنج:

- أنا ... ما ... متزوِّجة!

ضحكت الأخت التي ما كانت تتوقع تلكَ الاجابة بالذات، لأنها كانت تعرف جيِّدًا قصتها مع «أحمد زكي»، المقصود أنها سمعت بها كثيرًا، بمعنى أن ما يحدث بينها وبين «أحمد زكي» يعرفه الكثيرون، ولكي نوضِّح الأمر أكثر: إن الأخت تشكُّ في أن البنت تحمل في بطنها طفلًا من «أحمد زكي» في هذه اللحظة سفاحًا. بمعنى آخر: تظنُّ الأخت التقية -وإن ليس كلُّ الظنِّ إثم — أن البنت مشروعٌ لداعرةٍ صغيرة. إذا أمكنني أن أقول ذلكَ بلغةٍ قريبة: إن الأمَّ أخبرت الأخت المؤمنة التقية بأنها تشكُّ في سلوك ابنتها. أمَّا إذا شئنا أن يصبح المقصود أكثر وضوحًا؛ أقصد بيننا: إن الأخت التقية شاهدت عُلبة سجائر «برنجي» في غرفة البنت، بل إنها رأت بأمِّ عينيها في المرحاض الخاصِّ بالبنت

واقيًا ذكريًّا مستخدمًا مهملًا. للأسف، إن البنت تمضي نحو الفضائح مثل سيلٍ جارف، وتكنس أمامها كرامة وسمعة الأسرة ورفاهيتها بالجري وراء متعها الخاصَّة، متَّبعة فساد روحها الآثمة ونزق جسدٍ ضالٍّ لا يشبع ولا يرتوي ولا يخشى في سبيل اللذة لومة لائم. ولكن: هل الزواج هو الحل؟ الأمُّ وحدها تستشعر الكارثة، أمَّا الأب فكان يعرف تفاصيلها ويحسُّ بخرابها. ولكنه في هذه الأيام بالذات، عليه أن يتحمَّل مسئوليةً أكبر، مسئوليةً وجوديةً معقدة، وهي أخذ الأسرة إلى البرِّ الآمن. عليه تحمُّل كلِّ الآلام، حتى لا ترجع الأسرة إلى مربَّع الفقر. وعندما يكون لديه المال الكافي والوضع الاجتماعي القوي؛ أيْ في اللحظة التي يعرف فيها أن المال الذي لديه لا يمكن أن يعبث به ديكٌ أو شيطان، حينها سينتبه للأشياء الأخرى، ومنها بالطبع ما يخصُّ الأسرة وفسق البنت، وسيكفر بالديك ويتمرَّد على ميثاق الرجل الميت في كهف جبل «عضو الكلب».

مِنِفِسْتُو الدِّيكِ النُّوبِيِّ

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

أن تؤمن بالديك، أن تقبَله.

من هو الديك؟

ألا يخطر في بالكَ ذلكَ السؤال؟

مِن أين لكَ بالسؤال، طالما الديك هو من يجيب عن السؤال؟

مَن يكتب الميثاق، ومَن يقرأ الميثاق، ومَن يسمع به، ومَن يمضي في طريقه، ومَن يعيب به، ومَن هو الميثاق ذاته؟

مِن داخل الكهف في سُرة الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب»، كتب الديك ميثاق الديك:

الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب» هو الإنسان الحيُّ الوحيد، لأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يُخرج ولا يتنفس ولا ينمو ولا يصغر ولا يبكى ولا يضحك ولا يتألم ولا يفرح، ولكنه الفاعل الأول للعمل الإنسانيِّ على وجه الأرض.

أن تقبَلني.

أن تتخير بيني وبين الفقر.

أن تختارني؛ أنا الديك. وأن يشهد اختياركَ الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب».

أو أن تختار الخاتم كما اختاره «جبريل» ودفع ثمنه بالموت؛ وأظنُّ أن ذلكَ ليس عدلًا، والديوك أيضًا تصاب بتأنيب الضمير، ولو أنه ليس للرجل الميت بمغارة جبل «عضو الكلب» ضمير، إنه ميتٌ حي، ميتٌ يقسو ويقتل ويجرح ولا يتألم ولا يبكي، رجلٌ لا يحزن، يقبَل ولكنه لا يغفر أبدًا، لأن من يقبَل لا يغفر، وتلكَ هي الحُرية.

النقطة الأخرى؛ أن تقبل الديك: أقول لكَ، بصفتي الديك ذاته، أنا لستُ مثل سائر الجنِّ والشياطين، أنا مثل الديك، الديك النوبيِّ الثائر، هل تعرف منفستو الديك النوبي؟

هل تعلمتَ ما معنى الديك النوبي؟

هل أحببتَ الديك النوبي؟

أنا لستُ كالجنِّ ولستُ كالشيطان.

لستُ كالرب.

ولستُ كالعبد.

لأنني الجنُّ والشيطان والربُّ والعبد، أنا الملوك والمملوك والملكة.

ستعرفني أكثر.

أنتَ قبِلتني من أجل الذهب.

وأنا لم أَقبلكَ ولن أقبلك: يقبلكَ الرجل الميت في مغارة جبل

«عضو الكلب».

لن يقبلكَ القبر.

لن يقبلكَ الجد.

لن تقبلكَ الأرض الصحراء الوعرة.

سيقبلكَ جحيم التاريخ.

جحيم البيت الأول في تاريخ البشرية.

ستقبلكَ خزائن المستقبل.

لن أقبَلك: أعرف أنكَ تعرف الجنيَّ الفاسق ذا المِفْعَال الضاري، من ينكح المخدوم مقابل مالٍ ومعرفةٍ وفضِّ السرِّ المجهول عن المستقبل، أقول لك، إن ذاكَ الجنَّ لكاذب.

منفستو الديك: منفستو التاريخ المأكول المصهور المُباع من أجل لقمة عيش.

من أجل شرفة قصر.

من أجل حياةٍ مثل الوجع لا يحزنكَ أن تفقدها.

والربُّ النوبيُّ هنالك، الربُّ النوبيُّ يسجِّل بأحبارٍ من نارٍ تاريخ الإنسان الظالم.

تاريخ الابن الخائن.

تاريخ الأبناء السفلة.

منفستو الديك: منفستو الديك النوبيِّ الثائر، منفستو الديك

النوبيِّ الثائر في حقِّ الأبناء السفلة.

منفستو الأبناء السفلة:

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة.

مَن بعنا سروال الجدِّ الأعظم، وتركنا خصيته للطير الجارح والإعصار، وأولمنا الجرذ ليقتاد فضيحة است الملك الغاضب من خسَّتنا.

نَحْنُ الأَبْنَاءُ القَتَلَة.

لم نحترم الرحم الخالق، لم نحترم النطفة.

لم نحترم هشاشة عظم التاريخ، ولا صلادة صوت القبر.

لم نحترم الطين الأول، فكرة أن يبني الإنسان المجد الأبقى:

كيف يفسِّر الشخص الأوَّل معنى الله بريشته على كهف الأبدية.

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ

الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ
السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة
نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ
الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ ...

الأَبْنَاءُ ...

السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ ...

السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ ...

الأَبْنَاءُ ...

السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نقطة.

قال الديك، وهو ينظر في عيني «فتح الله فراج»:

- هل قرأت المنفستو؟

قال له «فراج» وفي فمه ابتسامة بائلة:

- شُنُو المنفستو؟ أنا أمّي لا أقرأ ولا أكتب.

الْعَرُوسَان

أمَّا فرحة «أحمد» الكبرى فهي أنه تزوَّج سيدة حياته، وفي الحقيقة حبيبته الوحيدة، والمرأة التي يتمنى أن يقضي عمره كلَّه معها، ويتمنى أن يموت قبلها، حتى لا يعيش بدونها يومًا، المرأة التي هي زوجته منذ سنواتٍ طوال، تزوَّجها بشريعة الحبِّ المتبادَل، والرغبة والتشهِّي، وجنون الجسَد. تزوَّجها منذ اللحظة التي شاهد فيها اسمه واسمها مكتوبين بالطبشور على حائط البيت وبينهما قلبٌ يخترقه سهم. نعم، بهذه السذاجة والعفوية عبَّرت عن حبِّها له، وكافأها هو بالزواج.

عبر الرسائل النصية القصيرة، دَعَتْ صديقاتها كلَّهنَّ لزفافها، وودَّعَتِ المعلمات والمعلمين والسائق الطيب «باشري»، ودَعَتَهُم أيضًا للكرامة التي ستقام في حديقة المنزل. نسبةً لمرض والدها وذكرى وفاة صديقه «جبريل أدومة كيري» الذي لم يكمل سنته الأولى، فلن يكون هنالكَ احتفالٌ من أيِّ نوع، سيكتفون بالعقد ووجبة الغداء.

لن تكون هنالكَ فرحة معلنة، لن يكون هنالكَ ما يجعل الناس تسأل عن حقيقة علاقة «جبريل» المرحوم بـ«فتح الله فراج»، وهل المال الذي تتزوَّج به وفيه وعليه ومنه ابنته الآن يخصُّ «فتح الله فراج» وحده؟ أهو ماله في الأصل؟

سيكون زواجًا سريعًا جدًّا حتى لا يلتفت الناس لمعاناة «فتح الله فراج»، الذي لم يكن مرضه مَخفيًّا تمامًا عن قلةٍ من الآخرين؛ فسائق العربة سمعه مرةً يدير حوارًا مع ديكٍ وهميٍّ من جانبٍ واحد، وشاهده أكثر من مرةٍ يقبض شيئًا في الهواء ويصارعه، بل إنه أقسم صادقًا لزوجته إن «فتح الله فراج» لديه سرٌّ ما يخفيه عن الجميع، ولأن السائق كان أمينًا فإنه اكتفى بمشاركة زوجته وحدها الرأي.

ويبدو أن الأمر بقي عند الزوجين فقط، أو ربما تحصَّلت عليه قلةٌ من الأشخاص المقرَّبين جدًّا من الزوجين.

زوجة أخي «نصرة»، قالت ذات مرةٍ لزوجها إنها تشكُّ في عقلية زوج أخته، ربما كان المال كثيرًا على عقله الصغير، فالكثيرون لا يتحمَّلون المال الفجائي، فالمال يأتي بحرَّاس المال، وهم الجنون، وإن الثروة التي تصيب غير مستحقيها تمسخهم وتذهب بعقلهم، وقالت له: «سمعته يصرخ كَرْ كَرْ كَرْ.» ولم تشاهد قربه أو حوله أو في بيته أيَّ ديك أو دجاجة؛ فـ«فتح الله فراج» لم يلمس أو يرَ أو يقترب من دجاجةٍ منذ أن مَنَّ اللهُ عليه بكنزٍ من الذهب في صحراء النوبة بالولاية الشمالية، في قبرٍ قديمٍ لملكةٍ منسيةٍ لا اسم لها في التاريخ المدوَّن. لن تكون هنالكَ سيرةٌ، أو ضريرة [1]، أو حتى زغروداتٌ منفلتاتٌ يعبِّرن عن سعادةٍ عميقةٍ أو عابرة. لن يكون هنالكَ تمارين لتعليم العروس الرقص، لأنه من غير المعقول أن ترقص عروسٌ ومأتم صديق والدها المرحوم «جبريل كيري» لم يكمل عامه الأوَّل، وكيف ترقص عروسٌ ويظنُّ البعض أنها حاملٌ بجنينٍ كبيرٍ في بطنها؟

الحفل لم يكن حفلًا، ولو أن السعادة كانت باديةً على الجميع، كلٌّ له أسبابه، فالأب والأم فَرِحان بتخلُّصهما من البنت النزقة المجنونة قنبلة الفضائح الموقوتة، البنت سعيدة بأنها نالت حبيبها «أحمد زكي»

(1) احتفاليةٌ في الفرح السوداني.

أخيرًا وبشروطها وإرادتها، وبأنها غادرت التعليم للأبد، ولم يهمَّها كثيرًا ماذا يقول الناس عنها إذا أنجبت طفلها الأوَّل بعد سبعة أشهرٍ بالتمام وهو كامل النمو، ولا أظنُّ أنه سابقٌ لأوانه إذا ذكرنا هنا أن «ميرم» قد خيَّبت ظنَّ الجميع حاسدين وشامتين ومعيِّبين، وغيرهم من أصناف البشر الذين حولها ويهتمون بحكاياتها، عندما أنجبت بعد سنةٍ كاملةٍ من زواجها من «أحمد»، وليس في أقلَّ من تسعة أشهرٍ كما يظنُّ الظانُّون، وكما تعتقد أمُّها ذاتها، وربما الشيطان نفسه لا يتوقَّع غير ذلك. أمَّا فرحة «أحمد» الكبرى فهي أنه تزوَّج سيدة حياته، وفي الحقيقة حبيبته الوحيدة، والمرأة التي يتمنى أن يقضي عمره كلَّه معها، ويتمنى أن يموت قبلها، حتى لا يعيش بدونها يومًا، المرأة التي هي زوجته منذ سنواتٍ طوال، تزوَّجها بشريعة الحبِّ المتبادَل، والرغبة والتشهِّي، وجنون الجسَد. تزوَّجها منذ اللحظة التي شاهد فيها اسمه واسمها مكتوبين بالطبشور على حائط البيت وبينهما قلبٌ يخترقه سهم. نعم، بهذه السذاجة والعفوية عبَّرت عن حبِّها له، وكافأها هو بالزواج. ربما كانت في الثامنة عشر من عمرها.

ولكن هنالكَ ما يؤلمه جدًّا، ولن يسامح نفسه في يومٍ ما على اقترافه؛ إنه سيسكن في بيتٍ بُني مِنْ مالٍ مشكوكٍ في مصدره، وهو لا يخجل أن يقول لنفسه، ولنفسه فقط في سرِّه، ولسرِّه فقط: «مالٌ حرامْ.» لولا أن حبيبته «ميرم» كانت تصرُّ على البقاء بهذا المنزل

الفخم، لما تردَّد لحظة في السكنى في بيته الصغير الفقير بصحراء قاحلة شمال مدينة «أم درمان»؛ بيته الذي لم يكتمل مرحاضه بعد. سيتبرَّزان في العراء ولكن بحبٍّ وكرامة. وأمَّا بينه وبين نفسه، فإنه يؤمن بأن المال الحرام لا بدَّ أن يذهب في يومٍ ما من حيث أتى، لذا سيحتفظ ببيته، وسيبقى هنا كضيفٍ فقط: «من لا يسعده القليل فلن يسعده الكثير أيضًا.»

تزوَّجا في هدوء.

مثل مرور عصفورٍ صغيرٍ عبر حديقةٍ يانعةٍ ذات صباحٍ باكر. لم يترك انطباعًا قويًّا في ذاكرتَي المكان والزمان. لم تحيِّه الأشجارُ والأزهار والزنابق الناعسة الصغيرة وهي تفتِّح عيونها للشمس الدافئة، بل لم تنتبه إلى أن عصفورًا صغيرًا ذا أرياشٍ زاهيةٍ قد عبر فوق هامتها مغرِّدًا. لم تهمس في أذنيه الريح. لم يشتههِ قِطٌّ، ولم يصوِّبْ طِفلٌ نزقٌ تجاهه نبلته. بل لم يعرف العصفور الصغير ما هي وجهته بالضبط.

تزوَّجا في هدوء.

الْخَاطِبَات

الوقت عصر، كانت أختها الكُبرى الملقبة بـ«أم أحمد» تتقدَّم وفد النساء الخاطبات، ثمَّ تليها زوجة أخيها السمينة التي تثقل سواعدها بالذهب الأصلي، أمَّا هي وابنتها «ميرم» التي تلبس كعروس في أيامها الأولى بعد العودة من شهر عسل قصير في القاهرة، فكانتا تمضيان في وسط النساء، وذلكَ إكرامًا لأختها الكُبرى والنساء اللائي وفدن لمجاملتها وأداء الواجب، قلة منهنَّ من «كافوري» ولكن الغالبية العظمى من «زقلونا» جنوب وشمال، هنَّ جاراتها القدامى وصديقات أيام الشدَّة.

أعدَّت «ملكة الدار» كلَّ شيءٍ بإتقانٍ لاستقبال الضيوف، وكانت قد أزالت الراكوبة وبنت مكانها مظلةً كبيرةً بالزنك الأمريكي ومواسير الحديد الصلب، وصنعت لها أرضيةً من البلاط المزايكو الزهري الجميل، واشترت سرائر من النيكل وكراسي من البلاستيك المقوَّى، ومراتب إسفنج وستائر جديدة، ليبدو المنزل مناسبًا لاستقبال الضيوف. كما إنها حبست الديك والدجاجات بالقفص خلف الحجرات، وتم ربط الكلب قريبًا من قفص الدجاجات في البقعة التي كانت تقف فيها عربة الكارو والحمار قديمًا قبل بيعهما.

بالطبع قد تحصَّلت على النقود من «نصرة» وزوجها «فتح الله فراج» اللذين كانا يصرَّان على أن تكون مناسبة الزواج في البيت الجديد بـ«السلمة»، ولكن البيت لم يكتمل بعد، وما زال تحت التشييد، كما إن «ملكة الدار» كانت تصرُّ على بيتها القائم الآن بـ«زقلونا»، البيت التي عاش وتوفي فيه زوجها «جبريل أدومة كيري». أمَّا التوأم فتبدوان مثل عروسين صغيرتين، في كامل زينتيهما. العروس «رشا جبريل» قد تمَّ تجهيزها لتبدو أجمل وأينع في عين الخاطبات اللائي عندما شاهدنها أخذن يرددن: «ما شاء الله!» استحسانًا وإبعادًا للعين والحسد، وإن كان أكثرهنَّ يُخفين غيرةً لا حدود لها. كانت سعيدةً وجميلةً ولها عينان واسعتان، وفمٌ متسعٌ أيضًا، وشعرٌ قصيرٌ ممشوطٌ بطريقةٍ جميلة، ومرسلٌ على عنقها، شديد السواد.

الْعَرُوس

كان الأمر مفاجئًا مفاجأةً تامَّةً لـ«السر فتح الله»، وظنَّ للوهلة الأولى أن الأمَّ غير جادة وأنها تداعبه لا أكثر، ولكنها أكَّدت له أنها تريده أن يتزوَّج «رشا جبريل»، فالبنت تناسبه جدًّا، وبها كلُّ ما يتمنى الرجل وتتمنى أسرته. طلب من أمِّه أن تمهله بضع أسابيع حتى يتمكن من مناقشة الفكرة مع «رشا» نفسها، وأن يختبر نفسه ما إذا كان لديه شعورٌ عاطفيٌّ حقيقيٌ تجاهها، أم إنها مجرَّد أخوة وصداقة طفولة، والأهم؛ هل ترغب «رشا» في الزواج منه، وربما كانت مرتبطةً ولها حبيب، وتخطِّط لحياتها بصورةٍ طيبةٍ بعيدًا عن خزعبلات أمِّه. هو لا يعرف كيف يخالف رأي أمِّه، فهو في قرارة نفسه يراها دائمًا على حق، وأنها لا تقوم إلَّا بما هو صحيحٌ ومفيدٌ للأسرة، ليست هنالكَ امرأة في حياته ولا يعرف فتاة واحدة معرفته بـ«رشا»، فالأمر بالنسبة إليه لا يفرق كثيرًا، إذا قبلت به «رشا» سيتزوَّجها وهو خير اختيار، وإذا لم تقبل به سيظل صديقها وأخاها. قالت له أمُّه:

- و«رشا» موافقة!

سألها:

- كيف عرفت ذلك، هل تناقشت معها؟

قالت له الأم:

– هي موافقة، هل تظن أن «رشا» تلقى أحسن منك؟ لا توجد بت ترفضك.

قال وقد ضجر من مراوغة أمِّه والتفافها على سؤاله:

– هل هي قالت لك بفمها؟

قالت الأم:

– ما في بنت تقول عايزة راجل بفمها، البنات يقلنه بالصمت والسكات، أو حتى بالغضب، البنات يا «السر» عندهم لغة ما بتفهمها غير النسوان، ثق فيما أقوله لك.

وعندما خطرت في بالها ابنتها وكيف كانت تطلب ببجاحةٍ الزواج من «أحمد زكي»، خجلت من نفسها ومن كذباتها الصغيرة لابنها «السر»، وأرادت أن تصلح الأمر ولو مع نفسها، فأضافت وهي تختلق ابتسامةً غامضة:

– إلا البنات اللميضات.

وتحت هذا العنوان تقبع هي أيضًا سواسيةً مع ابنتها، فهي أيضًا تزوَّجت «فتح الله فراج» بطلبها هي الخاص، ولو أن غالبية أفراد أسرتها اعترضوا بشأن عدم معرفة أمِّه وأصلها وفصلها، وأنه ليس لـ«فتح الله» بيتٌ محدَّد، حيث كان مشردًا كلَّ حياته، وليس له عملٌ محدَّد، وأنه فوق ذلكَ كلِّه أمِّيٌّ لا يفكُّ الخط، إلا إن قلبها الذي تعلَّق

به هو الذي حسم الأمر لصالح أن تكون زوجةً لـ«فتح الله فراج» الفقير الوسيم، الذي كان يسكن في العمارات التي تحت التشييد مع فقص دجاجاته، وليس له رفيق سوى ذكرى أبيه الميت، وكان أمِّيًّا وهي متعلمة، إلا إن أسرتها أيضًا كانت فقيرةً جدًّا، ولو أن بها عددًا كبيرًا من الأبناء الذكور، إلَّا إنهم كانوا فاشلين في الحياة، ويعمل معظمهم في الجيش كجنود، ولو أن أحدهم استطاع أن يصعد سُلَّم الجندية إلى رتبةٍ كبيرة، وبقدرة قادر استطاع أن يتقرَّب إلى الرئيس عندما عُيِّنَ حارسًا لجلالته، وكان وفيًّا جدًّا وماهرًا جدًّا في إظهار محبَّته وولائه ووفائه غير المشروط للسيد الرئيس، فأصبح محل ثقة جلالته الشخصية، وانهالت عليه الترقيات والمخصَّصات، ومُنح أرضًا قريبةً من قصور أسرة السيد الرئيس، ووُهِب منحةً أسعفته لبناء قصرٍ منيفٍ جميل، وهو الذي يسكنه الآن. ولو أنه على مستوى الوظيفة ما زال حارسًا؛ أي الفرد الذي يقوم بأداء الأعمال الشخصية جدًّا عندما يكون سيادته في سفرٍ خارج القصر أو خارج بيته، مثل دخول المرحاض قبل سيادته للتأكد من أن لا أحد من البشر أو الجنِّ ينتظره بالداخل، وتهيئة المكان لصلاته، وإلباسه جزمته. ويقوم أخوها أيضًا باستبدال شرابات جلالته، ورمي تلكَ المتعفنة بعيدًا، وحكِّ ظهره حينما يصاب بالأكلان «الهرش» وهو غالبًا ما يُصاب به لعلةٍ لا يعلمها أحد، ولسببٍ ما لم يصارح طبيبه أيضًا، فهو لا

يثق فيه. وأحيانًا يقوم بدلك رجليه إذا جلس جلسةً طويلةً في شأنٍ ما، يشعل له سجائره ويقوم بإطفائها، يعدُّ له الصعوط، وغير ذلك، ثمَّ أصبح يحكي له النكات، حتى البذيئة جدًّا، ويقرأ له الجرائد الصفراء، حيث إن سيادته لا يقرأ غير القرآن الكريم، وعند أداء الصلاة فقط. ثمَّ صار أكثر قُربًا منه عندما وفَّر له الفُكيان والسحرة والشيوخ من أولياء الله الصالحين وأوليائه غير الصالحين، والمُدَّعين الذين عرفهم عندما كان يبحث مسألة الإنجاب، لأنه لم يُرزق بذريةٍ أيضًا كما جلالته ذاته. فالرؤساء مثلهم مثل البشر العاديين، يحتاجون لصديق حميم للترفيه والخدمات اليومية الإنسانية البسيطة جدًّا والحقيرة جدًّا؛ فكان أخوها المحظوظ هو صديق الخدمات التافهة والحقيرة لسيادة الرئيس.

وهذا الأخ بالذات — وعلى الرغم من أنه في ذلكَ الوقت، حينما شاءت أن تتخذ «فتح الله» زوجًا لها مع رفضه من قبل معظم أفراد الأسرة — كان جنديًّا فقيرًا وليس له ثقلٌ في الأسرة، إلا إنه لم يعترض على زواجها من «فتح الله»، بل وقف في صفه، وكانت وجهة نظرة غريبة، حيث إنه «رقد بالخيَّرة» ورأى فيما يرى النائم بِخَيَّرةِ زواج أخته؛ «فتح الله» العريس المرتقب يبلس جلبابًا كبيرًا أخضر اللون، وعلى رأسه تاجٌ من الذهب: «عرفتُ أن الله سيفتحها لـ«فتح الله فراج» ويفتحها علينا نحن معه. ربنا يضع سره في أضعف خلقه.

مثل «فتح الله» المشرد الأمِّي المجهول، قد يكون عند الله أعظم من ملوك الكون كله.» بهذا الإيمان الراسخ بمستقبل «فتح الله فراج»، تزوَّجت «نصرة» حبَّ حياتها، أوَّل من عشقت، وتظنُّ بينها وبين نفسها أنه سيكون الأخير أيضًا.

قالت «نصرة» لابنها الذي يراقب في وجهها تحوُّلات السنين، ويكاد أن يقرأ الحوار السريَّ العنيف الذي يدور في رأسها، ويشاهد التسجيل السينمائيَّ للأحداث وهي تمرُّ في وعي أمِّه المرتبك وحُلم يقظتها. قالت الجملة التي تضمن لها حقَّها في المجاهرة باختيار «فتح الله فراج»، وفي نفس الوقت إدانة ابنتها «اللميضة» الملهوفة على التزواج مثل طائر سفود.

– البنات اللميضات والعارفات حقوقهن.

في تلكَ اللحظة سمعا صوت «فتح الله فراج» ينادي من الداخل، طالبًا جرعة ماء، فهَمَّ ابنه «السر» بالذهاب للزير، إلا إن «نصرة» أخبرته بأن عليه أن يشرب الماء مختلطًا بـ«المحاية»، وهي مشروبٌ مسحورٌ أوصى به الفكي. وطلبت أيضًا من ابنها ألَّا يقلق وأن يذهب إلى حجرته، ويستخدم وقته بما يريحه، وأنها سوف تقدر على مساعدة الأب وحدها، وإذا احتاجت ليد الآخرين فسوف تقول لهم. «خذ معك أخوك «فراج»، وامشوا للترفيه. هل معك قروش كافية؟»

رَشَا جِبْرِيل

يمكن القول بصورةٍ أكثر دقة، إن العلاقة بينهما كانت فكرية في المقام الأول؛ أيْ علاقة مثاقفةٍ ومسايسةٍ وتبادل كتب، واهتمام مشتركٍ بالتصوُّف والثورة في نفس الوقت، فـ«أدومة» من الذين يؤمنون بفكرة التصوُّف العالمي، وإن المتصوِّفة ارتبطوا بالديانات الكبيرة والصغيرة، بل بالأفكار الفلسفية ذات الشعبية العالية من أجل الحفاظ على معتقدهم الأساسي، وهو «الواحدي» القائل بأن كلَّ من في الكون وما في الكون هو ذات الشيء، بالتالي لا يوجد فرق بين الجحش والإنسان والشجرة والصخرة والريح والمجرات والله ... إلخ.

قالت «رشا» لأمِّها بصورةٍ قاطعةٍ ونهائية:

- أنا لا يمكن أتزوَّج «السر» أو أفكِّر مجرَّد تفكير فيه!

كانت تحسُّه كصديقٍ أو أخ، قَصَّتْ عليه عن حياتها وتفاصيل أيامها في أوقاتٍ كثيرةٍ ولقاءاتٍ لا حصر لها، ولو أنها لم تتطرق معه لحياتها العاطفية، حيث تعتبر أنها تخصُّها هي فقط والطرف الآخر، إلا إنه كان يعرف كلَّ شيء غير ذلك. وهي أيضًا مرتبطةٌ بصورةٍ هلاميةٍ مع «أدومة»، إلا إنها أيضًا تعي خوفه من المرأة كزوجة، وكان واضحًا جدًّا معها في هذا الشأن، ويميل للصداقة ويفضِّلها على كلِّ مسمًّى للعلاقة غيرها، وهي أيضًا تخاف من الارتباط به كزوج، فما يسمِّيه صداقاتٍ مع النساء تتعدى على لياقة غيرتها، ولقد قالت له ذات مرة: «أنا لا أتزوَّج جماهير، أريد رجلًا خاصًّا بي.»

يمكن القول بصورةٍ أكثر دقة، إن العلاقة بينهما كانت فكرية في المقام الأول؛ أيْ علاقة مثاقفةٍ ومسايسةٍ وتبادل كتب، واهتمامٍ مشتركٍ بالتصوُّف والثورة في نفس الوقت، فـ«أدومة» من الذين يؤمنون بفكرة التصوُّف العالمي، وإن المتصوِّفة ارتبطوا بالديانات الكبيرة والصغيرة، بل بالأفكار الفلسفية ذات الشعبية العالية من أجل

الحفاظ على معتقدهم الأساسي، وهو «الواحدي» القائل بأن كلَّ من في الكون وما في الكون هو ذات الشيء، بالتالي لا يوجد فرق بين الجحش والإنسان والشجرة والصخرة والريح والمجرات والله ... إلخ. وهي الفكرة التي كانت مسيطرة على وعيه في روايته الوحيدة الموسومة بـ«الطواحين»، التي أطلق عليها هذا الاسم على موسيقى كتاب الحلاج «الطواسين». وكانا متفقين على أن التصوُّف هو أعظم دينٍ أرضي، وهو الذي ينبِّه بأن البشرية من عصورها الأولى كانت ذاتَ وعيٍ بالكون كبيرٍ وسليمٍ وواقعي، ثمَّ أصيبت بالجهل فيما بعد، وظلَّت تتخبط في البحث عنً سُبل الحقيقة والإفهام. وهما دائمًا ما يربطان بين التصوُّف والثورة من ذات مبدأ الوحدانية، فعندما يتعفن بعض الجسَد، من الأحسن التخلُّص منه بالبتر، أو علاجه أيضًا إذا كان ذلكَ ممكنًا، فالوحدانية حركةٌ ديناميكيةٌ في الذات الواحدة التي تشهد التحوُّل في وضعيةٍ أقرب للسكون أو أشبه بالسكون. فالمتعجِّل لا يرى في الصخرة غير صمتها وثباتها، تمامًا كمن يرى البيضة شكلًا بيضاويًّا من صنف الجماد. وقد دارت بينهما نقاشاتٌ طويلةٌ وعميقةٌ جدًّا، وربما كانت هذه الحوارات هي البذرات الأولى لـ«جماعة تصوُّف» الغنائية بقيادة «رشا جبريل». لذلك لم تشكِّل لديهما علاقةٌ تسيطر عليها الأجواء الفكرية البحتة بعيدًا عن العاطفة، أو إنهما لم يهتمَّا بها بما يكفي؛ علاقةٌ من هذا النوع لا تشكِّل أية عقبة أمام

أن تتزوَّج «رشا» ممَّن تريد وترغب؛ أيْ شخصًا آخر غير «أدومة»، فإنهما مفكِّران أكثر ممَّا هما عاشقان، ولو أنهما في وقتٍ ما اعتقدا غير ذلك.

وهذا لا يعني أنها كانت سترفض «أدومة» إذا طلب يدها. وتبقى المسألة في أن يكون هذا الزوج هو «السر فتح الله فراج» وليس غيره! لا ترى أن هنالكَ شيئًا يعيبه، غير إنها لا تملك شعورًا عاطفيًّا تجاهه هو الآخر. أليس بالأمر غرابة أن يطلب يدها للزواج بواسطة أمِّها، بينما لم يلمِّح لها مجرَّد تلميح بذلكَ عندما كان معها في البيت، أو خلال مكالماته التليفونية الكثيرة التي دارت بينهما مؤخرًا؟ بعض الرجال يحسُّون بالخجل الشديد، ويكونون شجعانًا في كلِّ شيءٍ ما عدا مسألة طلب اليد للزواج، وذلكَ نتيجة للنضج البطيء عند الرجل. ولكنها لا تظنُّ أن «السر» من ذلكَ النوع، فالحياة عركته وصنعت منه رجلًا جريئًا وواعيًا ويعرف ماذا يريد، وبإمكانه أن يفاتحها مباشرة، قد يكون هذا الخيار خيار أمِّه وأمِّها لا أكثر، ولا يد للسر فيه. هي لا تتزوَّج بهذه الطريقة. كانت واضحةً أو ربما حادَّةً بعض الشيء.

عندما اتصل بها كانت في الجامعة، تقوم ببروفة على المسرح الصغير استعدادًا لليلةٍ غنائيةٍ لـ«جماعة تصوُّف»، يتمرَّنون على أنشودة مطلعها:

«معروفٌ عني
أنكَ فِيَّ كأني
معروفٌ عنكَ
أني منكَ إليكَ
أحبُّكَ شئتَ
أبيتَ
أرَضتَ
سموتَ
لأنكَ أني
وأني ذاتكَ أنتَ»

وطلبت منه أن يأتي إليها في الجامعة يحضر البروفات، يمرِّن صوته قليلًا، وبعد ذلكَ يتناقشان في الأمر. كانت «رشا» في الفصل الجامعيِّ الأخير، ولكنها تحاول أن توفِّق ما بين أنشطة «تصوُّف» والتحصيل العلمي، وتعمل جاهدةً أن تمتدَّ حياة «تصوُّف» فيما بعد الجامعة، زمانًا ومكانًا، لذا سعت لاكتساب عضوية من «جامعة السودان» كلية الموسيقى والدراما. شاباتٌ وشبابٌ موهوبون ولهم ثقافة موسيقية معقولة، ولكن خبراتهم في العمل والأداء الجماعيِّ محدودة، لذا كانت تكثر من البروفات وتقضي معظم وقت فراغها بينهم على مسرح الجامعة أو على شاطئ النيل، في تمارين صوتية

مفتوحة، ومحاولة لاكتشاف ودراسة نقاط التلاقي والتضادِّ بين طبقات الأصوات المختلفة للمجموعة، وتوفيقها أو «هرمنتها» **Harmonizing**.

قال إنه سيحضر معه أخاه الصغير «فراج». أخته «ميرم» قامت بالتطوع بمدِّه بمعلومات عن «رشا»، كانت في مجملها معلوماتٍ سلبية، وهي تشير بوضوحٍ لوجهة نظرها في مسألة زواجه من «رشا». كانت ترى أن «رشا» لاً تناسبه، فهي كبيرةٌ في العمر بالنسبة إليه، من المفترض أن يتزوَّج سيدةً تصغره على الأقل بخمسة عشر سنة كما يفعل الرجال عادة، لأن النساء سريعات النمو، بالتالي يشخن مبكرًا. كما إن «رشا جبريل» تعرف مئات الرجال، على حسب قولها، وأخبرته بصورةٍ خاصَّةٍ عن علاقتها بـ«أدومة» صديق زوجها «أحمد زكي»، واستخدمت لفظةً نابيةً وغير لائقةٍ اجتماعيًّا في وصفها. طلبت منه أن يتركها تختار له عروسًا عندما يكون مستعدًّا لذلك، ولِمَ العجلة وهو ما زال صغيرًا في العمر وأمامه سنوات دراسةٍ طويلةٌ قادمة، ومن الأحسن ألَّا يثقل ظهره بالأطفال والمسئوليات الأسرية، وأضافت: «ستناسبك ابنة وزير ثري، كانت صديقتي في المدرسة الخاصَّة اسمها «سُهى». أبوها وزير متدين وتقي وثري، وهو يمتلك كُلية طبٍّ خاصَّةً ولديه عددٌ كبيرٌ من المستشفيات. بنوتة جميلة ورقيقة وناعمة زي الحرير، وستدرس الطب في «رُوسيا»، وعندما

تتخرَّج ستدير أعمال والدها. ماذا تفعل بزولة مثل «رشا»؟ فقيرة وجربانة!»

لن يأخذ كلَّ ما قالته أخته عنها في الحسبان، ولكنه أيضًا لا يلقي به كلَّه جانبًا، فإنه لن يتزوَّجها بين يوم وليلة، ستكون هنالكَ فترة خطوبة، وهي قد تطول، وبإمكانهما أَن يقرِّرا في شأن أن يتزوَّجا أو ينفصلا. هو يريد أن يرضي أمَّه وأباه الآن، «رشا» في نظره بنت فاضلة وستكون زوجةً مثالية، وكلام أخته قد لا يخلو من الغيرة: «وما فائدة الزواج من ابنة وزير ثري؟ ولدينا نحن من المال الكثير؟»

قالت له «رشا جبريل» إنه بإمكانهما أن يمرَّا على التوأم في البيت بـ«زقلونا» ويأخذانهما معهما، ثمَّ يأتون إليها في الجامعة، ومن ثمَّ يمضون إلى المنتزه العائلي بـ«المقرن» وهو المكان الذي تحبُّه التوأم ويغرم به «فراج» غرامًا شديدًا.

عندما أخبرت «أدومة» بأن هنالكَ فكرةً تدور في رأس العائلتين بأن يتمَّ زواجها بـ«السر فتح الله فراج»، لم تبدُ على وجهه علامة غيرة أو أيُّ تعبيرٍ قد تفسِّره بأنه عدم رضا بالخبر، ولكنه أبدى دهشته من كيف إنها ستتزوَّج رجلًا يعمل بالأمن، أليس هو الأخ الأكبر لـ«ميرم» زوجة صديقه «أحمد زكي»؟ وهي تدعو للحريات والخير والجمال. كان جادًّا بصورةٍ بالغة الغرابة، وقد عرف منها من قبل أن «السر» قد ترك العمل بالأمن، إلا إنه علَّق في حينها، بأن العمل

بمثل هذه الهيئات مرةً واحدةً تبقى للأبد. ما كانت تظنُّ أنها في الحالة المزاجية التي تمكِّنها من أن تشرح له من هو «السر فتح الله فراج»، إذا عمل في الأمن أو الشرطة، أو كان مشردًا في أزقة «أم درمان»، أو كان عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. ولكن غاظها أكثر عدم اكتراثه لحقيقة أنها ستتزوَّج غيره، وهي حبيبته على الأقل إلى الآن، وتناوله لقضيةٍ تعتبرها جانبيةً ومسألة اختيارٍ لا غير. هي تعرف أنهما لن يتزوَّجا، وتعرف له رأيًا متطرفًا في الزواج، لقد قال لها ذات مرة: «إذا كان هنالكَ عدوَّان للروائي فهما: الزواج والـ **writer's block**.» ولكنها ما كانت تظنُّ أن الخبر يمرُّ بهذا البرود، كانت تفضِّل معركةً صغيرةً تافهة، على القبول بالأمر الواقع، كتلكَ المعارك المشكوك في جديتها التي عادة ما يفتعلها «أدومة» معها عندما يحسُّ بأن رجلًا ما يقترب منها، ليست تافهةً تمامًا ولكنها قذرةٌ وتدلُّ على الغيرة الممزوجة بالشكِّ والأنانية، وهي على كلٍّ تفضِّلها على الصمت وادعاء أن الأمر لا يهمُّ من قريب أو بعيد. في الحقيقة، بدأ الارتياب يدبُّ في أوصالها عن حقيقة الحبِّ الذي بينهما، أيُّ نوعٍ من الحبِّ هذا؟ أجابَتْه بجملةٍ قصيرة: «الناس تختلف يا أدومة.»

عرَّفَتْه للمرة الأولى بـ«أدومة»، هما يعرفان أحدهما الآخر من خلال أصدقاء مشتركين مثل «أحمد زكي» وآخرين، كما إن «السر» قد شاهد صورة «أدومة» في بعض الصحف السيارة، ربما منذ سنةٍ

مضت. لم يقرأ له شيئًا يُذكر، ولا حتى الموضوع الذي عليه صورته، فهو ما كان يهتمُّ بأمور الأدب والثقافة، كما إنه لم يصادف أن كُلِّف بعملٍ وسط المثقفين، فقد كانوا يستخدمون المثقفين أنفسهم في الوشاية بزملائهم المثقفين، فهم أقدر على قراءة نيات بعضهم البعض وتفسيرها تفسيرًا صائبًا يقود إلى اغتيالٍ أو اعتقالٍ مُبَرَّرٍ ومدعومٍ بالأدلة الدامغة.

«أدومةً» قابل التوأم من قبل في «زقلونا»، تعرَّفتا عليه اليوم بسهولة. حملهما على كتفيه في آنٍ واحد، كلًّا على ذراع، فقد كانتا نحيفتين وسعيدتين. عندما وضعهما على الأرض حمل «فراج» وأنزله بهدوء، وهي طريقته في تحية الأطفال ذوي الأحجام الصغيرة. استأذن الجميع. ركبوا حافلة من أمام «جامعة الخرطوم» إلى منتزه «المقرن». مضى هو نحو المركز الثقافيِّ الألمانيِّ ماشيًا على قدميه، كان يردِّد نصًّا قد ارتجله للتو:

«المرأةُ مثلُ الريح،
إذا أطلقتَها ذابتْ في ريحٍ أعظمَ وتركتكَ بغيرِ هواء،
وأنا بغيرِ البنتِ لا أسوى فقاعة،
والمرأةُ دوني تسوى جوقةَ أشجارِ الغاباتِ وصحراءَ الملكوتِ الأعظم.
المرأةُ غيري نصفُ إله،

والنصفُ الآخرُ: بَحْرٌ.»

ذُكِرَ في الإنجيل أن الحقيقة تطلقكَ حُرًّا. للمرَّة الأولى يكتشفان أن الحاجز بينهما كان كبيرًا وثقيلًا جدًّا، بل أحسَّا بأنهما غريبان عن بعضهما البعض عاطفيًّا بصورةٍ لم تخطر ببال أحدهما. مرَّ «السر» بمواقفَ كثيرةٍ عصبيةٍ في حياته، ولكنه تجاوزها بنجاح، لم يكن كما تظنُّ أمُّه أو تظنُّ «رشا» أو الراوي الذي قال في مكانٍ ما إنه ليس للسر علاقاتٌ بالنساء أو تجارب في الحياة ثرية، أو ربما إنه استطاع أن يخفي ذلكَ الجانب من حياته بصورةٍ طيبة، ولكن تظلُّ تلكَ التجارب باهتة، وليس هنالكَ ما هو مميزٌ أو باقٍ أو له أهمية سردية. كان اللقاء بينهما لقاءً حاسمًا ونهائيًّا، وهو لقاء المصير فيما يخصُّ مستقبلهما معًا. انتهى كلُّ شيءٍ بأسرع ممَّا كانا يتصوَّران، انتهى إلى بوابةٍ لا تفضي إلَّا إلى لا شيء. على الرغم من أن «السر» ما كان مستعدًّا لهذه النتيجة ولا هي أيضًا، فإن «السر» يظنُّ أن «رشا جبريل» قد قبلت به فعلًا، ولا يجد تفسيرًا لقبولها الخطوبة في الأصل، واستقبالها للخاطبات، ولكنها قالت له إنها كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن الأمر يمكن أن يحدث، كما إن أمَّها وأمَّه كانتا متحمِّستين للأمر، وإن أمَّه بالذات تعتبر تلكَ معركة حياتها. كان الإصرار قويًّا وعنيفًا وكاسحًا، ولم يترك لها مساحة غير أن تقبل بالخطوبة، والخطوبة ليست هي الزواج، إنما فترة للتفكير والمراجعة، وكان هذا هو شرطها وقبلت

به أمُّه وأمُّها. وكانت «رشا» تفكِّر بعمقٍ طوال تلكَ الفترة، ولكنها لم تستطع أن تتخيَّل نفسها زوجةً له.

– مستحيل، نحن أخوان وحنظلّ أخوان!

نعم، فهم «السر» هذه الجملة جيِّدًا، بمعنى: إنني لا أحبُّك. وهو لا يلومها، فهو أيضًا لا يحبُّها، ولكنه يرغب فيها أن تصبح زوجةً له لصفاتها الطيبة، ومن أجل إصرار أمِّه الغريب على الأمر، يريد أن يحقِّق لأمِّه إحدى أمنياتها، ويعرف أن الحبَّ قد يأتي بعد الزواج أيضًا. هل لأنها تحب شخصًا آخر؟ّ هل رفضته من أجل «أدومة» أو غيره! لم يبحث كثيرًا في الإجابات، ولكنه بدا غريبًا جدًّا أمامها عندما أصرَّ قائلًا:

– سنتزوَّج يا «رشا»! سأتزوَّجكِ أنا متأكد.

كانت قد فوجئت به تمامًا؛ لم يكن هذا هو «السر» الذي تعرفه، تحدَّث بعنفٍ وبصورةٍ بشعة، بطريقةٍ أقرب للأوامر العسكرية. فكَّر في أنها في الحقيقة لم تعرفه جيِّدًا، أو لم تعرف أن له شخصيةً أخرى. أم إنه يحبُّها فعلًا، وليست تلكَ إلَّا ثورة الغيرة وعلامة تعبِّر عن رفضها له؟ أم إن «السر» عندما ترك الجندية كوظيفةٍ أصبح جنديًّا في روحه، وانمسخت نفسه الطيبة الجميلة إلى آلة أوامر؟ ردَّت وهي تحملق فيه:

– ما فهمتك!

- قلت ليك ح نتزوَّج وبس.

- يعني بالقوة والرجالة مثلًا؟

قال وفي فمه ابتسامةٌ تثير الشفقة:

- ما عارف!

هل كانت تلك آخر مرة يلتقيان فيها، لا بالطبع، فقد حضرت زواجه بعد عامين من «سُهى» ابنة الوزير الثري، التي طلَّقها بعد أن أنجب منها طفلًا أطلق عليه اسم المرحوم والده «فتح الله فراج» وسافر إلى دولةٍ عربيةٍ ثريةٍ في هجرةٍ نهائيةٍ لم يعد منها مرةً أخرى للسودان، فبعد تلك الحادثة الغريبة التي ستُحكى في الفصل القادم، أحسَّ «السر» بأن عليه ديونًا كثيرةً سيقوم بسدادها، وخطايا شاسعاتٍ عليه تكفيرها، وأن تلك كانت بداية؛ فالمرة الأخيرة التي شاهدته «رشا» فيها بعد زواجه، كانت في يوم زواجها هي في «جُوبا» يوم استقلال الجنوب.

حِكَايَةُ السِّر

حدث شيءٌ هزَّ قناعته من العمق وغيَّر نظرته في أشياء كثيرة، وربما غيَّر مجرى حياته للأبد. مثل تلك الشِّراك الحياتية التي ما إن يقع فيها الإنسان إلا ولا يعود هو ذات الشخص الذي كانه من قبل. اللحظة الفاصلة الكائنة ما بين ذلك الشخص وبينه، ولكنه لا يميِّزها إلا بتضافر إرادة نجم النحس ونجم السعد في ذات مدار الوجود الخاصِّ بالكائن. مثل لعبة رمي النرد.

كعادة حدوث الأشياء في هذه الأسرة، فإن خاله هو الذي دبَّر له السفر إلى الدولة العربية الثرية للعمل ضمن موظفي السفارة في قسم الملحق العسكري ضابطًا للأمن. حيث بدا واضحًا أن العسكرية قد أفسدت طبيعة «السر» وأنه لا ينفع في الدراسة، والسبيل إلى نجدته هو أن يعود إلى الجندية مرةً أخرى. فليكُنْ في وظيفةٍ أمنيةٍ أكثر نعومة، في بلادٍ لا حروب فيها ولا مخاطر تهدِّد الحياة. حدث ذلك بكلِّ سهولةٍ ويسر، بطلبٍ عبر التليفون تم إنهاء خدمة ضابط الأمن السابق الذي قد انتهت صلاحيته تمامًا بعد أن أُقِيل الوزير الذي كان قد رشَّحه للعمل بالسفارة قبل سبع سنوات وانضمَّ لصفِّ المعارضة. ففقد الضابط المسكين في لحظةٍ خاطفة، كلَّ مؤهِّلاته لشَغل الوظيفة الطيبة الحلوب. ومسألة إحالته للمعاش كانت رهان وقتٍ ليس إلا. ولم يكن هو مستغربًا ذلك، بل العكس، كان يرى أن الأمر طبيعيٌّ جدًّا وهو ينتظر بديله ليسلِّمه المَهام، ويبحث هو عن عملٍ آخر في ذات الدولة العربية، فأثناء عملة بالسفارة أنشأ قاعدة صداقاتٍ ومعارفَ جيدةً يمكنه الآن استثمارها من أجل الحصول على وظيفةٍ جديدة: ليس حاقدًا أو كارهًا أو حزينًا، فالدوام لله وحده.

أمَّا في حالة «السر» فإن الوظيفة تناسبه تمامًا، بل مفصَّلة على مقاسه، فهو قد عمل في الأمن والعسكرية منذ طفولته، في أماكن تشتعل فيها الحروب، وعمل أيضًا في الخرطوم بين الطلاب والعمال والمثقفين، وعمل أيضًا في الجزيرة وسط المزارعين والعاطلين عن العمل والشيوعيين الناقمين على كلِّ شيءٍ حتى أنفسهم. ولديه خبرة جيدة في معرفة نيَّات البشر وكشف ما سيقومون به وما يبطنون من شرٍّ أو خير الأعمال. ولكن، يظلُّ المؤهِّل الأكبر والأكثر رسوخًا وعلمًا ومنطقًا هو أن خاله ما زال يعمل في مكتب الرئيس كأقرب شخصيةٍ من سيادته؛ الشخصية التي يرتاح لها جلالة الحاكم نفسيًّا ويصبح بين ظهرانيها كما لو أنه مع نفسه، حيث لا يشعر بالحرج من أن يتجوَّل في لباسه الداخليِّ ويطلق بعض ضرطات في الهواء، أو ينام مع إحدى زوجاته في الغرفة الأخرى تاركًا بابها مفتوحًا أو مواربًا؛ أي الشخصية التي يسقط في حضورها كلُّ البروتوكولات الرسمية والأمنية والاجتماعية والشخصية، وأحجبة المكان والزمان.

لم ينسَ «السر» «سُهى» وولده «فتح الله»؛ فهو يحبُّ ولده وأيضًا يحبُّ زوجته، إلا إن إصرار زوجته على حُريَّتها المُطلقة هو الحجاب السميك الذي لم يستطع تجاوزه. فقد اعتادت أن تكون حرةً في بيت أبيها الوزير الثري. نعم يحدث ذلك دائمًا دون علمه ووراء ظهره، ولكنها كانت تجد المكان والزمان الخاصَّيْن اللذين تمارس فيهما

حريَّتها، ولكن وجود «السر» الدائم معها في ذات البيت، وحيث إنها لا تعمل أيضًا (جمَّدت دراسة الطبِّ في ماليزيا بعدما حبلت ببنتها) و«السر» يرغب في زوجةٍ أكثر تقليدية؛ أي امرأة تهب حياتها له وللبيت وليس لنفسها، وهذا لم يكن ممكنًا في حالة زوجته «سُهى» فهي لا ترغب في زوج — على حسب تعبيرها — يكتم نفسها. وعندما طلب منها أن تسافر معه للدولة العربية، قالت له بصورةٍ واضحة: «أنا خُلقتُ لأحيا في السودان.»

وفهم أنها تختار حريَّتها، ولم يستطع مقاومة رغبته في الابتعاد عن السودان، منذ أن فشل مع «رشا» قبل بضعة أعوام. كان يريد أن يذهب لأيَّة بقعةٍ أخرى في العالم؛ فوجد اقتراح خاله جيِّدًا ومعقولًا. وهو الآن يعمل في السفارة بجهدٍ وبحبٍّ ويحاول أن يقدِّم خير ما عنده. أوَّلًا: يريد ألَّا يخذل خاله، وثانيًا: هو يحبُّ العمل الأمنيَّ، كما إنه ليست لديه خلافاتٌ سياسيةٌ مع الحزب الحاكم، بل في كثيرٍ من الأحيان يعتبره هو الخيار الأمثل لحكم السودان، نسبةً للمسحة الإسلامية فيه وهي توافق هواه كثيرًا، ويرى أن تلك الإخفاقات الصغيرة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، ليست سوى معضلاتٍ متوارثةٍ من أنظمة الحكم في السودان منذ الاستقلال، ولو أنه لم يجد مبرِّرًا كافيًا للقسوة القصوى التي تتعامل بها السُلطة على الأرض مع المواطنين في مواقع القتال، إلا إن للحرب منطقها كما

علَّمه قادته العسكريون.

حدث شيءٌ هزَّ قناعته من العمق وغيَّر نظرته في أشياء كثيرة، وربما غيَّر مجرى حياته للأبد. مثل تلك الشِّراك الحياتية التي ما إن يقع فيها الإنسان إلا ولا يعود هو ذات الشخص الذي كانه من قبل. اللحظة الفاصلة الكائنة ما بين ذلك الشخص وبينه، ولكنه لا يميِّزها إلا بتضافر إرادة نجم النحس ونجم السعد في ذات مدار الوجود الخاصِّ بالكائن. مثل لعبة رمي النرد. طلب منه خاله أن يقوم بعملٍ سريٍّ للغاية ومهم، وهو أيضًا شخصي. في الواقع كان عملًا أمنيًّا روتينيًّا، وهو أن يأخذ نُسخةً من مفتاح شقةٍ يمتلكها أحد الدبلوماسيين الكبار بالسفارة، غير مُعلنٍ عنها؛ أيْ شقةٍ سريةٍ من المفترض ألَّا يعلم بموقعها أحد، وهذا ليس عملًا صعبًا أو مُعقَّدًا لرجلٍ عمل حياته كُلَّها في التجسُّس على الآخرين وفحص نيَّاتهم. استغرق منه العمل قرابة الشهرين، ثمَّ أخبر خاله بأنه فعل ذلك، وتعرَّف على موقع الشقة، بل مرَّ أمامها مرتين دون علم أيٍّ كان:

«فماذا تريد مني أن أفعل بعد ذلك؟»

حسنًا، يوجد تمثالٌ نوبيٌّ قديمٌ صغيرُ الحجم من البرونز، في مكانٍ ما في شقة هذا الدبلوماسي، عليه أخذه والاحتفاظ به في مكانٍ آمنٍ إلى حين إخطارٍ آخر. في اتصالٍ من خاله بعد أيامٍ قلائل، عرف أن الدبلوماسيَّ سيسافر في تاريخٍ محدد، وعليه أن يذهب في ذلك اليوم

بالذات لأخذ التمثال.

لم يجد التمثال، بحث في كلِّ مكانٍ بالشقة، ولم توجد خزنةٌ مغلقة، كانت الشقة بسيطةً جدًّا، ولو أنها نظيفةٌ وبها حجرة نوم واحدة، ومطبخٌ صغيرٌ وحمام، ليس بها مخزن، وغرفة المعيشة ملحقةٌ بالمطبخ. تبدو الشقة الصغيرة كما لو أنها غرفة عملياتٍ سريةٍ خاصَّةٍ جدًّا. على كلٍّ هي لا تليق بدبلوماسيٍّ رفيع المستوى كسكن أو حتى مجرَّد غرفة راحةٍ بعيدةٍ عن ضوضاء العمل وزحمته اليومية. يمكن أن يحصل على واحدةٍ أكثر جمالًا وسرية.

كرجل أمنٍ كان حريصًا جدًّا على أن يخفي أثره، وأن يصوِّر بكاميرا جوَّاله كلَّ بقعةٍ قبل فحصها، حتى يعيدها بعد الفحص إلى حالها كما كانت قبله دون أيِّة أخطاء. ولم ينسَ أن يضع قفازاتٍ من القماش في كفَّتيه، وأن يلبس حذاءً غير بارز السطح ولا يترك أثرًا. وظلَّ ما يقارب الساعتين في البحث وإعادة البحث، حيث إن الشقة كانت صغيرةً ويمكن ضبطها والعمل فيها بسهولةٍ وبدقَّةٍ وترتيب. وكان في كامل الأهبة للعمل حتى الحصول على التمثال، لأن خاله لا يمكن أن يعطيه معلومةً خاطئة، فهو يؤمن بينه وبين نفسه أن خطأ خاله هو أيضًا صواب. ولكنه فجأةً أحسَّ بأن هنالكَ خطأً ما، عندما سمع خُطًى تقترب من الباب حوالي التاسعة مساءً، وكان حينها في غُرفة النوم، وبحسِّه الأمنيِّ وبرشاقةٍ لم يفكِّر كثيرًا في ما سيقوم به،

حيث إنه أدخل جسده كلَّه تحت السرير الضخم، وصَمَتْ.

كانا رجلين. استطاع أن يميِّز صوت الدبلوماسيِّ الذي كان يجب أن يكون في هذه اللحظة في جزيرة «كريت» باليونان. فخاله لا يخطئ. الآخر أيضًا سودانيٌّ تعرَّف على لكنته العربية، ولكنه لم يتعرَّف على شخصيته، حيث لم يكن صوته مُعتادًا. يتحدَّثان بصورةٍ متواصلةٍ ويضحكان بأعلى ما لديهما من صوت. يدور الموضوع حول شخصٍ وصفاه بـ«الأهبل الأكبر أبو ريالة»، وكان ذلك الرجل في زيارةٍ للدولة التي يقيمان فيها قبل أسبوع. واستطاع «السر» أن يتعرَّف على الرجل موضوع نقاش الرجلين؛ ممَّا جعله يضحك بصورةٍ مكتومة، فقد كان وصفهما له دقيقًا جدًّا. والغريب في الأمر أن الدبلوماسيَّ كان في صحبته طوال فترة زيارته، وهما في ذات الحزب السياسيِّ الحاكم، وأنه تحدَّث عن الرجل في اجتماعٍ خاصٍّ بالسفارة واضعًا إيَّاه في مرتبة صحابة الرسول، بل إن المهامَّ التي يقوم بها الرجل لم يمتحن الله بها رسوله وصحابته في الماضي، نسبةً لتعقُّد أمور الحياة الآن، ولكلِّ زمانٍ رجاله: «وأنت رجل هذا الزمان!»

ثم أصبحا جادَّين وهما يتحدَّثان عن «الصنمين» البرونزيين اللذين أحضرهما معه الشيخ «أبو ريالة»، وكيف إنه يريد سعرًا خاصًّا له وسعرًا آخرَ للشركاء بالخرطوم، ولكنهما اتفقا على أن يضعا الشحنة الأخيرة مع التمثال المتبقي من الشحنات السابقات، وأنهما

سيحتفظان بالنقود كلِّها مناصفةً بينهما، وأنَّ: من لديه الجرأة فليقم بتقديم شكوى ضدَّهما.

وبدا واضحًا أن الذي في صُحبة الدبلوماسيِّ هو وسيطٌ لبيع الآثار التي يتمُّ تهريبها عن طريق الحقيبة الدبلوماسية من داخل السودان وربما من المتحف القومي الذي سمع أحدهما قد أشار إليه في حديثه، ويتمُّ بيعها في هذه الدولة عن طريق وسطاء. ثمَّ سمع صليل بعض الزجاجات، ووصله شميم الويسكي، ومن ثمَّ أخذ الدبلوماسيُّ يعزف على عودٍ كان قد شاهده «السر» في حجرة النوم، وأخذا يغنِّيان. إلى أن بُحَّت أصواتهما. وأصبحا يتحدَّثان بلسانين ثقيلين. ثمَّ توقَّف الغناء. وظنَّ «السر» أنهما ناما، لولا أن السرير الذي يرقد هو تحته وهُما عليه، أخذ يهتزُّ بصورةٍ مريبةٍ هابطًا وصاعدًا. ثمَّ سمع ما لا يشكُّ في أنه همسات مضاجعةٍ بين شخصين بالغين، واستمرَّ الحال لفترةٍ من الزمن كانت طويلةً نسبيًّا. ثمَّ اختفى كلُّ شيءٍ تدريجيًّا، وبعد قليلٍ سمع شخيرهما عاليًا، فخرج ببطءٍ من تحت السرير، ليجد زجاجات الويسكي الفارغة، والعود مرميًّا على الأرض، وبقية المزة على المنضدة. كما إنه قد شاهد ثلاثة تماثيل على الأرض أيضًا. كانا عاريين، ويحضن الدبلوماسيُّ الرجل الآخر الذي يعطيه ظهره وهما نائمان ويشخران، كانا سمينين وشحيمين.

لا يدرى لِمَ تذكَّر في هذه اللحظة أشياء كان قد شاهدها في ميدان

القتال: الأطفال المشويين، قنابل الأنتنوف البرميلية، الطود وهو يصرخ. مرَّ على مخيلته القائد وهو يحمِّس جنوده ويحثُّهم على قتل الكفار المتمردين، من أجل دولة الإسلام والدين. الجنود زملاؤه وهم يموتون. لا يدرى لِمَ تذكَّر مئات الثوار من يساريين ويمينيين وطلابٍ ومزارعين قد وشى بهم هو نفسه عندما كان يعمل في الأمن، وبعضهم تمَّت تصفيته. كان يحسُّ برأسه يدور في رعب، وآلاف العيون تنظر إليه تحملق في وجهه.

جلس على الكرسيِّ قبالتهما. صبَّ لنفسه كأسًا كبيرة من الويسكي. اجترعها بهدوء. أخرج جوَّاله وصوَّرهما عدة صورٍ بدمٍ باردٍ وتروٍّ. أرسل الصور إلى بريده الإلكتروني. نهض ومشى نحو الباب. كاد أن يخرج من الحجرة، أخذ التماثيل الثلاثة، قرَّر بينه وبين نفسه أنه سيعيدها للمتحف القوميِّ في اليوم الذي تكون فيه حكومةٌ وطنيةٌ تحترم تاريخ وإرث البلد، ولكن ليس قبل ذلك، لأنه يخشى أن ترجع التماثيل مرةً أخرى إلى السوق إذا أعادها الآن.

وهو خارجٌ تذكَّر شيئًا أو إنه انتبه إلى شيء؛ فعاد أدراجه في هدوء. ذهب نحو المطبخ. حرَّر أنبوبة الغاز من الموقد وفتحها بكامل طاقتها. حملها باهتمامٍ بالغ وبسرعة. أدخلها غرفة النوم. أغلق المكيِّف. ثمَّ خرج وهو يغلقً البابَ خلفه.

كان«السر» ضمن المجموعة الأمنية التي وجدت الجثتين، وكانت

تتكوَّن من شرطة مباحث البلد الذي هم فيه، ومبعوث السفارة مع الملحق العسكري وعربة إسعاف. حدث ذلك بعد ثلاثة أيام من اليوم الذي مات فيه الرجلان مخنوقين بالغاز. حيث لُوحظ اختفاء الدبلوماسيِّ متأخرًا جدًّا، فقد سافر بالفعل، ولكنه رجع في نفس اليوم دون علم أحدٍ ليقضيَ إجازته في خلوته. واتضح لفريق المباحث بعد التحرِّي أنه دائمًا ما كان يفعلُ ذلك، وبيَّن الطبيبُ الشرعيُّ أن الرجلين كانا عشيقين، وقد سالت بينهما مياهٌ ذكوريةٌ كثيرة. تمَّ قفل الملف بكلِّ هدوءٍ بطلبٍ من حكومة السودان وأسرتَيِ المرحومين: فإكرام الميت دفنه وقصَّةِ موته معًا.

سِفْرُ الْبَيْت

بنظرةٍ متفحِّصةٍ لهذا البيت الهادئ الساكن من الخارج، تتضح أمورٌ أخرى ذات أهميةٍ يُقدَّر حجمُها وفقًا لزاوية النظر إليها، فبالعض يسكن عند الزاوية العمياء، وعندها تكون الرؤية متفائلةً لأن وقوفه في ذلك الموضع يعطي وجهه وعقله للضوء، وبذلك يمتلك الروح التي ترى. والبعض ينظر إليها من الزاوية المبصرة، وهذا أيضًا يكون مصابًا بداء التفاؤل، عندما يعطي ظهره للضوء مكتفيًا بعلاقةٍ موهومةٍ بالظل، فتتلبَّسه روح النور. أمَّا الذين ينظرون للأمر وهم في الزاوية العمشاء التي ما بين الظلِّ والضوء، فإنهم لا يرون الظلَّ ولا يرون الضوء، بل أكثرهم لا يرى الزاوية نفسها.

إذن علينا سرد ما في البيت، حتى تكتمل صورة الفراغ المسكون بالبشر من أركان البيت الأربعة: الأمُّ والأطفال الثلاثة «أحمد زكي»، و«سُهى»، و«ميرم».

بعد مغادرة «السر فتح الله فراج» إلى بلدةٍ عربيةٍ ثرية، في رحلةٍ أطلق عليها صفة «الأخيرة»، أو رحلة اللاعودة، وكان والده «فتح الله فراج» قبل ذلك قد غادر إلى ما يُشبه الدار الآخرة، وهي أيضًا رحلةٌ في اتجاهٍ واحدٍ تأخذ المسافر إلى مصيرٍ لا إرادة له في تغييره، وليست به خيارات، وتستحيل إدارته ذاتيًّا، حين مضى إلى استراحة انتظار الملوك في جزيرة «ناوا». بقي في البيت الكبير ثلاثة أسر، إذا اعتبرنا أن الأمَّ والصغير «فراج» أسرةٌ قائمةٌ بذاتها، وهما يشغلان الطابق الأرضي، ثم «زكي» وزوجته «ميرم» وهما يحتلان الطابق الأوسط، وزوجة «السر» أو طليقته وطفلها «فتح الله السر» وهما يقيمان في الطابق الأعلى. وعلينا أن نوضِّح أيضًا أن «سُهى» زوجة «السر» رفضت دعوة والدها لها بالعودة إلى قصره المُنيف الذي لا يبعد كثيرًا عن بيت أسرة فراج، وذلك بعدما تم انفصالها عن «السر»، حيث إن العلاقة الطيبة والمتينة ما بين «ميرم» و«سُهى» أجبرتهما على أن تظلَّا قريبتين من بعضهما البعض، وأن تبقى «سُهى» في شقة طليقها «السر فتح الله» هي وطفلها، وقبلت الأمُّ بل كانت تفضِّل أن تبقى «سُهى» بطفلها قريبةً منها، نسبةً لمحبَّتها لطفل ابنها ورغبتها في أن ينمو تحت

يدها وبرعايتها، وكان الطفل يقيم معها بصورةٍ شبه دائمة، ومعها طفل ابنتها الذي يكبر «فتح الله» بسنةٍ تقريبًا، و«فراج فتح الله» ابنها الذي أصبح طويلًا وبدأ ينضج ويخلق العوالم التي تخصُّه، تاركًا أمَّه للطفلين الصغيرين الشقيين يؤنسان وحدة الجدة ويسامرانها.

بنظرةٍ متفحِّصةٍ لهذا البيت الهادئ الساكن من الخارج، تتضح أمورٌ أخرى ذات أهميةٍ يُقدَّر حجمُها وفقًا لزاوية النظر إليها، فبالعض يسكن عند الزاوية العمياء، وعندها تكون الرؤية متفائلةً لأن وقوفه في ذلك الموضع يعطي وجهه وعقله للضوء، وبذلك يمتلك الروح التي ترى. والبعض ينظر إليها من الزاوية المبصرة، وهذا أيضًا يكون مصابًا بداء التفاؤل، عندما يعطي ظهره للضوء مكتفيًا بعلاقةٍ موهومةٍ بالظل، فتتلبَّسه روح النور. أمَّا الذين ينظرون للأمر وهم في الزاوية العمشاء التي ما بين الظلِّ والضوء، فإنهم لا يرون الظلَّ ولا يرون الضوء، بل أكثرهم لا يرى الزاوية نفسها. إذن علينا سرد ما في البيت، حتى تكتمل صورة الفراغ المسكون بالبشر من أركان البيت الأربعة: الأمُّ والأطفال الثلاثة «أحمد زكي»، و«سُهى»، و«ميرم».

سنبدأ بـ«أدومة»، ولم تكن فكرة إدخال «أدومة» في هذا البيت من بنات أفكار صديقه «أحمد زكي»، ولكنها كانت من بنات إبليس خاطر «ميرم». ولم تمضِ الخطة طويلًا، حيث إن «سُهى» اعترضت عليها بجملةٍ واحدةٍ بسيطة: «نعم، «أدومة» وسيم، ولكنه صغيرٌ

في العمر.» ويبدو إنها اكتفت بفشل علاقتها مع «السر» الذي لم يكن ناضجًا بصورةٍ طيبةٍ وفقًا لنظريتها الخاصَّة بالرجال، فعندها الزوج يجب أن يكون رجلًا وليس طفلًا، لأن عليه أن يتحمَّل ثلاث مسئوليات: إشباع العقل، والبطن، والجسد. وكان «السر» لا يفعل غير واحدة فقط، وهي إشباع الجسد، وبذلك يمكن أن يحلَّ محلَّه جهاز «الفايبريتر» **vibrator** الذكوري. وفي حالة «أدومة» قد يكون بإمكانه إشباع اثنين: الجسد والعقل، وتظل البطن فارغة، فالكُتاب دائمًا ما يكونون فقراء، هذا إذا لم يكن أيضًا مصابًا بعجزٍ جنسي، من يدري، في رأيها أن اللواط شائعٌ في طبقة المثقفين، وهي أيضًا لا ترغب في الزواج من هذه العينة من الرجال الذين يتحدثون كثيرًا ولا يفعلون سوى القليل، تحبُّ الرجل العمليَّ الموضوعيَّ مثل أبيها.

وظلت هكذا بدون زوج، وكان هذا اختيارها المحض، وعلينا أن نوضِّح أنه لم يتقدَّم لخطبتها شخصٌ آخر بعد طلاقها من «السر فتح الله فراج»، ربما هنالكَ رهبةٌ ما من البعض؛ أيْ إنهم يخشون الاقتراب منها نسبةً لوضعية والدها الغريبة المُعقدة، فهو سياسيٌّ وثريٌّ وأكاديميٌّ ورجل دينٍ في آنٍ واحد، من ذلك النوع المُرعب؛ أيِ الأثرياء الذين تحصَّلوا على أموالهم من منجم السياسة الناهض على دم الشعوب؛ أيِ الذين لا يمكن الفصل بينهم وبين الآلة

السلطوية الحاكمة، وبذلك يصبح أشبه بمكتبٍ حُكوميٍّ سريٍّ، أو عربةٍ رئاسيةٍ مصفحة، أو خزينة وثائقٍ عامَّةٍ، أو خطبة إسلامٍ سياسي. ولكنه يظلُّ دائمًا أبعد من أن يكون إنسانًا عاديًّا: يذهب للمرحاض، ويأكل البصل، ويشرب الماء، ويستمع لأغنيات «عثمان حسين»، وتُطلَب ابنته للزواج.

تختلف الصديقتان في فهمهما للحياة، ونظرتهما للعالم، وتتفقان في أشياء صغيرة، ولكنها كثيرةٌ ودقيقةٌ جدًّا ومهمَّة من أجل الحياة اليومية، فـ«سُهى» عندها قدسية خاصة لحريتها الشخصية وهي لا تتنازل عنها مهما كلَّف ذلك، وحسب تعبيرها: «ليس من أجل رجل أو أب أو رب.» وهي النقطة ذاتها التي مهَّدت لانفصالها الأبدي عن زوجها «السر فتح الله فراج» الذكوريِّ المؤمن. بينما ترى «ميرم» أن حريتها الشخصية بل حياتها كلَّها مرتبطةٌ بـ«أحمد زكي» وموهوبة له، في حالةٍ أقرب للتوحُّد، وهي لا تخجل من أن تعلن مرارًا وتكرارًا أنها تفعل كلَّ ما يطلبه منها «أحمد زكي»، وقالت ذات مرةٍ لأمِّها: «إذا كفر أحمد زكي بالله ورسوله، أنا برضو بكفر بدون سؤال.» ولكن أمَّها كانت تفهم ذلك من باب: «المرأةُ على دينِ بعلِها.»

أمَّا الأشياء الصغيرة التي تجمع «ميرم» و«سُهى»، فهي حبُّهما للحياة؛ لمتع الحياة الصغيرة جدًّا، عشقهما لما تسمِّيانه التفاهات والترهات والضلالات والفسق النبيل، وهو لا يضرُّ أحدًا وليس

موجَّهًا ضدَّ أحد ولا يجب أن يكون اهتمام أحد غيرهما هي و«أحمد زكي». ومن خلال علاقة المرأتين عرف «أحمد زكي» الكثير عن زوجته «ميرم»؛ عرف تفاصيل كانت غائبةً عنه، تفاصيل عن حياتها السرية، والعلنية أيضًا. سوف لن نخوض في ذلك كثيرًا، فللأسرار حُرمتها، ولكن كان على المرأتين أن تخبرا «أحمد زكي» ببعض الحقائق لكي تستمرَّ أشياؤهما الصغيرةُ صغيرةً وباقية. وإذا أمكن أيضًا، سيكون هو جزءًا مهمًّا من هذه الأشياء، فلقد كان في يوم ما هو أحد الموضوعات الصغيرة للبنتين، عندما كانتا في المدرسة الثانوية الخاصَّة في ذلك الحين. ذات يومٍ فاجأنه بسرِّهن، حدث ذلك في الأسبوع الأوَّل لطلاق «سُهى» منٍ «السر» ومغادرته إلى حيث يقيم، حيث كان يصعب ذلك مع وجود «السر فتح الله» في حياتهما؛ لقد وصفتاه في مراتٍ كثيرةٍ بـ«المتطرف الموهوم».

لم يكن الأمر مفاجئًا لهما؛ أن يتقبل «أحمد زكي» كل شيء، بل قال لهما إنه كان قد لاحظ بعض الأشياء. حسنًا، منذ ذلك اليوم تغيَّرت عادات الأسرة؛ أولًا صارت الأسرتان تقريبًا أسرة واحدة في برامجها المسائية، حيث إنهم، بعدما يرسلون الأطفال إلى الجدة «نصرة»، يبدؤون برامج المساء، وهي برامج أشبه ببرامج بيوت «العزابة» الأثرياء، يضعون فيلمًا جديدًا في الـ«بروجكتر»، ويعرضونه على حائط في الحجرة، ثم قاموا بتهيئة شاشة كبيرة جيِّدة، حيث إن

المرأتين تحبَّان السينما، ويحبُّها لحدٍّ ما «أحمد زكي»، ولكن الذي يحبُّه «أحمد» أكثر، هو برامج الشرب، بجهاز استولت عليه «سُهى»، وكان قد استورده أحد شغيلة والدها، لتقطير الخمور في المعامل للإغراض العلمية بإحدى جامعاته. ربما بعلم والدها وإغاضئه النظر، فالبنت ذات شخصيةٍ قويةٍ وتفعل ما تشاء، ويفضِّل والدها تجنُّب معركةٍ خاسرةٍ معها، أو ذلك بغير علمه، وتصرف فردي من شخصٍ يعرف كيف يأخذ ثمن الجهاز من والدها بصورةٍ أو بأخرى. المهم في الأمر إنها تصنع الآن عرقًا من التمر أو بعض الفاكهة ذا جودةٍ عالية، في شقتها، والأهم إنه يعجب «أحمد زكي» وأراحه كثيرًا من المغامرات الليلية في الأحياء الشعبية البعيدة، وتعريض نفسه للشرطة أو بعض المخاطر غير المتوقعة التي يقوم بها السُّكارى، وخلَّصه من العرق الرديء الصنع المخلوط في غالب الأحيان بموادَّ ضارةٍ بالصحة. وما يعجبه جدًّا، تلك الفضيلة الفاسقة الأخرى، وربما كانت في بادئ الأمر مفاجأةً صادمةً له، وهي أن المرأتين تدخِّنان البنقو، يوفِّره لهما سائقٌ كان في المدرسة التي التقيتا فيها، تدعوانه «بشبش الرهيب». حسنًا، طالما كلُّ شيءٍ يحدث في بيته وفي سريةٍ تامَّةٍ وكنانتا لا تضرَّان أحدًا، بل تصبحان كراهبتين في صلاةٍ وتامل، كما إن «ميرم» وهي مسطولة تصبح هادئةً وقليلة الكلام، ويعجبه ذلك بالتأكيد. الفصل الذي يكرهه جدًّا هو الفصل الذي يلي هذه الحفلة الأسرية الخاصَّة،

عندما يحين وقت الذهاب إلى غرف النوم، وهو فصلٌ لا يمكن تجنُّبه، إطلاقا، ولا بدَّ له أن يحدث، حيث تبقى «سُهى» وحيدة، تشغِّل موسيقى راقصة، ولكنها لا تهتزُّ طربًا، بل تبقى في صلاتها، منكفئة الرأس، وكان يظن إنها تبكي، إلا إن «ميرم» قالت له إن «سُهى» لا تبكي أبدًا، على الأقل هي لم ترَها تبكي في يومٍ من الأيام في كلِّ الوقت الذي تعرَّفت فيه عليها، إنها في صلابة الفولاذ وذكاء النار. ولو أن «زكي» كان يظنُّ إن وراء تلك القوة يكمن ضعفٌ رهيب، إلا إن الأيام أثبتت له العكس، فلقد كانت نسخةً طبق الأصل من والدها، الفرق بين الاثنين فقط أن والدها كان جشعًا وشرهًا مُحبًّا للمال، ويتَّهمه البعض بسرقة مال الشعب. أمَّا هي فكانت تحبُّ الحياة، وبها رأفةٌ ورحمةٌ تجاه الأشخاص الذين في مواقفَ إنسانيةٍ حرجةٍ ويستحقون المساعدة، مثل ذلك اللص الظريف في روايات «موريس لبلان» الفرنسي، فهي دائمًا ما تحتال على والدها الثريِّ لتحصل منه على المال وتقوم بصرفه على كثيرٍ من الذين يستحقونه أو في حاجةٍ إليه، بسريةٍ وهي متنكرةٌ في زيٍّ امرأةٍ بسيطةٍ موظفةٍ طيبة، ثم بعدما قابلت «أحمد زكي» وعرفت عن عمله في منظمة «بلان سودان **Plan Sudan**» مع الأطفال، أخذا يعملان معًا في صمتٍ مع أطفال الشوارع وجماعة «شارع الحوادث» التي تضمُّ مجموعةً من الشابات والشباب الأخيار المتطوِّعين في رعاية المرضى المعوزين.

الركن الرابع من هذا البيت، هي الأمُّ أو الجدة «نصرة»، التي يمكننا أن نطلق عليها لقبًا طويلًا بعض الشيء، أشبه بعناوين قصص الروائي الكولومبي المرحوم «جابرييل جارسيا ماركيز»: «الجدة الثرية الحزينة الوحيدة التي ترعى الأطفال». وهي الآن تدير كل أموال ومؤسسات زوجها المرحوم «فتح الله فراج فتح الله». وغني عن القول إنها لا تفرِّط في أن ينال أبناء صديق زوجها المرحوم «جبريل كيري» نصيبهم من الثروة، وذلك يجعلها متوازنة نفسيًّا، ويهبها الشعور بإنسانيتها ونقاء ضميرها، ونظافة المال وطهارته أيضًا. ويظلُّ فقدها لزوجها هو مصدر حَزَنها الأكبر، فلقد كانت تحبُّه جدًّا، وإنها تكتشف كلَّ يوم أنها كانت تحبُّه أكثر، وهنالكَ فكرةٌ تسيطر على وعيها ولاوعيها، وهي إنه كان بإمكانها ألا تتركه يموت، إذا اجتهدت أكثر مع بعض الفُكيان والسحرة وقارئي الرُّقية الشرعية من المطبِّبين القرءانيين، أو ربما الأطباء النفسانيين، ولو خارج حدود الوطن، في أوروبا أو أمريكا أو مصر. ولو أن أحدًا ممن أصيبوا بداء الديك لم ينجُ في تلكَ الحقبة من الموت بذات الطريقة وذات الأسلوب، إلا إنها قد لا تعرف ربما أن البعض نجا، أو أن مطبِّبًا ما بإمكانه أن يجعله ينجو، فإن زوجها كان يحبُّ الحياة، يحبُّها بالصورة التي تجعله يعيش للأبد إذا أحسن التصرف، وما خوفه من الفقر إلا لارتباطه بالموت. في ظنِّه أن الفقراء يموتون أولًا، أمَّا الأثرياء فلا

يموتون ما لم يستنفذوا كلَّ فرص النجاة من الموت. لكن قدَّر الله وما شاء فعل، فاللحظات الأخيرة من حياته كان الموت أفضل منها، وإنها مثلها مثل الجميع قد تمنَّت له في صلاتها الموت المريح أو الشفاء والحياة بدون آلام، فاستجاب الله للخيار السهل، وأخذه إلى الدار الآخرة، إنها مشيئة الرب.

للجدة «نصرة» عالمها، مع سيدات الأعمال والمال ونساء الطبقات العُليا من المجتمع. وعلينا أن نوضِّح أيضًا أنها على الرغم من التزامها الأخلاقي تجاه أسرة المرحوم «جبريل كيري»، إلا إنها كانت تتَّصف بشيءٍ من البُخل، أو فلنسمِّه بالحرص الزائد على الاحتفاظ بأكبر قدرٍ من المال وتنميته، وكادت أن تصدق تلك النظرية التي تقول إن الحصول على المال هو قدرها هي بالذات، نتيجةً لما حصل لها مع الجدة المباركة الملكة «أماني» في طفولتها، وعليها الحفاظ عليه من أجل رفاهيتها هي ورفاهية الأجيال القادمة من أسرتها، ولو أن العمل في المال أصبح يعطيها نوعًا من المتعة، نوعًا من الإشباع الذاتي، كلما كسبت مالًا جديدًا شحنها ذلكَ بالإثارة وحبِّ المغامرة والعمل، واندفق الأدرينالين في أوعيتها الدموية وصعد إلى قبة رأسها الذي بدأ يفقد الشعر ويصاب بالصلع المبكر. ربما كانت تلك النشوة هي دافعها الأكبر في تنمية المال وازدهاره، وليس الدافع مجرد فكرةٍ أسطوريةٍ نسيت تفاصيلها، ولا الحفاظ على نصيب الأجيال

القادمة من الأسرة وتأمين مستقبلهم من الفقر الذي لا تحبُّه. فلنقل: من أجل كلِّ هذه الأشياء مجتمعة.

على الرغم من حَزَنَها العميق بفقد زوجها، ومغادرة ابنها بغير رجعة ومأساة طلاقه من الثرية الحسناء «سُهى»، إلا إنها كانت تجد في الأطفال سلوتها، في رعايتهم وإطعامهم وغسلهم وعمل كلِّ ما يفرحهم، مستقطعةً وقتًا ثمينًا كانت تقضيه في إدارة شئون المال والثرثرة المحبَّبة مع النساء الثريات والمدَّعيات الثراء. ولم تكن في غيبوبةٍ عمَّا يدور في الشقتين اللتين تعلوان شقتها؛ أيْ في الطابقين العلويين، ولكنها لم تحبَّ أن تعكر صفوهم، وإن ذلك لا يضرُّها في شيء، بل قد يجعل الحياة أسهل بالنسبة لهم: «دعيهم يلهون». ولكن ما يخيفها ويقلق مضجعها ومنامها، هو فكرة أن العلاقة بين «أحمد زكي» زوج ابنتها وابن اختها وطليقة ابنها قد تذهب إلى وجر الفتنة والحرمة. الجدة «نصرة» لا تثق في «أحمد زكي» وهي على دراية بكلِّ تاريخه مع ابنتها أيام الفقر وأيام الثراء أيضًا. لا تظنُّ أنه كان عفيفًا في علاقته مع «ميرم».

«وماذا سيمنعه من ذلك، أحُبُّه لـ«ميرم»؟ لا، ليست «ميرم» سوى بنت غبية صغيرة مغرَّر بها، وإن ثقتها العمياء في «أحمد زكي» قد تغريه للغدر بها.» هل تثق في طليقة ابنها «سُهى»؟ «لا، لا، إنها تكبر ابنتي، وإنها أكثر وعيًا وإدراكًا وقد تكون انتهازيةً مثل أبيها،

جنا الفار يطلع حفار. يمكنها ببساطة أن تحوز قلب زوج «ميرم»، وحينها ستموت «ميرم» كمدًا وألمًا وحزنًا على حبيبها الوحيد. عليَّ أن أنبِّه «ميرم» إلى الخطر الذي يتربَّص بها.»

قالت لها «ميرم» وهي تضحك:

– أمي أمي، دا مستحيل، مستحيل يحدث، دا شيء لا يمكن تخيُّله.

قالت الأم:

– إذا حدث في يوم من الأيام، ماذا تفعلين؟

قالت «ميرم» وهي تقترب من أمِّها أكثر:

– سأكون سعيدة جدًّا، وما المشكلة إذا اقتسمنا الرجل؟ هو يكفينا. هل أقترح عليها، هل تقبل يا أمي، هل يقبل «أحمد زكي»؟ وااااي، دي فكرة مجنونة ليه ما فكرنا فيها من زمااان!

قالت الأمُّ غاضبةً بعصبيةٍ ومن بين أسنانها تخرج الكلمات مسننة:

– أنت بنت بليدة وغبية ومجنونة، ولكن اليوم الذي تخطف فيه بت الوزير راجلك، ح تفهي كلامي جيدًا.

بالطبع، لم تخطف «سُهى» بنت الوزير زوج «ميرم» ابنتها. ولم يكن هنالك أيُّ شكٍّ في أن علاقة «أحمد» بـ«سُهى» علاقة صداقة نزيهة، بل أخوة صادقة، وعمل خير في شوارع وأزقة ومستشفيات الخرطوم وأم درمان. وعندما حدَّثتها «ميرم» بما قالته أمُّها «نصرة»،

في ليلةٍ ما وهم يتعاطون المزاج ويشاهدون فيلمًا كوميديًّا أمريكيًّا جديدًا، ضحك ثلاثتهم بأعلى ما أوتوا من أصواتٍ مشروخةٍ من أثر الكحول. وعلّق «أحمد زكي» على الأمر الغريب بأنه: لا بدَّ أن خالته «نصرة» قد بدأت تُصاب بالجنون. وأمَّنت المرأتان على ذلك. بل اتفقوا على عرضها مُبكرًا على طبيبٍ نفساني. اقترح «أحمد زكي» أن يتمَّ عرضها على الدكتورة النفسانية «ناهد جبر الله»، فهي صديقة الروائي «أدومة»، ويُعرف عنها مهارتها وتبحُّرها معرفيًّا في علاج هذه الحالات الغريبة؛ فالشكُّ بهذه الطريقة العجيبة وغير المفهومة، قد يكون نوعًا من الإحباط الشديد أو سوء الطوية، وهو دليلٌ على نيةٍ سيئةٍ مبيَّتة.

عندما انتهى الفيلم الكوميدي الأمريكي، كانت الساعة تقارب الثانية صباحًا، ذهب ثلاثتهم إلى غُرفة نوم «سُهى»، لأن سريرها الأكبر حجمًا، من المقاس الذي يطلق عليه بائعو الأثاث: سُيوبر لارج **Supper Large** .

الدِّيكُ يَتَمَظْهَر

إن زوجها ضحَّى من أجل مستقبلٍ مشرِّفٍ للأجيال القادمة، ومن أجله هو أيضًا، بل في المقام الأوَّل من أجل نفسه بالذات، فهي تعرف عن زوجها حُبَّه للمال ولنفسه، وهذا ليس عيبًا فمن لا يحبُّ نفسه كيف يحبُّ الآخرين، ونفسه أقرب من كان إليه، ومن لا يحبُّ المال كيف يمكنه أن يحبَّ غيره، لأن الغير لا يقتربون منكَ وأنتَ فقيرٌ معدم، حتى إذا متَّ في عشقهم أو تغنَّيت به. فحبُّ المال من الإيمان، وهذا مذكور في بعض الأحاديث المقدسة، وإذا لم تخُنها الذاكرة لقد تمَّ ذكره في القرآن الكريم، وتم اقترانه بالبنين، أيْ العترة. كما إنه بحبِّه لنفسه وللمال لم يضرَّ أحدًا بسلوكه هذا، وها هو يتحمَّل مسئولية محبَّته بقبوله الكريم والحُرِّ جدًّا بالديك.

للمرة الأولى يُرى الديكُ مُجسَّدًا دمًا ولحمًا في البيت، ويشاهده جميع أفراد الأسرة. كان يقف على رأس «فتح الله فراج» الأب المكلوم الذي يبدو وكأنما أُغمي عليه من السهر، حيث إنه سقط في الأسبوع الثاني من الأرق المتواصل، سقط كالميت. لولا إنه كان يشخر بأعلى صوته لحسبه أفراد الأسرة من الهالكين. كان الديك كبيرًا جدًّا، له منقارٌ أقرب لمنقار النسر، عيناه كبيرتان ومحمرَّتان، له أرياشٌ جميلةٌ وزاهيةٌ ولامعةٌ مثل الحرير. أوَّل من شاهده كانت «نصرة»، عندما دخلت حجرة زوجها وفي يدها المبخرة تصدر دخانًا كثيفًا أوصى الفقيه أن يتبخَّر به «فتح الله فراج» كلَّ يوم بعد غروب الشمس مباشرة، لأن الشمس تغرب بين قرني شيطان، وهي ذاتها اللحظة التي يكون فيها الشيطان «متدروخًا» ومرتبكًا من الشمس، بالتالي يسهل التخلُّص منه. في اللحظة التي شاهدتْه فيها، ظنَّته ديكًا حقيقيًّا. وضعت المبخرة على الأرض وهمَّت بضربه، ولكن عندما حملق الديكُ فيها بعينين محمرَّتين شرستين، تسمَّرت في مكانها وصرخت، ممَّا جعل كلَّ من في البيت يهرع إليها، فتفحَّصهم الديك واحدًا واحدًا. هبط من أعلى رأس «فتح الله فراج» الذي ما زال نائمًا ويصدر شخيرًا

منتظمًا، نزل بتروٍّ وبثقة، ربما بخيلاء. نفض جناحيه في عنفٍ فبدا مثل طائرةٍ مروحيةٍ عملاقةٍ تهمُّ بالهبوط على أرضٍ متربة. صاح ثلاث مراتٍ متتالياتٍ أدخلن الخوف في نفوس أفراد الأسرة الذين وجدوا أنفسهم في موقفٍ صعب التفسير ومحيِّر. ثمَّ اختفى فجأةً وكأنه لم يكن في الوجود، مثل كابوسٍ جماعيٍّ عَبَرَ مناماتهم ولم يترك من أثرٍ سوى الرعب. كان أفراد الأسرة في انهيارٍ تامٍّ، وخاصَّةً بالنسبة للذين لا يعرفون حكاية الديك؛ تقريبًا جميعهم ما عدا الأمِّ التي كانت أكثر تماسكًا، ولو أنها الأكثر رُعبًا، وقد قرَّرت في الحين قرارًا لا رجعة فيه، وهو أن تنفذ وصية ووصفة الفكي وتعيد الخاتمين إلى القبر النُّوبي، ولكنها مثل القارئ تدرك أنهما خدعا الفكي بأن قصَّا له قصةً مختلقةً عن سبب حصولهما على الذهب، ربما إذا حكيا له القصة الحقيقية لطلب منهما إرجاع الذهب أو قيمته لأسرة «جبريل كيري» أو إلى القبر النوبي أو رميه في البحر أو حتى تركه في جرةٍ كبيرةٍ مسحورةٍ في بيت الفكي، فخداعهما للفكي أثار فيها شكوكًا في صحة الفتوى ذاتها وفاعليتها، كانت مرتبكة، تختار في ذات اللحظة الشيء وضده، تهدم فكرةً ثمَّ تبني من حطامها فكرةً تهدُّها أيضًا، فكانت أمام خيارٍ صعب، أو في الحقيقة خيارات كثيرة متناقضة صعبة ومعقَّدة. أمَّا خيار الفقر، فالفقر كما تعلمه «نصرة» أشكال وألوان، أقله شراسة التخلي عن جزء كبير من ثروتها؛ أيْ الاحتفاظ بالأرباح وإعادة

أصل المال، وهذا معكوس الفكرة التي تعمل عليها في قتل صوت الضمير عندها، حيث كانت تنوي القيام بالاحتفاظ بأصل المال وقضاء الدين من الأرباح أو التنازل عن كلِّ ثروتها مقابل راحة زوجها من شيطنة الديك. أمَّا الخيار الذي لا تدري أهو الأمثل أم لا، فأن تقبل باختيار زوجها «فتح الله فراج»؛ أيْ القبول بالديك، أن تقبل تضحيته من أجل رفاهية أسرته والاحتفاظ بالوضع الاجتماعيِّ الرفيع الذي ينعمون به الآن، وتحارب الديك وغيره من الشياطين عن طريق الفُكيان والسحرة مهما كلَّفها من مال؛ فالديك أرحم من الفقر.

فالديك مجرَّد شيطان؛ أيْ مخلوقٌ مقدورٌ عليه في وقتٍ ما بسبيلٍ ما، والذي يبقى حيًّا للأبد هو الله وحده. أمَّا الفقر في ظنِّها الخاص، فابتلاءٌ من الله، وقد فقدَ الربُّ ذاته السَيطرة عليه، فأصبح من واجب كلِّ شخصٍ التخلُّص من الفقر بطريقته الخاصَّة. لذا قال خليفة المُسلمين «عمر» رضي الله عليه وأرضاه: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته.» ولكنها أيضًا فكَّرت فكرة غريبة: ماذا لو مات زوجها، أليست تلكَ نهاية لسُلطة الديك، أليس بالموت تنتهي العقود؟ هل سينتقل الديك إلى فردٍ آخر من الأسرة؟ هل بإمكان الفقيه أن يقتل الديك ويريح «أبو السر»؟ إن الفكيان يستطيعون حرق الجن. نعم، لماذا لا تذهب لسحرة جبال النُّوبة أو النيل الأزرق وهم الأقدر على

التعامل مع الشياطين والجن؟ كانت الأفكار تتلاطم في عقلها بسرعة البرق، وبضجيج هزيم الرعد، وقوة العاصفة، وغموض البحر.

سألتها البنت، وهي تسرع الخطى نحو الخارج:

- أمي الديك مشي وين؟

وكأنما كانت أمُّها تعرف كلَّ شيء. نعم ... نعم، ألا تعرف أمُّها كلَّ شيء عن طريق رمي الودع وقراءة الكف والوجه والتخمين وضرب الرمل، عن طريق ذكائها الحاد؟ لا ... لا، أمُّها لا تعرف شيئًا؛ فكانت «ميرم» تخدع أمَّها ببساطةٍ كلَّ يومٍ ووقتما شاءت، وتغشُّها بكلِّ بساطةٍ في دورتها الشهرية منذ أن عرفًت «أحمد زكي» وإلى اليوم، وتتستَّر على ما بحجرتها بالعُري، ولم تستطع أمُّها رغم خبرتها فوق الطبيعية أن تخترق سياج العُري، دعك من معرفة ما بعد ذلكَ السياج. بينما أخذ «السر» يردِّد بعض الآيات القرآنية في خشوعٍ كمن يصلِّي بالجهر، كان الطفل «فراج» يُمسك برجل أمِّه بشدة ويخفي وجهه بين ثنيات ثوبها الطويل، والأمُّ تهتف في ذاتها: «نعم، السحرةُ، السحرةُ.»

وهي سمعت عن الساحر الذي يستخدمه رئيس الجمهورية نفسه، وهو الذي حفظه من كلِّ الشرور وأبقاه في الحكم وسيبقيه مدى الحياة، ويُقال إنه لولا إن الساحر خاف الله لجعله ينجب أبناءً يرثونه. ولو أن الرئيس ما كان همُّه مخالفة مشيئة الرب، وكان يريد

الأطفال بأية صورة من الصور، ولو ضدَّ إرادة الله، كان يريد أن يثبت فحولته، ويضمن مقام العرش من بعده لنطفةٍ طاهرةٍ نقيةٍ تحمل اسمه، وأن يدفع للفكي مقابل ذلكَ كلَّ غالٍ ونفيس. إلا إن الفكي قال له صراحة فيما معناه: «لم يُكْتبْ لكَ في اللوح المحفوظ أن تنجب أطفالًا ذكورًا أو إناثًا ولا حتى أخناثًا مردة. فإذا أنا قمتُ بكسر ما قد صار وما يصير وما رُفعت عنه الأقلام وجفَّت الصحف وقال الله سبحانه وتعالى فيه كُنْ فَكَانَ؛ إذن لانقلبت نواميس الكون وقامت الساعة. لأن الحجارة ستتكلم، والأشجار ستجري مثل الغزلان. والنساء ستنجب بغير ذكور، وذلكَ قلبٌ لكلِّ شيءٍ قائمٍ وقيامة كلِّ هالكٍ آبدٍ. وأنا سوف أكون في الدرك الأسفل من الجحيم لأبد الآبدين. أعفِني سيدي الرئيس، عليك الله!» وبكى الفكي حتى بدت نواجذه المسوسة.

لقد كلمها عنه أخوها الضابط الكبير في الجيش، الذي يستطيع أن يُطلق على نفسه بكلِّ بجاحة: «فردة الأخ الرئيس القائد». أخوها الذي يعرف قيمة الصالحين والأولياء والفكيان والسحرة، جنبًا لجنبٍ مع قوة السلاح والمال والسُّلطة. أخوها صاحب الحكمة الشائعة بين المسئولين الكبار: «أعطِني فكيًّا حقيقيًّا وسلاحًا جيِّدًا أعطِكَ الحُكم للأبد.» وتلكَ هي الحكمة التي قرَّبته جدًّا من الرئيس، وببعض التصرُّف يمكن القول إنَّ أخاها هو مستشار الرئيس في الشئون التي

لها علاقة بالسحر والتمكين والفحولة المكتسبة، حيث إنه في ذلكَ الوقت لم تكن «الفياجرا» قد أصبحت ضمن الوجبات الرئيسية لسيادته، كما يحدث في الآونة الأخيرة. ولن نخوض في ذلكَ كثيرًا. الذي يهمُّنا أن «نصرة» تفهم أن الحُكم يعني المال؛ أيْ الثراء، تقصد الثراء الفاحش. وهي لم تدرس ذلكَ في مدرسة أو تقرأه في كتاب، بل تعلَّمته من الحياة حولها، فكلُّ الوزراء والسياسيين أثرياء، ولم يكونوا كذلك قبل أن تصيبهم جرثومة السُّلطة المباركة، وينكحهم فحل الوظيفة النافذ.

وما هم فيه الآن شبيهٌ بذلك، بسبب كرامة أو لعنة الذهب، بالتالي يمكن الحفاظ على ثروتهم باتباع ذات سُبل الحاكمين في الاحتفاظ بكرسيِّ الحكم. فهي تريد أن يدوم هذا الثراء للأبد، لآخر طفلٍ في سلالة «فتح الله فراج»، حتى يشهد قيام الساعة من شُرفة قصرٍ أو حديقة فيلا فاخرة. وتضحية زوجها لن تمرَّ مرور الكرام وتذهب هدرًا. إن زوجها ضحَّى من أجل مستقبلٍ مشرِّفٍ للأجيال القادمة، ومن أجله هو أيضًا، بل في المقام الأوَّل من أجل نفسه بالذات، فهي تعرف عن زوجها حُبَّه للمال ولنفسه، وهذا ليس عيبًا فمن لا يحبُّ نفسه كيف يحبُّ الآخرين، ونفسه أقرب من كان إليه، ومن لا يحبُّ المال كيف يمكنه أن يحبَّ غيره، لأن الغير لا يقتربون منكَ وأنتَ فقيرٌ معدم، حتى إذا متَّ في عشقهم أو تغنَّيت به. فحبُّ المال من الإيمان،

وهذا مذكور في بعض الأحاديث المقدسة، وإذا لم تخُنها الذاكرة لقد تمَّ ذكره في القرآن الكريم، وتم اقترانه بالبنين، أيْ العترة. كما إنه بحبِّه لنفسه وللمال لم يضرَّ أحدًا بسلوكه هذا، وها هو يتحمَّل مسئولية محبَّته بقبوله الكريم والحُرِّ جدًّا بالديك.

- نعمْ، السحرةُ، السحرةُ.

سألها ابنها عندما سمعها تفكِّر بصوتٍ عالٍ:

- السحرة يا أمي «نصرة»، ياتو سحرة؟

أعملت فيه ذكاءها قائلة:

- أبوك مسحور يا ولدي ومحسود، ومأكول. مسحور من الجن الحارس للذهب ومحسود من بني البشر الفقراء الجيعانين المعفنين، ومأكول في أفواه الناس النهامين، القطيعة تأكل لحم الزول زي النار. أبوك لازم يكتب ليهُ فكي كبير، فكي حقيقي، فكي يروب المُوية عدييل.

قال لها وهو يحسُّ بالحزن:

- أمي ليه الفكي، نحن في القرن الواحد والعشرين، فكي شنو، نوديه المُستشفى، التجاني الماحي أو أي دكتور نفسيات، أبوي دا بكون مخلوع من المال بس يعني مصدوم.

قالت له بصوتٍ منخفضٍ حتى لا يستيقظ والده الذي يستلقي كالميت:

– يا «السر»، انت ما بتفهم، الديك داك مش شفتو بعينك؟ ياتو دكتور يعالج من ديك الجن، يا ولدي، الرئيس ذاتو بيمشي للفكي، الدكاترة كُلهم بيمشوا للشيوخ، وفي الحديث الشريف «الما عندُو شيخ شيخوُ الشيطان».

قال لها:

– يا أمي أجدادنا النوبة قبل أربعة ألف سنة كانوا بيعملوا عمليات في المخ، وبيعالجوا أصعب الأمراض، و ...

قاطعته أمُّه «نصرة» قائلة:

– هم ذاتهم كانوا بيستخدموا الجن، وإلا كيفن بنوا الأهرامات ونحتوا الحجارة التقول بالموس واستطاعوا يحتفظوا بأرواحهم إلى يوم القيامة في جزيرة «ناوا»!

كان الطفل «فراج» يزداد انكماشًا على ساقي أمِّه كلما سمع كلمة جن وسحرة وشياطين وفُكيان و«نـاوا»، إلى أن أحسَّت به الأمُّ فحملته على كتفها وخرجت به تاركةً «السر» يقرأ بعض الآيات على رأس والده في حزنٍ عميق، في الحقيقة ما كان يخلو من بعض الخوف، فلم يشكَّ لحظةً في أن الديك ما هو سوى نفرٍ من الجن، ولكن ما يحتاج إليه والده بالفعل هو تأهيلٌ نفسي، لكي يتخطَّى صدمة الثراء الفجائي، حينها يستطيع أن يقاوم كلَّ جنون العالم طالما كانت صحته النفسية في كمالها.

سِفْرُ صَاحَبَةِ الرَّبَابَة

غنَّى وهو يبكي بحرقة، ولم يتوقَّف عن الغناء. إلى أن وضعت «أجاك» كفة يدها في فمه، وأوقفت لسانه عن الحركة. صوته جميلٌ جدًّا وحميمٌ وصادقٌ وحلوٌ، ولكنه كان أيضًا متوحشًا وجارحًا في أوقاتٍ كثيرة؛ فخافت عليه من شيءٍ ما في ذلك، لذا أوقفته عن الغناء، أو إنها كانت تريده أن يحتفظ بهذا الكنز الذي اكتشفته هي للتو؛ خشيت أن يستهلكه كلَّه في ذلكَ اليوم، في تلكَ اللحظة بالذات. لكن الغريب في الأمر أنها في أوقاتٍ أخرى طلبت منه أن يغنِّي، فغنَّى لها. إلى أن أصبح لا يبكي أثناء الغناء. لا يثنيه شيءٌ عن التشوُّق إلى الرَّبابةِ، فهي هدفه الأسمى وحبُّه المسحور، وحُلمه وجنونه؛ الرَّبابة التي تزوره في الليل، وتغنِّي له وتتحاور معه، وتتركه يعزف عليها أغنياتٍ جميلاتٍ ومُدهشات. هي الرَّبابة ذاتها التي عندما بلغ الحُلم كانت فتاة ليلته الفاصلة.

بالإضافة إلى حادثة سَبْيِه، فإن «غزال» يعتبر أنَّ نقطة التحول الأخرى في حياته كانت في اليوم الذي قابل فيه «أجاك» الطويلة. وهي عجوزٌ دينكاويةٌ فارعة القوام. على الرغم من أن اسمها «أجاك» يعني البقرة بلغة «الدينكا»، إلَّا إنها أشبه بشجرة التك فارعة القوام، ذات بشرةٍ ناعمةٍ لينةٍ، ووجهٍ أملسٍ عليه تجاعيد صغيرة. بالإضافة إلى غليون البامبو الذي لا يفارق فمها إلَّا عندما تبدأ في الغناء، فهي دائمًا ما تُرى في صُحبة رَبابتها المصنوعة من وعاءٍ نصف دائريٍّ من الطلس يُستخدم كحاويةٍ لمناولة الماء، يسمونه «كُورِيَّة»، مُغلَّف بجلد كلب السمِعِ البري. أما أوتارُ الرَّبابة فهي من ذيل الزرافات — كما هو شائعٌ في تلك النواحي من العالم، وتلك البلدان الإستوائية المطيرة التي أنشأها الله في أماكنَ مجهولةٍ من الكون — مشدودةٌ على عودٍ من الأبنوس القوي.

المرة الأولى التي شاهد فيها «أجاك» كان في أيام قدومه الأولى، حيث أخذه إليها «جبريل كيري» لكي تتحدَّث إليه بلغته وتطمئنه بأنه سيلقى منه معاملةً طيبة، تمامًا كما لو كان ابنه، وعليه ألَّا يحاول الهرب، لأن ذلك سيعِّرضه للموت، فالمكان كُلُّه محاطٌ بالوحوش

وكلاب السمِع والأُسود الضارية، وأضافت من عندها السحاحير.
وأن عليه أن يتعلم اللغة العربية، وهو حرٌّ في أن يسلم أو لا يسلم، ولكنه إذا رغب في الإسلام بعد أن يعرفه، فذلك خيرٌ له في رأي «جبريل».

في الحقيقة ما كان يعرف شيئًا عن الجزء الخاص بالإسلام، ولم تستطع العجوز أن تجعله يفهم، فهو لم يصل في بلده إلى العمر الذي يذهب فيه إلى الكنيسة الصغيرة التي في قريتهم، والتي لا يعرف عنها شيئًا غير أنها بيت الربِّ الذي لم يرَه يومًا فيه، لا داخلًا إليه ولا خارجًا منه، وما كان يعرف ربًّا غير ذلك الربِّ المجهول الذي قيل إنه يسكن بيت الربِّ بقريتهم، وكغيره من الأطفال كان يظنُّه الربَّ الوحيد، وأن قريتهم هي مركز الكون لأنه اختار بيته فيها. ولكنه يعرف الـ«كُجُور»[1] بصورة أعمق وأقرب وأكثر وضوحًا، لأنه كان المصاحب له في يومه منذ طلوع الشمس إلى مغيبها، فهو الذي يحميه من المصاعب، ويبعد عنه الصواعق، ويضمن له حياةً طويلة، ولأبقاره وأحفاده ونسائه فيما بعد، لذا اختصرت «أجاك» المحاورة بأن قالت له إنه حرٌّ في أن يؤمن بـ«كُجُور العرب» وتعني الدين الإسلامي، أو لا، ولكنها أضافت جملةً مهمةً من نفسها، حدَّدت موقفه فيما بعد من مجمل الدين الإسلامي أو ما أسمته «كُجُور العرب»:

(1) الكجور هو شخص تحلُّ فيه روح الأجداد ويقوم بدور الوسيط بين الناس وبين تلك الروح.

«إذا آمنت بكجور العرب،
سيقطعون جزءًا كبيرًا من ذكرك.
فإن ذكور العرب قصيرة وناقصة،
لأن كُجُورهم يأخذ نصفها.»

كان الذي يهمُّه فعلًا وغيَّر مجرى حياته في لقائه بتلك المرأة هو: ربابتها المصاحبة لها، ربابتها الجميلة العجيبة التي تشعُّ غواية، ربابتها التي عشقها من أوَّل نظرة.

قد عرف عن «أجاك» أشياءَ كثيرةً كانت ستبدو عند غيره رهيبةً جدًّا ومدهشة، كما ينظر إليها كلُّ أهل قرية «أولاد أحمد». العجوز «أجاك» لا تفعل شيئًا ماديًّا يمكن الإشارة إليه، وهي أيضًا لم تكن مملوكةً لأيٍّ من سكان القرية، لم يسبِها أحدهم، ولم تكن أسيرة حرب أو غزوة من الغزوات، وليست لاجئة، أو ممَّا ملكت يمين أحد المؤمنين بالقرية. تسكن وحدها، حيث إنها تأكل وتشرب وتمتلك أبقارًا وأغنامًا من عملها غير المرئي، وهو خليطٌ من كلِّ شيءٍ غريب:

فهي كُجُورِية، ويهودية، ومسيحية، ومسلمة، ولا دين لها أيضًا، أو هكذا تمَّ وصفها له فيما بعد. ويُقال إنها ماتت أكثر من مرة في القرية ذاتها، وفي بيتها ذاته، ولا يُستبعد أن تموت مرةً أخرى في أيِّ وقتٍ كان، في البيت ذاته، أو في مكانٍ آخر لا يدري به أحدٌ. يحترمها

كلُّ سكان القرية، أو ربما يخافون منها، فالمسافة بين الخوف والاحترام لا يُسبر لها غور، ولا يقيسها قَيَّاس، فقد لا يكون لها وجود. لم يطلب منها القرويون أن تغادرهم، ولم تغادر هي بإرادتها، وكانت تقيم في القرية كما لو كانت القرية ملكًا لها هي وحدها، لم تؤذِ أحدًا، بل دائمًا ما تقوم بمساعدة أهل القرية في العلاج من كثيرٍ من الأمراض، مثل العين والسحر والجنون، وتأخذ مقابل ذلك أبقارًا وذرة وحيوانات أخرى.

لا يهمُّه كلُّ ذلك، ولو أنه علم بتفاصيل أكثر عنها في قادم أيامه في القرية، إلَّا إن ما فعلته رَبابتها به كان غريبًا جدًّا ومُدهشًا، وربما تلك الرَّبابة بالذات ساعدت بطريقةٍ أو بأخرى في أن يبقى بالقرية، حتى بعدما غدر به «جبريل» وباعه لذلك الراعي الذي استغلَّه في العمل كآلةٍ لطحن الذرة، إلى أن أطلقته الرَّبابة ذاتها من المكان نحو أفق حريته؛ نحو الحياة التي كانت دائمًا في انتظاره.

لم يفهم في أيامه الأولى الأغاني التي تغنِّيها «أجاك» باللغة العربية، كما لم يفهم تمامًا الأغنيات التي كانت تغنِّيها بلغة «الدينكا» ولغاتٍ أخرى لقبائل تسكن حول المنطقة. يأتي الرجال وتأتي النساءُ ليستمعن لها في بيتها، حيث إنها لا تغنِّي إلَّا على بنبر قرب باب قُطيتها، في بيتها الذي يقع على بُعد كيلومترٍ واحدٍ تقريبًا جنوب القرية، وهي القُطية التي وُجدتْ فيها من قبل جداتُها، وأمُّها، وكلما انهارت أو شاخت

القُطية قام سُكان القرية ببنائها لها مرةً أخرى في عملٍ جماعيٍّ يُسمى بالنفير. يظنُّ البعض أنها هي ذاتها الجدة، وجدة الجدة، والأم أيضًا، والبنت التي ستكون في المستقبل وتقيم في ذات المكان، وبنتُ البنتِ والسلالة القادمة من نساءٍ غريباتٍ حكيماتٍ ومرعباتٍ سيُقِمْن في القُطية ذاتها. ونحذِّرُ القارئ بأن هذا غير مؤكدٍ، وقد يكون ضربًا من الشذوذ المخيلي، فلا أحد في القرية يعلم علم اليقين مَنْ مِنهُنَّ «أجاك» الطويلة الحالية، وهل كانت الجدات والأمهات السابقات لها طويلاتٍ شاهقاتٍ كأشجار المهوقني كما هي عليه هذه الحفيدة الآن؟!

عندما كان في صُحبة أسرة «جبريل كيري»، داوم على أن يأتي إليها في أوقات فراغه في صُحبة صديقته الصغيرة الطفلة «شوشايا»، للاستماع إلى «ماما أجاك» الطويلة وهي تغنِّي. وتقدِّم هي بدورها لهما بعض الطعام؛ شراب العسل الطازج كما تفعل الجدات عادة. ولكنه كان يقول لها إنه يريد أن يستمع إلى الرَّبابة، الرَّبابة من يريد، هي محبوبته وكلُّ ما يرغب فيه الآن.

فجأةً في يوم ما ذات عصرٍ جميل، طلبت منه «أجاك» أن يغنِّي؛ يغنِّي ما يتذكَّره من الأغنيات التي كان يردِّدها أهله. وغنَّى.

غنَّى وهو يبكي بحرقة، ولم يتوقَّف عن الغناء. إلى أن وضعت «أجاك» كفة يدها في فمه، وأوقفت لسانه عن الحركة. صوته جميلٌ

جدًّا وحميمٌ وصادقٌ وحلوٌ، ولكنه كان أيضًا متوحشًا وجارحًا في أوقاتٍ كثيرة؛ فخافت عليه من شيءٍ ما في ذلك، لذا أوقفته عن الغناء، أو إنها كانت تريده أن يحتفظ بهذا الكنز الذي اكتشفته هي للتو؛ خشيت أن يستهلكه كلَّه في ذلكَ اليوم، في تلكَ اللحظة بالذات. لكن الغريب في الأمر أنها في أوقاتٍ أخرى طلبت منه أن يغنِّي، فغنَّى لها. إلى أن أصبح لا يبكي أثناء الغناء. لا يثنيه شيءٌ عن التشوُّق إلى الرَّبابةِ، فهي هدفه الأسمى وحبُّه المسحور، وحُلمه وجنونه؛ الرَّبابة التي تزوره في الليل، وتغنِّي له وتتحاور معه، وتتركه يعزف عليها أغنياتٍ جميلاتٍ ومُدهشات. هي الرَّبابة ذاتها التي عندما بلغ الحُلم كانت فتاة ليلته الفاصلة.

كلُّ ما يدور حول «أجاك» وتفعله أو يُتَوَهَّم أنها تفعله، وما شاهده منها وخبره من حُبٍّ واهتمام، لا يسوى شيئًا أمام افتنانه بالرَّبابة. ويبدو أن «أجاك» لاحظت ذلك، أو يجب أن تلاحظ ذلك، أو أن ذلك هو ما يجب عليها أن تلاحظه بالذات. وفي يومٍ ما جاءت إليه حيث يقيم، قبل غروب الشمس بقليل، وكان قد فرغ من عمله الروتينيِّ المملِّ المضجر، وطحن ما عليه أن يطحنه من ذرةٍ قبل مغيب الشمس، وتمَّ وضع القيدِ حول ساقيه، وإذا أحضرت إليه بنت الراعي العشاء سيأكل ثمَّ ينام.

جلست «أجاك» عند باب قُطيته. ليس ببعيدٍ عنها كانت تقف

كلُّ الأسرة التي تستغرب الزيارة المفاجئة لـ«أجـاك» الطويلة. و«أجـاكُ» الطويلةُ، في العادة لا تذهب للآخرين في بيوتهم، بل الآخرون هم الذين يأتون إليها في قُطيتها عندما تكون الحاجة قد غلبت كلَّ حيلهم واستنزفت طاقات المعالجة التي خبرها وتوارثها القرويون أبًا عن جد. قالت له دون مقدِّمات وهي تجلس وتنظر إليه في عينيه بمقلتين صغيرتين عجوزين محمرَّتين: «تجَرَّبْ!» ومدَّتْ له الرَّبابة بكفتيها الاثنتين، كما يُقدَّمُ القربانُ لإلهٍ نُوبيٍّ في عصورٍ سحيقةٍ لا يَدري عنها شيئًا. لقد انتظر كثيرًا هذه اللحظة، سنوات طويلات ممطوطات لزجات حزينات. عندما لمس الرَّبابة أحسَّ بأنه امتلك العالم في يده، ولم ينسَ تلك اللحظة حياته كلَّها. في ذلك الوقت كان قد انتقل إلى أسرة الراعي، وهو يمرُّ بلحظاتٍ من الحَزَنِ واليأس شاسعات. لقد حاول صناعة الرَّبابة عدة مرات بذات مواصفاتها عند «أجاك»، ولكنه حطَّمها ورماها بعيدًا. كان يحسُّ بأنها مسخٌ مريع. واكتفى بأغنياتٍ ينشدها عند الطحين، وبقيت الرَّبابة الأصلية الحبيبة الوحيدة في الحُلم، التي هي ملك «أجاك» التي يحبُّ أن يناديها «ماما».

لم يبكِ، لم يرتجف، كان يمسك بالكون كلِّه في يده بقوةٍ ونشوةٍ وبحب، ولأنه يعرفها جيِّدًا وقابلها كثيرًا في أحلامه، وتغنَّيا معًا، ولعبا وجريا في الغابات المجاورة وغامرًا، ولأنها تركته يعزف عليها

ويلعب بأوتارها في الحُلم، فإنه بمجرد أن لمسها عرفته وعرفها، وضعها بالصورة الصحيحة تمامًا، أو وضعت نفسها حيثما تشتهي. في الحقيقة التعبير الأمثل عن تلك اللحظة إذا شِيءَ له أن يصفه بعد سنواتٍ كثيرات، هو أنهما مارسا الحُبَّ معًا. عزف عليها — أو عزفا — الأغنية التي يحبُّها، وطالما استمع إليها كثيرًا جدًّا من «أجاك» بلغة «الدينكا»:

«المكانُ الذي
كانتْ تقفُ عليه
حبيبتي
العام الماضي
عندما هطل المطرُ هذا الصيف
أنبتَ عُشبًا غريبًا»

ثم غنَّيا أغنياتٍ كثيرات، ألَّفها في وقتها، ارتجلها في الحين. في تلك اللحظة نفسها، فكَّر «غزال» بعمقٍ في الحُرية، في حُريته الشخصية، كأنما كانت الرَّبابة قد همست إليه بسرٍّ ما، كأنما قالت له الربابة:

«حُريتُكَ تخصُّك أنت،
وأنتَ منْ يحقِّقها،
ولا أحدَ سواك.»

أعاد الرَّبابةَ إلى «أجاك»، وَظَنَّ أنه قد وصل إلى ما تُلِحُّ الرَّبابةُ

على توصيله إليه، ولكن «ماما أجاك» الطويلة قالت له، وفي عينيها دمعاتٍ متحجراتٍ يتساقطن كما الحصى على الأرض: «هي لكَ خُذها، لم تعُدْ تخصُّني، إنها ربابتُكَ.»

ثُمَّ نهضتْ من مجلسها. ألقت نظرةً سريعةً على الأسرةِ الصغيرةِ الملتفةِ حولها. ابتسمتْ، أو إنها أرادتْ أن تظهر أسنانَها ناصعةَ البياض الجميلة الساحرة. على الرغم من سنوات الصعوط والتوباكو الكثيرات التي عبرت فمها، ظلَّت الأسنان كما خلقلها الله لها أوَّل مرةٍ في تاريخ لا يستطيع أيٌّ كان تخمينه، وربما يكون قد انمحى من دفاتر الرحمن نتيجةً لتكالب الأزمان عليه. لم تلتفت إلى «غزال»، أو إلى رَبابتها مرةً أخرى. مضت في خطواتٍ سريعاتٍ إلى أن تلاشت في البعيد البعيد البعيد، حيثُ الظلام بدأ يُسدل ثيابه السوداء على الأمكنة، ويحتضن الكائنات في صدره الشاسع الرحيم، على إيقاع أمطار ذلك الصيف.

ذلك آخر يوم يراها فيه، ولن يدري أحدٌ ما إذا كانت هي أيضًا لم ترَه منذ تلك اللحظة إلى اليوم ، فلا أحدَ يدري حدود معرفة «أجاك» غير «أجاك». وقد حدث في ذات الليلة أمرٌ أخرُ مهمٌّ في حياة «غزال»، وهو أحد نقاط التحوُّل الكثيرة في حياته الغريبة. في الفصل القادم الموسوم بـ«سِفْرِ الحُرِّيَّة»، سيتمُّ سرد قصة «غزال» والراعي الذي اشتراه من «جبريل»، وستُحْكَى من الأمورِ أخرى كثيرة.

سِفْرُ الحُرِّية

أثناء القيام بعملية الطحن، كان يقول كلَّ ذلكَ بكلمات بلحنٍ عفويٍّ معبِّر، بلغته الأم، يغنِّي بذلك الحماس الذي تعلَّمه من الجدة «أجاك»: يقول إن الطحين مؤلم، وإنه خُلق للهو واللعب كطفل، وللصيد والحرب كرجلٍ عندما يعبر حفل البلوغ، وإن الطحين الشاقَّ هو عمل كبار السنِّ الناضجين، من الأمهات والصبيات اللائي يحتفلن ببلوغهنَّ قريبًا، ويقول أيضًا إن «جبريل» وأهله هم بمثابة أسرته الخاصَّة، لأنهم لم يستخدموه كماكينة طحين، ولأن ذلكَ عملٌ لا يتشرَّف رجلٌ بأن يقوم به، فالرجل يصطاد ويحارب ويسرِّح الأبقار ويحميها. وفي الأغنية أيضًا يقرِّر أنه سينتقم لنفسه في يوم ما، وسيكون انتقامه مثل انتقام ثور الجاموس الذي أكل الأَسد عجله.

قليلٌ من الشرِّ مطلوبٌ للحفاظ على كثيرٍ من الخير. الذي لا شرَّ فيه لا خيرَ فيه. وليس كلُّ الشرِّ شرًّا. الطريق إلى الحرية يمرُّ بأزقَّة العبودية؛ فمن لم يكن عبدًا لا يمكنه أن يصير حُرًّا. فلا يمكن التحرُّر إلَّا من شيءٍ ما. ويفكِّر «غزال» بشدَّة في هذا الشيء منذ أن همستْ إليه الربابةُ بالحرية. عرف أنه في يومٍ ما سيكون لنفسه ومن أجل نفسه، مثله مثل سيده وبقية السكان بقرية «أولاد أحمد» وقريتهم. حيث كان هو الأسير الوحيد المتبقي بها، فبعضهم هرب وبعضهم تمَّ استبداله في الماضي بأسرى من القبيلة لدى «الدينكا» وبعضهم مات.

ليس لأن الراعي العجوز لم يكن رحيمًا، بل إنه كان يحتاج لخدمات «غزال» المتواصلة في كلِّ أغراض الحياة وطوال الوقت، وخاصَّةً الأشغال التي تحتاج لرجلٍ ذكر، فليس لدى الراعي ذكورًا، فقط لديه ابنتان في العاشرة والسابعة من عمريهما، وكانتا مدللتين، وعلى «غزال» أن يقوم بكثير من المهام من أجل الأبقار ومن أجل البنتين وأمِّهما وأبيهما، وأيضًا يعمل مع جميع أفراد الأسرة في الزراعة المحدودة، ولكن أكثر ما يكرهه من عمل هو الطحين

باستخدام «المِدحاة»، وخاصَّةً في فترة الخريف عندما تتوقف الطاحونة الوحيدة بالقرية نتيجة لنفاد الجازولين أو الأعطال الصغيرة، حيث يصعب الذهاب إلى المدينة لجلب الوقود أو إحضار صناعيٍّ وقطع غيار، لأن اللواري السفرية تتوقف عن رحلاتها عندما تمتلئ الخيران بالماء وتنعزل قرية «أولاد أحمد» نتيجةً لعدم وجود طُرق معبَّدة منها وإليها، كما أن نزول الأمطار والعواصف الرعدية المشهورة بها المنطقة يجعل الأشخاص يحذرون السفر على ظهور الثيران والحمير أو حتى راجلين، ما عدا في حالة الضرورة القصوى، مثلًا عندما تتعسَّر سيدةٌ في الولادة وتعجز القابلة البلدية عن مساعدتها وتفشل الأدعية والصلوات وتمائم الفقيه، فإن أهلها يحملونها على حمارٍ ويخوضون بها الأوحال والخيران، ويخاطرون بحياتهم في مواجهة العواصف الرعدية إلى أقرب مركزٍ صحيٍّ بعد مسيرة يومٍ ونصف.

ففي الفَصل المطير وهو الصيف، يستخدم المواطنون «المِدحاة» وهي مطاحنُ يدويةٌ مصنوعةٌ من الحجر الجيري أو الجرانيت وتُسمي محليًّا بالـ«مرحاكة». وكان هذا العمل شاقًّا، حيث يقضي «غزال» ساعاتٍ طوالًا في طحن الـذُّرة، ممَّا يسبِّب له آلامًا في مفاصل ظهره ويديه وركبتيه. لأنه يجب عليه أن يكون باركًا على ركبتيه ومحنيًا ظهره في وضعيةٍ شبه موازيةٍ للأرض، حتى يتمكَّن

من تحريك حجر الرحى الصغير بكفَّتيه على حوض الصخرة الأم، لطحن الذرة بين الحجرين. لم يتعوَّد ذلكَ في قريته، حيث إن أمَّه هي التي كانت تقوم بإعداد الطعام في المنزل، ومهَّمته كانت اللعب وصيد بعض الحيوانات الصغيرة، مثل الأرانب والسناجب والجراد أو الأسماك في برك الماء الراكدة أو «الخيران» مع الصبية الذين في عمره، وعليه أيضًا الاهتمام بنفسه. كان يقوم بذلكَ في استمتاعٍ ومحبَّة، كما أن «جبريل أدومة كيري» لم يكن يشغِّله كطاحونة، بل لم يكن يتركه يعمل ما فوق طاقته، وكان يقوم بمساعدته في أعمال يقوم بها «جبريل» نفسه، أيْ كان يعامله كابنٍ له تمامًا، وما كان يضع القيد في رجليه. في الحقيقة لم يرَ «غزال» القَيد إلَّا بعد أن باعه «جبريل» إلى الراعي العجوز، وكان ينام مع الأسرة ويطعم معهم وممَّا يأكلون: فهو يحبُّ أسرة «جبريل».

أثناء القيام بعملية الطحن، كان يقول كلَّ ذلكَ بكلمات بلحنٍ عفويٍّ معبِّر، بلغته الأم، يغنِّي بذلك الحماس الذي تعلَّمه من الجدة «أجاك»:

يقول إن الطحين مؤلم، وإنه خُلق للهو واللعب كطفل، وللصيد والحرب كرجلٍ عندما يعبر حفل البلوغ، وإن الطحين الشاقَّ هو عمل كبار السنِّ الناضجين، من الأمهات والصبيات اللائي يحتفلن ببلوغهنَّ قريبًا، ويقول أيضًا إن «جبريل» وأهله هم بمثابة

أسرته الخاصَّة، لأنهم لم يستخدموه كماكينة طحين، ولأن ذلكَ عملٌ لا يتشرَّف رجلٌ بأن يقوم به، فالرجل يصطاد ويحارب ويسرِّح الأبقار ويحميها. وفي الأغنية أيضًا يقرِّر أنه سينتقم لنفسه في يومٍ ما، وسيكون انتقامه مثل انتقام ثور الجاموس الذي أكل الأسد عجله.

ثمَّ مع مرِّ الأيام أخذ يُدخل في الأغنية بعض الكلمات العربية، حينها فقط استطاع أن يخمِّن أفراد الأسرة ما هي أغنيات الطحين الخاصَّة بـ«غزال» التي ينشدها بصوته الجميل، على الرغم من الوحشية التي بصوته أحيانًا أو في الطريقة التي يغنِّي بها، موقَّعة بصرير احتكاك حجرَيِ الرحى، وكشيش درش الذرة بينهما، وتعبير وجهه الحزين. ولكن الكلمات العربية القليلة التي بها كانت عبارة عن أسماء للجاموس والأسد، وحجر الرحى، وجلد فرس البحر، والقيد، و«جبريل»، و«شوشايا»، والحربة ذات النصل الكبير جدًّا، وكثيرًا ما يذكر الرَّبابة التي يحبُّها ويحلُم بها ويشتهيها، أمَّا الأفعال كلُّها فكانت بلغته الأم. فقد كان سعيدًا مع «جبريل» على الرغم من اشتياقه لأهله وأسرته وبلده وأبقاره، كان يقول في أغنياته أيضًا: إنه مُستباح هنا في البيت بالذات، بصورةٍ تامَّة، وإنه لا يستطيع النوم قبل أن يستغني سيده عن خدماته ويضع القيد حول ساقيه حتى لا يهرب، ويغلق عليه باب الحُجرة من الخارج. وعليه أن يستيقظ مبكرًا لإعداد اللبن ورعاية الأبقار، وربما طحن بعض

الذُّرة لاستخدامها في عصيدة الإفطار، وإنه للأسف لا يستطيع أن يذهب إلَّا نادرًا إلى «أجاك» ليرى الرَّبابة.

قضى «غزال» على هذا الحال زمنًا طويلًا، ولكنه كان دائمًا ما يحلم بأهله وقريته وبيت أسرته وأصدقاء الطفولة، ويحلم بـ«جبريل» الذي لم يفكِّر فيه كسيِّدٍ بل كأب، ويتذكر الأمَّ «ملكة الدار» والصغيرة «شوشايا» الجميلة المشاغبة، التي عرف أنها تُوفيت من سيِّده الراعي العجوز، وعرف أيضًا أن أسرة «جبريل» تقيم في «الخرطوم»، في مكان اسمه «زقلونا» يعيش فيه الفقراءُ المعدمون والوافدون من الأقاليم البعيدة. وكان يعرف جيِّدًا أن أهله بحثوا عنه كثيرًا وسألوا عنه بعض الأعراب الذين يقابلونهم في الأسواق الكبيرة المشتركة، في المُدن المجاورة أو القرى الكبيرة، وهي عبارة عن مراكز تجارية وخدمية. ولكنهم لا يستطيعون أخذه بالقوة عن طريق مهاجمة القرية التي يوجد بها. نعم، إنهم قد يهاجمون القرية، وخاصَّةً بعد انتشار الأسلحة النارية الفتاكة، وتمكُّنهم من استخدامها بواسطة المليشيات التي تعمل على استقلال الجنوب. ولكن لا يعني ذلكَ أنهم سيحصلون عليه بصورةٍ مؤكَّدة، فالحروب بين أفراد قبيلته «الدينكا» والعرب سجالٌ ولا تتوقف، والسبي المتبادَل أيضًا لا يتوقَّف، وقد شاهد بأمِّ عينه نساءً وأطفالًا من العرب سباهم «الدينكا» وأخفوهم في قراهم وسط الأدغال،

وإنهم يتحدَّثون لغة «الدينكا» كما يتحدَّث الآن هو لغة العرب، والنساء تزوَّجن من أربابهن «الدينكا» والرجال تزوَّجوا من فتيات «الدينكا» أيضًا، وأنجبوا أطفالًا بلون المانجو وطول المهوقني. ويحدث في أحيانٍ كثيرةٍ أن يتمَّ تبادل المسبيين، امرأةً بامرأة، وطفلًا بطفل، ورجلًا برجل، أو فديتهم بالأبقار أو الأغنام. وهو أحيانًا يحسُّ بينه وبين نفسه بأنه أُهمِل، وبأن أسرته لا تهتمُّ، أو أنها لا ترغب فيه، ولكنه يطرد تلكَ الأفكار ويتفاءل بالخلاص، إلى أن همست إليه الرَّبابة بفكرة الحُرية، وبأن خلاصه يجب أن يوجده هو نفسه، هو بالذات، ولا يمكن أن ينتظر الأسرة أو القبيلة للأبد.

كان في ذلكَ الوقت في سنته الخامسة عندما تمَّ سبيه، وقد بلغ من العمر الثامنة عشرة الآن، وفكَّر في الهرب بجدِّيَّة، وهي المرة الأولى التي يفكِّر فيها بالهرب، وموسم الأمطار هو الموسم الأكثر ملاءمةً لذلك، نسبةً لصعوبة ملاحقته عبر الأحراش والظلام والخيران، كما إنه يعرف الاتجاه بصورةٍ جيِّدة، ويعرف أيضًا كيف يتخلَّص من القيد. لم يكن في ظنِّه أن أمر القيد معقَّد، بل إنه في الغالب كان رمزًا أو حاجزًا نفسيًّا ثقيلًا، أكثر ممَّا هو قيد يمنع الهرب، أو يصعب التخلُّص منه، أو يستحيل، فهو عبارة عن حبل من جلد فرس البحر مشرب بزيت السمسم والقطران لكي يحافظ على مرونته، ويستطيع «غزال» قطعه والتخلص منه في أقلَّ من ساعتين بسكينٍ

أو أية آلة حادَّة.

هنالكَ مسألة لا بدَّ من النظر إليها بعين الاعتبار، وهي أن «غزال» على الرغم من وضعه في القيد كلَّ ليلة إلا إنه لم يكن يخاف من القيد ذاته، ولكنه يخاف ممَّا يؤول إليه مصيره إذا تمَّ القبض عليه وهو في حالة هروب، هل سيفعل فيه سيِّده الراعي كما وعد أن يقوم بفعله إذا قبض عليه وهو في حالة هروب؟ هل سيعلِّقه على شجرة المهوقني من رجليه ورأسه إلى الأسفل إلى أن يموت ثمَّ يرميه طعامًا للذئاب؟ أم يقوم بقطع رجليه وربطه قرب حجر رحى الطحين ويستثمره كطاحونةٍ أبديةٍ للقرية كلِّها؟ كما تخيفه فكرة أن تأكله الذئاب والأسود كما حذَّره «جبريل» من قبل وهو في أيامه الأولى. ولكن في ذلكَ اليوم بالذات، يوم قرَّر ألَّا ينتظر منقذًا وأن يتحمل مسئولية حريته بنفسه، وأن يستخدم مخزونه الإنسانيَّ من الشرِّ الكامن فيه من أجل كلِّ الخير لنفسه؛ الشرِّ المعطَّل، حصلت المُعجزة، في ذلك اليوم الذي حصل فيه على حُلم حياته، وهو الربابة الساحرة المسحورة؛ حبيبة الحُلم.

في ذات الليلة بينما كان يحاول التخلُّص من القيد بقطعه بسكِّين الطعام التي سرقها بعدما انصرفت الجدة «أجاك»، وهي ذات السكين التي سيذبح بها سيِّده العجوز الراعي، وربما كلَّ أفراد أسرته، إذا به يسمع صوت إطلاق الرصاص والهُتاف وصيحات

الحرب، ولم يكن في حاجةٍ لأن يخمِّن ما يحدث: إن جماعة مسلحة من المليشيات تهاجم القرية الصغيرة؛ قرية «أولاد أحمد»، تهدف إلى سرقة الأبقار والذُّرة، ولأن سكان القرية لم يكونوا مستعدِّين لذلك، فما عليهم إلا أن يلزموا بيوتهم وينتظروا ذهاب المهاجمين، ثمَّ يقوموا بترتيب صفوفهم والتسلُّح جيِّدًا ووضع خطةٍ سريعةٍ للرد. إن الحرب وعنف المكان ووعورته علمتهم كيف يؤدُّون أعمالهم بالصورة المطلوبة وبالتريُّث المطلوب، فالحياة في مثل هذه الفلوات لا تتحمَّل المتهوِّرين الذين لا يتعلَّمون من تجاربهم في الحياة، ولا يفهمون دروسها اليومية، المندفعين المغفَّلين. عندما لا تكون هنالكَ سُلطة حكومية تحفظ أمن المكان يصبح الحفاظ على الحياة مسئولية المواطنين أنفسهم.

أسرَعَ في قطع القيد، ولكن القيد أقوى وأعند ممَّا تصور، فقد كان يقاوم نصل السكين بشراسة، ولم تستطع المُدية أن تعمل فيه سوى بعض الخدوش الصغيرة جدًّا، ويبدو أن الأمر يحتاج لأسبوعٍ كاملٍ من العمل اليوميِّ للتخلُّص من القيد. أُحبط إحباطًا شديدًا وحزن، فعندما حانت لحظة الخلاص تعقَّد الأمر. صوتُ الرصاص يعلو، ويُسمع بصورةٍ واضحةٍ هُتافٌ بلغة قبائل الجنوب. ويقترب الهتاف مرةً ويبتعد مرارًا. سكانُ القرية صامتون كأن لم يكن هنالكَ أحدٌ فيها، كأنها مقبرةٌ شاسعةٌ يسكنها الموتى. ينتظر المواطنون

أن ينتهي المهاجمون المهرِّجون اللصوص من فعلاتهم، وبعد ذلكَ يعرفون كيف يردُّون لهم الصاع صاعين، فمن يهرب بمراح من الأبقار لا يستطيع أن يمضي بعيدًا في وقتٍ قصير، وقتٍ يمكِّنهم من ترتيب أنفسهم وإعداد بنادقهم وسرج خيولهم ولبس تمائمهم وتأبُّط الشر. وإنهم متأكدون، سيدركونهم أينما حلوا، فأثر الأبقار يدلُّ عليهم وأنوف كلابهم الخبيرة الذكية ستقودهم إلى ما يصعب عليهم تحصيله بالعين والخبرة والتنصُّت. فمثل هذه الأحداث اعتادوها وخبروها جيِّدًا. كاد قلبه أن يطير من الفرح، عندما سمع أصوات البعض ينادونه باسمه القديم وهم يطوفون داخل القرية الصغيرة بين قُطياتها ورواكيبها وزرائبها الصغيرة والكبيرة، عبر سُوقها الصغيرة، كانوا يطوفون على ما يبدو بيتًا بيتًا وشارعًا شارعًا، رغم الظلام الدامس. كانوا يستخدمون بطارياتٍ يدويةً ومشاعلَ زيتيةً ليتبيَّنوا طرائق السير وعثرات الدروب.

وصرخ «غزال» مستجيبًا للنداء لمَّا سمع هاتفين باسمه خلف القُطية التي يقبع فيها مباشرة، صرخ مناديًا في حماس:

- أنا هُنا، أنا هُنا «تابان»، هُنا «تابان» هُنا.

تَمَّ تحريره من القيد الجلديِّ المتين بمساعدة بعض المحاربين الذين تجمَّعوا حوله. ومن ثمَّ، خرج وهو يصرخ فرحًا بحريته، ولم يحمل شيئًا من تلك القرية سوى حريته والرَّبابة، وحبَّه للأم «أجاك»

الطويلة. وترك في قُطيته جوار القيد الحقير المصنوع من جلد فرس البحر، حقده وكرهه أيضًا لمن وضعه في القيد، ولمن باعه، ولمن شغَّله ماكينة طحين. ولأن الجنوبيين والعرب أيضًا يعرفون أن كلَّ شيء يمكن تسويته بسهولة وتداركه وحلُّه والرجوع عنه، ما عدا قتل النفس، فإن المهاجمين تجنَّبوا إطلاق النار المباشر على المنازل أو حرقها. ولأن سُكان القرية يعرفون أن الدفاع الفرديَّ غير المنظم ضدَّ مجموعةٍ مهاجمةٍ منظمةٍ قد يقود إلى الموت أو السبي، فإن كلَّ واحدٍ منهم عمل بحكمة الأجداد:

«العجلة من الشيطان»

«وما ضاع حق وراءه مُطالب»

«أبونقدح[1] يعرف وين يعض أخوه»

لذا لم تحدث أية صدامات بين المجموعتين، سوى تلك التي نشبت بين المهاجمين والكلاب الشرسة التي تضجُّ في رعبٍ محاولةً إيقاظ سكان القرية الذين لا يريدون أن يستيقظوا في هذه اللحظة بالذات: فما كانت الكلاب تعرف حكمة صمت أصحابها، وادعاءهم الصمم أو النوم.

تلك الليلة كانت مظلمةً مثلها مثل ليالي الصيف المطير، والسُّحب السوداء تحجب كلَّ المحاولات المستميتة لأشعة النجوم

(1) السلحفاة.

لإشعال ليل القرية الداكن بالضوء. هو لا يعرف الأفراد الذين أنقذوه، ولم يعُدْ يتذكَّر أصوات أفراد أسرته ولا أحدًا من القرية، كانوا يَجِدَّون في المسير في اتجاهٍ ما، ليس الاتجاه الذي كان دائمًا ما يظنُّ أن قريته تقع فيه، ولم يأخذوا أبقارًا أو أية حيوانات، لم يأخذوا أسرى أو ذُرة، كانوا يأخذونه هو فقط لا غير.

وبعد مسيرةٍ دامت أكثر من خمس ساعات متواصلات، وعندما أخذ ضوء الشمس يغطِّي الأرض الطينية الحمراء المعشوشبة، كانوا يعبرون «نهر العرب» سباحةً في اتجاه الجنوب. في الشطِّ الآخر، عرف أن الذين أنقذوه، من بينهم أصدقاء طفولته الذين تغيَّرت ملامحهم مثله وأصبحوا رجالًا بالغين، وهم الآن ينضوون جميعًا تحت إمرة إحدى المليشيات المُسلَّحة التي تتبع المقاتلين الجنوبيين. وعرف أنه لن يعود إلى القرية، على الأقل الآن، عليه أن يتدرَّب على حمل السلاح، وفنون القتال من كرٍّ وفرٍّ ومراوغة، ويصير معهم جُنديًّا من أجل استقلال الجنوب عن الشمال، وأخذ الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشعوب الجنوب، وإقامة دولة القانون والعدل في السودان كلِّه؛ أيْ بفكرة «السودان الجديد» التي كان لها صيتٌ ومناصرون في تلكَ الأيام، وخاصَّةً بين الشباب المعجبين بالقائد المرحوم «جُون قرن دي مبيور».

كلُّ هذه الأفكار كانت غريبة وجديدة بالنسبة له؛ فكرة الحرب

وفكرة الحكم وفكرة الدولة، وماذا يعني الشمال وماذا يعني الجنوب وما هي الدولة الموحدة، ولماذا وكيف؟ ولأوَّل مرة يعرف أن هنالكَ عربًا غير العرب الذين يعرفهم، وأن هنالكَ قبائل أخرى ليست «دينكا» ولا «نوير» أو «شلك» أو «لكويا»، وأن هنالكَ غربًا وشرقًا وشمالًا وجنوبًا ووسطًا و«نوبة» و«بجا» و«هوسا» و«فور». كان الأمر غير مفهومٍ لديه وأغرب من الكابوس، ولكنهم جعلوه يفهم، ثم أعطوه بندقيةً أيضًا ليقاتل العدوَّ الذي عرفه للتو، والذي ما كان يدركه أو يميِّزه طوال عمره، بل ما كان يعرف من هو دكتور «جُون قرن دي مبيور»! ذلك الشخص الذي تغنَّى به لاحقًا، بعد سنواتٍ طويلة، في يوم استقلال الجنوب، قائلًا:

«لقد كنتَ الشمعةَ التي،
عندما عمَّ ضوءُها كلَّ مكان،
كَمُلتْ.»

لا أدري ما إذا كُنتُ سأربك القارئ جدًّا أو إلى حدٍّ كبير، إذا ذكرتُ هُنا، دون أية تفاصيل أو تقدماتٍ وحِيَلٍ سردية، أنَّ هذا الرجل الذي اسمه «غزال»، أعاد إلى نفسه اسمه القديم «تابان» فيما بعد، ولو أن اسم «غزال» كان يعجبه أيضًا، لجمال الغزال وسرعته ونحافته. وقد تزوَّج «تابان» من «رشا جبريل أدومة كيري»، ابنة «ملكة الدار»، في مدينة «الخرطوم» بحي «زقلونا» في اليوم الذي

حدث فيه انفصال جنوب السودان عن شماله، وإعلانه دولة مستقلة.

تزوَّجا في مدينة «جوبا» عاصمة دولة «جنوب السودان» في ٩ يوليو ٢٠١١؛ اليوم نفسه الذي تغنَّيا فيه معًا:

«لقد كنتَ الشمعةَ التي،
عندما عمَّ ضوءُها كلَّ مكان،
كَمُلتْ.»

وأغنياتٍ أخريات ...

جُنُونُ الدِّيكْ

قرَّر بينه وبين نفسه أنه إذا تمَّ علاجه من داء الديك فلن يقابلها أبدًا ما عاش على وجه الأرض، ولا يُريد أيضًا أن يراها حتى في يوم القيامة. لكن عليها ألَّا تغادر حجرته الآن. يُريدها أن تحميه، هي الطاقة الوحيدة في هذا الكون التي تقدِّم له القوة اللازمة لحمايته ودعمه النفسِّي وتهدئة أعصابه، وتعطيه الأمل في حياةٍ خاليةٍ من الآلام والفقر، ومنها هي أيضًا فيما بعد. أمَّا عيناها فيستطيع أن يتجنَّبهما. هاتان العينان المرعبتان سهَّلتا عليه مسألة التنجيس.

لم يكن «فتح الله فراج» هو الحالة الوحيدة التي أصيبت بداء الديك، بل ظهر في البلاد كلِّها ما يُعْرف بـ«الحالة الديكية»، وهي أقرب لما يُسمَّى بـ«جنون البقر»، حتى أطلق عليه بعض الأصحاء الساخرين؛ أيْ الذين لم يُصابوا به: «جنون الديك».

أُصيب كلُّ الذين دخلوا قبور النُّوبة وحصلوا أو لم يحصلوا على الذهب، بمرض «جنون الديك النوبي». وأصبح الصَّرف على علاجه كبيرًا جدًّا، خاصَّةً بعدما ظهر سَحرةٌ وفُكيان وساحرات جاءوا من «بَاسُندة» و«الكُرمك» و«أَبِيغُو» بالنيل الأزرق، وادَّعوا المقدرة التامَّة على معالجة تلكَ الحالات الديكية المُعقَّدة، وحدَّدوا مبلغًا كبيرًا لتكلفة العلاج، مع سَفك دم ديكٍ أحمَرَ، كلَّ يوم تقريبًا، عشاءً للساحر أو الساحرة، وعمل بخور وتمائم من ريشه ودمه للمريض. مع العلم بأنه لم تتم معالجة أية حالة، وللأبد، ولكن المرضى يصرُّون على مواصلة التداوي حتى لا يفقدوا الأمل في حياة صحية خالية من تدخُّل الديك السافر. وكثير من الساحرات كُنَّ يطلبن بعض الذهب، وربما قِلةٌ منهنُّ مارسن الجنس مع المرضى. المقصود هنا «الجنس العلاجي» كما أطلق عليه الساحرات أنفسهنَّ

منعًا للبس في المعاني، وتجنُّبًا للظنون القبيحة. مثل تلكَ الساحرة التي أُحضِرت خصِّيصى من قريةٍ على «قًطْع وَرْقَيْ» (يعني خور الذهب بالأمهرية)، الذي يقع فيما بين إثيوبيا والسودان، يسمِّيها السُكان بلغتهم المحلية: «أنجروتا» وتعني «السلام عليكم» بلغة «البرَتَا» الشائعة في تلكَ الأمكنة.

الوضع الصحِّيُّ لـ«فتح الله فراج» بدأ يزداد سوءًا، وعرف تقريبًا كلُّ المحيطين به والجيران والذين يتعاملون تجاريًّا معه وقدامى الأصدقاء والجدد أيضًا، أن «فتح الله فراج» أصيب بجنون الديكة، وشاهدوه يتحدَّث مع الديك الذي لا يرونه، بل أخذ يصاب بحالة من الذعر، ويقوم خلالها بتصرُّفاتٍ غير لائقة، مثل الجري في الشوارع مثل المجانين، أو التخلُّص من ملابسه والبقاء عاريًا كما ولدته أمُّه، أو حكِّ ظهره بأظافره إلى أن يدمى جلده، أمَّا مسألة النوم فغدت من المستحيلات، حيث لا يستطيع أن يفرِّق ما بين النهار والليل. ممَّا جعل زوج أخته يستعين بتلك الساحرة المشهورة التي كانت تقيم في قرية «أنجروتا» بالنيل الأزرق، وكان قد جرَّبها من قبل في خدمةٍ لمسئولٍ كبيرٍ في وزارة التربية الاتحادية كاد أن يفقد وظيفته نتيجةً للحسد والغيرة من قبل بعض الذين يطمعون في موقعه الرفيع، تلكَ الساحرة هي من أزال تأثير الحسد، بل حوَّلته إلى محبَّةٍ طاغيةٍ من جانب أعدائه وحاسديه، لدرجة أنه أصبح يخشى

من حُبِّ الآخرين له، وكثيرًا ما أحسَّ بالضيق من المحبَّة الزائدة، لأنه في قرارة نفسه يعرف أنها محبَّةٌ مسحورةٌ ومصطنعة، في باطنها ليست سوى حسدٍ مُعبَّرٍ عن بالحُبِّ أو بما يشبه الحُب، وأصبح يؤمن بالحكمة التي تقول: «من يكرهك جنَّبك شرور محبَّته» ولكنه على كلِّ حال، سيبقى في وظيفته إلى أن يتوفاه الله، وهذا ما أكَّدته له الساحرة «أنجروتا»، التي أطلقوا عليها اسم قريتها على ما يبدو، أو قد يكون هو اسمها أيضًا.

«أنجروتا يقول: تحيى وتموت في شغلك!»

الطريقة المثلى لطرد الديك في ظنِّها، بذبح ديكٍ يوميًّا، وتدخين المريض والبيت بريشه مخلوطًا مع أوراق شجرة «ابونقوي» ناشفة طبعًا، مع بعض التمائم التي لن تكشف عن اسمها، لكي تكون جديرةً بلقب الساحرة، وأن يبقى المريض في حالة نجاسةٍ دائمة، وهذا هو ما جعل استخدام الجنس للمداواة واجبًا وطبيعيًّا، ولا تشترط الساحرة أن يحدث ذلكَ معها هي بالذات، ولكن يمكن أن تُحضر إليه أية امرأة أخرى (ما عدا زوجته) مثل تلكَ النساء اللائي يعملن مع الدهابة في الصحاري ومواقع تعدين الذهب، جنبًا إلى جنب مع قدرٍ معقولٍ من اللوطيين، من أجل إكساب عمال التعدين النجاسة لا غير، مقابل مبلغٍ قليلٍ من المال أو الذهب يُدفع للداعرة أو اللوطي. بالتالي، الساحرة أولى بالشيء، لقربها من المريض،

ولمعرفتها بأهمية الفعلة، ولصعوبة إيجاد امرأة تقوم بهذه المهمَّة في «الخرطوم»، حيث إن الحكومة لها حساسيةٌ عاليةٌ من كلِّ ما هو جسديٌّ وجنسي، وتدخل أنفها حتى في الحياة الجنسية العلاجية الطبيعية للبشر، وذلكَ حسب ملاحظة الساحرةِ الطيبةِ «أنجروتا».

بعد الظهور العلنيِّ الأول للديك، قبل شهورٍ كثيرة، لم يظهر مرةً أخرى لأفراد الأسرة أو غيرهم، ما عدا المريض وحده، وهذا ملاحظٌ في كلِّ حالات الأشخاص الآخرين المصابين بجنون الديك، حيث لم يظهر الديك للآخرين غير مرةٍ واحدةٍ، ولكن الساحرة تقول إنها تراه في كلِّ وقت وكلِّ يوم، وهذا أمرٌ مشكوكٌ فيه، وربما تريد «أنجروتا» أن تُوجد لنفسها وضعيةً خاصَّةً، وتقوِّي موقفها السِّحْرى، وتؤكِّد على اختلافها النوعي.

مثل كلِّ مرضى جنون الديك، كان «فتح الله فراج» متمسكًا بها جدًّا، وكان يضع آمالًا عريضة، بل كلَّ آماله فيها، ويظنُّها المنقذ والمنجد له من الديك الشرس اللئيم، ومن حياة الضنك والرعب، وهو على استعداد أن يتنازل لها عن ربع ثروته إذا عالجته، بل نصف ثروته. كان يحسُّ بالأمان عندما تكون قريبةً منه، فهي لا تتحدَّث كثيرًا ولكنها تعمل في صمت، حتى عندما تصيبه بالنجاسة فإنها تصيبه أيضًا بصمتٍ وتأدُّب.

بدا أكثر هدوءًا واتزانًا، كما أخذ يأكل بصورةٍ شبه منتظمة،

ولو أنه كره رائحة دخان ريش الديك التي تشبه رائحة النشادر، وتصيبه في أحيانٍ كثيرةٍ بالاختناق والغثيان. قلَّت أوقات الغيبوبة التي تراوده بين حينٍ وآخر، ولكنه يريد التحسُّن الفعليَّ والسريع، يريد أن يعود لأعماله التجارية في السوق، تجارة العربات الخردة والمناقصات في دلالات الجيش والشرطة وغيرها من السيارات الحكومية، حيث يحقِّق منها أرباحًا كبيرةً تمكِّنه من مضاعفة أمواله، ولديه أيضًا فريقٌ متكاملٌ لتعدين الذهب مُعدٌّ بصورة طيبة، يباشر عمله بجدية، عليه وكيلٌ محترمٌ وأمينٌ جدًّا يثق فيه كثيرًا. يريد أن يعود إلى أشغاله الكثيرة، وأن يستمتع بحياته بصورة طبيعية عادية، مثله مثل كلِّ إنسان على وجه الأرض، يريد أن يكون سعيدًا، بل سعيدًا جدًّا، والمال هو مفتاح السعادة في الحياة، والفقر قاتلها الأوحد. ولا يظفر بذلكَ إلَّا بعيدًا عن الديك اللعين وشروره. عليه أن يثبِّت رجليه في السوق في استثماراتٍ كثيرةٍ مختلفةٍ ومتنوعة، حتى يكون في مأمنٍ من الكوارث التي تحدث بين حينٍ وآخر في أحد المجالات أو الأنشطة التجارية فتكسده. لو لا أنه لا يريد لابنه أن يترك الدراسة، ويريده أن يتخرَّج في كلية معتبرة ويحمل شهادةً كبيرةً ترفع رأس الأسرة بين الطبقات الثرية التي ينتمون إليها الآن، لسلَّمه إدارة كلِّ ماله واستثماراته ليديرها بنفسه، فالمال لا يصونه غير صاحبه، والمال دون سيِّده يتيمٌ ومستباح. أمَّا البنت فهو لا يثق

في أنها قد تقوم بعملٍ مفيدٍ في مجال المال والأعمال والاستثمار؛ فهي مشغولةٌ جدًّا بحياتها الخاصَّة مع زوجها، وتترقَّب إنجاب الطفل بين وقتٍ وآخر، وهي أيضًا غير مهتمَّةٍ بأشياء قد تعكِّر مزاجها وتخرِّب سكينتها. البنتُ تعيش في عالمها بعيدًا عن كلِّ شيء. ولم يفكِّر لحظةً في أن يعطي «نصرة» إدارة المال، فهو يعرف أن «نصرة» ما زالت تعيش عُقدة أن هذا المال ليس حلالًا عليهم، ما لم يعيدوا أصله لأصحابه وهم أبناء «جبريل أدومة كيري»، صديقه المرحوم، ولم يستطع أبدًا أن يجعلها تقتنع بفكرة أنه يدفع ثمن هذا الثراء من صحته ولحمه ودمه، ولم تقنعها فكرة عقده مع الديك في مغارة الرجل الميت في جبل «عضو الكلب». ألم يطلقا مثل هذه الكذبات منذ أن تحصَّلا على بيض الديك؟ فلقد كذبا كثيرًا، وما زالا يكذبان على الجميع، حتى أبناؤهم لا يعرفون حقيقة مصدر المال إلى اليوم. «نصرة» ليست بالشخص المناسب لإدارة المال، «نصرة» لم تتعلم من الفقر أن المال ضروريٌّ، ليس من أجل الحياة الكريمة فحسب، بل من أجل تجنُّب الفقر، ومن لم يكن معدمًا لا يعرف لؤم الفقر. الديك يعطِّل كلَّ مشروعاته، وقد يرميه في بالوعة الحاجة والعوز مرةً أخرى. «عليه لعنتي الخاصَّة.»

– خلصيني منه بسرعة أنا تعبت وتعطلت مصالحي!

الساحرة دائمًا ما تطلب منه التريث:

– الصبر يا «فتح الله فراج» الصبر. ما يدخل في ساعة من الزمن قد لا يخرج في سنوات. الله يقوي إيمانك، الصبر مفتاح الفرج، والمال فيهو الجنون. والسعادة مسألة حظ يا «فتح فراج». والراحة من الله.

الساحرة كانت فيما فوق الخمسين من عُمرها، ربما كانت سمينةً بعض الشيء في شبابها وأكثر طولًا، هي الآن نحيفةٌ ولها زوائد جلدية في كلِّ جسدها، وثديان كبيران متدلِّيان مثل كيسين جلديين فارغين. ظهرها به انحناءةٌ طفيفة، لها كفَّتان ناعمتان وقويتان، تفوح من أنفاسها روائح أقرب لعبق اللبن، وأحيانًا فوح العُشب البريِّ الرطب. ليست طويلة جدًّا، وجهها وسيمٌ وبه نقش بالإبر لا يمكن إحالته لشيءٍ بعينه، شفتاها مطليتان بلونٍ أسودَ دائم، يُصنع من عصارة عُشبةٍ تنمو في الجبال عند بداية الفصول المطيرة، وتلكَ صفةٌ جماليةٌ يتغنَّى بها شُعراء وفنانو الغابات في بلادها. عيناها صغيرتان ونظرها حاد، «فتح الله فراج» لا يستطع أن ينظر إليها في عينيها، كانتا تدخلان فيه الرُّعب، أو تثيرانه بطريقةٍ جنونية، ربما عيناها هما اللتان جعلتا منها ساحرة، أو إن سرَّ سحريتها هو في هاتين العينين. قرَّر بينه وبين نفسه أنه إذا تمَّ علاجه من داء الديك فلن يقابلها أبدًا ما عاش على وجه الأرض، ولا يُريد أيضًا أن يراها حتى في يوم القيامة. لكن عليها ألَّا تغادر حجرته الآن. يُريدها أن

تحميه، هي الطاقة الوحيدة في هذا الكون التي تقدِّم له القوة اللازمة لحمايته ودعمه النفسِّي وتهدئة أعصابه، وتعطيه الأمل في حياةٍ خاليةٍ من الآلام والفقر، ومنها هي أيضًا فيها بعد. أمَّا عيناها فيستطيع أن يتجنَّبهما. هاتان العينان المرعبتان سهَّلتا عليه مسألة التنجيس. فبمجرَّد نظرةٍ سريعةٍ لعينيها الغريبتين بينما هي تمتطيه — مُدَّعية بأن ذلكَ دون أيِّ اشتهاء، إنما من أجل العلاج — يحصل «فتح الله» على نجاسةٍ عاجلةٍ تكفيه ليومين قادمين وأكثر إذا لم يستحمَّ ويتوضأ من أجل الصلاة التي يحاول أن يحافظ عليها ما أمكن.

سِفْرُهُمَا

تمنَّى «أحمد» أن تكون تلكَ الشائعة التي ابتكرتها «ميرم» صحيحة، ولو أنه لم يسمع بها من قبل، ولا يهمُّ لسان الناس وتقوُّلاتهم، فإنهم على كلِّ حال لم يرحموهما، ويظنُّون بهما الظنون، ولو أن الظنون لم تكن سوى عين الحقيقة، بل إنهما يفعلان ما يفوق ظنون الظانِّين وإيهام الموهومين وقِيلِ القائلين. بل ما يجعل إبليس نفسه يقف مشدوهًا ومحتارًا من نزقهما. ولم يرَ «أحمد» أو ترى هي في ذلكَ عيبًا، فهما عاشقان ويعرفان أنهما سيتزوَّجان في يومٍ ما وملتزمان ببعضهما البعض، ويفعلان ما يريدان في حياتهما، وهما حُرَّان طالما كانا يستمتعان بجنونهما: ومن لا يعجبه ذلكَ فليشرب من ماء البحر.

سأل «أحمد زكي» زوجته «ميرم» وهو مندهش، عندما شرحت له كيف إنها أقنعت أمَّها بالزواج منه بتلك السُرعة؛ فلقد أطلقت «ميرم» شائعة أنها حُبلى لكي تتخلَّى أمُّها عن أفكارها المُنحرفة وغير المنطقية فيما يخصُّ الدراسة والجامعة وخُرافات الطبِّ والهندسة:

– وكيف أقنعتِ أمك بأنك حامل؟

قالت ضاحكةً وهي تطلق دخان سيجارتها في وجهه مباشرةً بمتعةٍ مجنونة، وتفعل ذلكَ ليس نتيجةً لعدم الاحترام أو لإغاظته، بل هي إحدى سُبل الغواية التي تستخدمها لجرجرة حبيبها إلى السرير، كأنما أصبح ذلكَ طوطمًا لا يقاوم سحره:

– همستُ لها في الصباح الباكر، قلت ليها الدورة الشهرية ما جات ليها شهرين وأسبوع من وقتها المحدَّد، فجنَّت المسكينة والفار لعب في عبها. وعندما استفرغتُ قربها البيض الذي ابتلعتُه نيئًا مع الحلبة ولبن شجرة العُشر، كانت عيونها أصبحت مثل الجمر حمر وصُغاااار، وطارت الجامعات والأحلام من رأسها في لحظات مثل العصافير. وجاتني بعد يومين وكنا بنستمتع بالموسيقى وقالت لي: «سيكون الزواج خلال أسبوع جهزي نفسك!» قلتُ لها وأنا

أمسك بطني: «أنا جاهزة يا ماما حبيبتي.» ولم أقل لك، أنت كنتَ في الغُرفة معاي، يوم البلكونة يا «زكي»! عندما أمي دقت الباب ومشيت ليها وتكلمت معاها!

ضحكا بمتعة، لم تنقصها سوى «هترشات» أبيها التي تصلهما بين حينٍ وآخر وهو يحاور ديكه اللعين، وأدعية وطلاسم الساحرة محاولةً تهدئته، وصلاتها بصوتها الجهوريِّ الخشن. فـ«ميرم» أيضًا كانت حزينةً من أجل أبيها، ويتقطَّع قلبها ألمًا عندما تسمع هلوساته، وبينها وبين نفسها تظنُّ أن أباها قد أُصيب بمسٍّ من الجنون أتى به من آبار الذهب، مثله مثل كلِّ الذين أُصيبوا بجنون الديك. وتعرف أن والدها سيموت قريبًا، كما مات الذين أُصيبوا بنفس المرض من قبله، وكما مات صديقه «جبريل كيري»، والموت خيرٌ له من العذاب الدائم. ففي الموت راحةٌ له مادام علاجه مستحيلًا.

تمنَّى «أحمد» أن تكون تلكَ الشائعة التي ابتكرتها «ميرم» صحيحة، ولو أنه لم يسمع بها من قبل، ولا يهمُّ لسان الناس وتقوُّلاتهم، فإنهم على كلِّ حال لم يرحموهما، ويظنُّون بهما الظنون، ولو أن الظنون لم تكن سوى عين الحقيقة، بل إنهما يفعلان ما يفوق ظنون الظانِّين وإيهام الموهومين وقِيلِ القائلين. بل ما يجعل إبليس نفسه يقف مشدوهًا ومحتارًا من نزقهما. ولم يرَ «أحمد» أو ترى هي

في ذلكَ عيبًا، فهما عاشقان ويعرفان أنهما سيتزوَّجان في يومٍ ما وملتزمان ببعضهما البعض، ويفعلان ما يريدان في حياتهما، وهما حُرَّان طالما كانا يستمتعان بجنونهما: ومن لا يعجبه ذلكَ فليشرب من ماء البحر.

يفكِّر «أحمد زكي» بجدية في أن يرحل هو و«ميرم» إلى بيته في أطراف «أم درمان»، وأن تقوم «ميرم» بتأجير شقتها التي وهبها لها والدها في قصره حيث يقيمان، لمستأجرٍ بمبلغٍ ما، ولكن «ميرم» لا ترغب في الرحيل، من أجل والدها، فهي تريد أن تكون قريبةً منه، والشيء الآخر أن «ميرم» تفضِّل الحياة المنعَّمة الرغدة في البيت النظيف الجميل، حيث تتوفَّر كلُّ سبل الحياة، على أن تعيش في تلكَ الصحراء القاحلة دون أية أسباب مقنعة، وعلى «أحمد» أن يقوم بتأجير بيته إذا وجد من يرغب في العيش هنالك. إنها تحبُّ ذلكَ البيت، ولها فيه ذكريات جميلة، وقضت فيه أجمل لحظات عمرها، وهو المكان الذي تعرَّف فيه جسدها للمرة الأولى على نفسه من خلال جسد الآخر، ويعجبها أن تقول إنها تركت عذريتها بين جدرانه، ولكن الذكريات الجميلة وحدها لا تكفي للمغامرة وتصعيب الحياة، فلا يوجد مصدرٌ للماء دائم، كما إن المرحاض الذي اكتمل الآن ليس سوى حفرةٍ في الأرض:

- وليه العذاب يا «أحمد» والشلهتة!

- أحس أننا سنكون أسعد في بيت يخصنا، بيت بنيناه بعرقنا مهما كان بسيطًا وحقيرًا وصغيرًا.

ومراعاةً لمشاعرها وخوفًا من غضبها وحَزَنِها، وحُبًّا وعشقًا وجنونًا بها، لم يقُل لها ما يريد قوله بالفعل؛ أيْ إنهما الآن في بيتٍ لا يعرف مصدر الأموال التي اشتُرِي بها، أهو من دم «جبريل» أم من ماله، أم هو مالٌ حلالٌ وشرعيٌّ من كنزٍ عثر عليه والدها المصاب بالجنون، الذي يصيح في هذه اللحظة مثل ديك الإنجيل.

سِفْرُ الاتِّحَاد

هنالكَ تفاصيل كثيرة، وأمورٌ جرت بسرعة، وغرائب وعجائب تحدث كما في الأحلام. ولكن ما يميِّز كلَّ شيءٍ كان الجنون الممزوج بالعاطفة، لم يستطِع بقية أفراد الفرقة التي تخصُّ «رشا» والفرقة الأخرى التي تخصُّ «غزال» أن يفرِّقوا بين شيئين مهمَّين، هل هذا العناق عناق أخوين افترقا منذ بدء الخليقة والتقيا الآن، أم إنهما عاشقان شتيتان تقطَّعت بهما سُبل الوصل ألف عام ونيِّفٍ والتحما الآن في شخصٍ واحد! هل يكفي أسبوعاًن للوقوع في الحُب؟ لستُ أدري، ولكنهما يكفيان لكي يتَّحد رجلٌ بامرأةٍ، وهذا مؤكَّد.

حضر «جبريل» قبل خمسةٍ وعشرين عامًا إلى هذه المنطقة من قريته بريف «هجليج» جنوب كردفان، سُمِّيت قرية «أولاد أحمد» على جده «أحمد الجنيد». كان يصطحب ابنته «شوشايا»، وزوجته «ملكة الدار»، وبجيبه حوالي أربعمئةٍ من الجنيهات، نصفها سعر الطفل «غزال» المُستبى الذي باعه لأحد أصدقائه الرعاة، على الرغم من أنه كان يحبُّه جدًّا. ولكن، الفقرُ غَلَّابُ المَحَبَّة.

ليس لديه من متاع الدنيا غير مركوبٍ واحدٍ من جلد البقر، قبيح اللون من تأثير فعائل الأزمنة والأمكنة، ولكنه متينٌ ويصلح للاستخدام إلى ما لا يقل عن خمسين عامًا دون أن يتلف، فهو يرتديه دائمًا، ذلكَ المركوب صاحبَه في كلِّ رحلاته وحوادث حياته الحزينة والسارة، فقد حضر به زواجه من «ملكة الدار»، وذهب به إلى دفن والده وابنته «شوشايا» فيما بعد، ودار به في المدينة لبيع اللحمة، وهو أيضًا كان معه في رحلة البحث عن الذهب وفي أعماق المناجم، وانحشر معه في قبور النُّوبة القدماء، وفي الرحلة إلى مغارة الرجل الميت في جبل «عضو الكلب» مع الخواجة الغامض، وعندما مات كان هذا المركوب يقبع تحت سريره يراقب طلوع الروح في حزن، ويودِّع صاحبه في

صمتٍ جلل. والآن تحتفظ به زوجته «ملكة الدار» في مكانٍ أمينٍ داخل بيتها. له جلبابان وطاقية وعمامة قصيرة جدًّا، منقوشة الجوانب بالكروشية، كانت هدية زوجته له قبل زواجه منها بعام، وهي علامة الحُبِّ والاصطفاء، وكانت زوجته أيضًا تمتلك ثوبين، أحدهما على جسدها والآخر في حقيبة الصفيح التي بها كلُّ مدخراتهم، من آنيةٍ صينيةٍ أصليةٍ وملابسَ وحليٍّ نُحاسيةٍ وذهبٍ مغشوشٍ وبعض العقود، والحلق البلديِّ المصنوع من الخرز والودع لها ولطفلتها «شوشايا»، ولها شبشبٌ واحدٌ ترتديه كلما خرجت من المنزل.

كانت رحلته إلى «زقلونا» ليست اختياريةً كما سلف ذكره، فلقد أصبحت القرية غير آمنة، وخاف من التعرُّض للسبي أو القتل في أية لحظةٍ من اللحظات، فليست هنالكَ سلطاتٌ حكوميةٌ تقوم بالحماية، وإن الحياة نفسها أصبحت لا تُطاق، نتيجةً للموت الجماعيِّ للأبقار بأمراضٍ غير معروفة، أو سرقتها عن طريق اللصوص القبليين، أو الجيوش الحكومية والمليشيات التي تمرُّ ليل نهار بتلك الفلوات البعيدة عن العواصم والمدن الصغيرة الأخرى، فالحياة في القرية إمَّا آكل وإمَّا مأكول، وهو يريد أن يعيش، ليس كمقاتلٍ ولكن كمواطنٍ عاديٍّ مدني.

بالتأكيد ليس من السهل على «جبريل» أن يخمِّن أنه في يوم ما سيتزوَّج «غزال» ابنته «رشا جبريل»، أولًا لأنه يعلم علم اليقينً أن

«غزال» لن يستطيع أن يفلت من قبضة ذلكَ الراعي، ربما للأبد، لأن الراعي كما يربط ويقيِّد بهائمه، فقد قام بوضع القيد حول رجلَيْ «غزال». نعم، قد تفديه أسرته أو يتمُّ استبداله بمخطوفٍ من قبيلةٍ عربية، ولكن هذا أيضًا نادر، لأنه يصعب على أسرته أن تعرف في أيِّ قرى أو مدن العرب يقبع ابنها، وهنالكَ مئات القرى والمجموعات العربية التي تُغِير على المجموعات غير العربية، والعكس أيضًا صحيح. والشيء الآخر، كيف يستطيع «غزال» أن يتصل بأسرته في «الخرطوم»، والخرطوم كما يقولون «كرش فيل». كما إن «غزال» لم يرَ «رشا» في حياته؛ هي أصغر منه بأربعة عشر عامًا على الأقل؛ فلم تنمُ تلكَ البذرة في قلب «جبريل» فقد كان يحبُّ «غزال» كما يحبُّ الأب ابنه، ونحن لا ندري ما إذا كان قد حلُم في يومٍ ما بينما هو في قرية «أولاد أحمد»، قبل أن ينتقل للخرطوم، بأن ابنته البِكر «شوشايا»، سيزوِّجها لابنه «غزال»، من يدري!

وهو أيضًا لا يستطيع أن يتخيَّل الطريقة التي سيلتقي بها «غزال» بـ«رشا». قادت ابنته فرقة موسيقية — وهي جماعتها المسماة «تصوُّف» — إلى «جوبا» قبل أسبوعين من الاحتفال بالاستقلال، لكي تشارك الجنوبيين فرحتهم، وهنالكَ تلتقي لأوَّل مرة في حياتها بمغنٍّ جنوبي، طويل القامة وسيم المحيَّا اسمه «تابان غبريال»، ويشترك معها في أداء الأوبريت الذي ألَّفته الأديبة «إستيلا قتيانو» وأطلقت عليه اسمًا

مربكًا: «قلب هنا، جسم هناك، والزول واحد». وكانت لهجته العربية ليست هي لُغة «جوبا» وليست عربية الوسط أو الشمال أو الغرب، ولكن لهجة أبيها وأمها، ينطق الكلمات تمامًا كما ينطقها أعمامها الذين يزورونهم بين وقتٍ وآخر في «الخرطوم» منذ أن توفي والدها، فعندما سألته من أين تعلَّم اللغة، قصَّ لها قصَّته كُلَّها، وحدَّثها عن «جبريل» و«ملكة الدار» و«شوشايا» الصغيرة.

«أنا لستُ شوشايا، شوشايا توفيت، أنا أختها الصغرى رشا جبريل.»

هنالكَ تفاصيل كثيرة، وأمورٌ جرت بسرعة، وغرائب وعجائب تحدث كما في الأحلام. ولكن ما يميِّز كلَّ شيءٍ كان الجنون الممزوج بالعاطفة، لم يستطِع بقية أفراد الفرقة التي تخصُّ «رشا» والفرقة الأخرى التي تخصُّ «غزال» أن يفرِّقوا بين شيئين مهمَّين، هل هذا العناق عناق أخوين افترقا منذ بدء الخليقة والتقيا الآن، أم إنهما عاشقان شتيتان تقطَّعت بهما سُبل الوصل ألف عامٍ ونيِّفٍ والتحما الآن في شخصٍ واحد! هل يكفي أسبوعان للوقوعٍ في الحُب؟ لستُ أدري، ولكنهما يكفيان لكي يتَّحد رجلٌ بامرأةٍ، وهذا مؤكَّد.

فبينما كان الجنوب ينفصل عن الشمال، كان «غزال» و«رشا» يتَّحدان. في نفس الوقت وذات الاحتفال: نستطيع أن نكتب إنها كانت ليلة «رشا» الأولى.

سِفْرُ المَلْحُوظَات

بالطبع كان هنالك، مُسَرْنَمًا، ويتحدَّث مع الديك المجهول. عرف الشرطيون أنه أحد ضحايا داء الديك، ولكنه لم يستيقظ لكي يخبرهم عن اسمه وأهله أو يدلي بأية معلومات. كانوا قد ألبسوه جلبابًا بالقوة، فمعروفٌ عن السلطات حساسيتها تجاه العُري والأعضاء الجنسية غير المستورة جيِّدًا عن العين. أصبح منظر المصابين المُسَرْنَمِين المصابين بداء الديك، العُراة، معتادًا جدًّا، وهي الحالة الصحِّيَّة المتأخِّرة جدًّا؛ أيْ حالة ما قبل الموت بأيام قلائل، والأسوأ هو حالة الصراخ والهيجان والهلع التي يُصابُ بها وهو مقفولٌ عليه في البيت، ومحاولته إيذاء نفسه بالضرب أو الجروح أو حكِّ الجلد المُدمى بالأظافر. والسحرة المعالجون يهربون في تلك اللحظات بالذات، مع أخذ أجورهم كاملة، وهو استحقاقهم عن الأمل الذي يعطونه للمريض في أوَّل فترة مرضه؛ فمن يستطيع أن يمنع الموت غير الله؟ وليست لديهم سلطة الله.

نحن الآن في ٢٣/ ٢/ ٢٠١٥، خمس سنوات منذ وفاة «جبريل أدومة»، حيث إنه توفي في يناير ٢٠١٠، وسنتان منذ أن انتقل «فتح الله فراج» إلى الرفيق الأعلى في ٢٠١٢، وأربع سنوات منذ أن تزوَّج «غزال» «رشا» في ٢٠١١، و٥٢ سنة منذ ميلادي أنا كاتب هذه الرواية، حيث تقول أمي إنني وُلدتُ في ٢٣/ ٢/ ١٩٦٣، و٥٩ عامًا منذ استقلال السودان ١٩٥٦.

إذا نظرنا نظرةً سريعةً لبعض الأمكنة والأشخاص في هذا السِّفر السرديِّ الذي يحكي أزمنة ما قبل التاريخ، ثمَّ ما قبل استقلال السودان، وهي الدولة الأولى في العالم والأخيرة التي تُسمَّى وفقًا للون بشرة سُكانها، وليس وفقًا لما قدَّمته الشعوب التي تقيم في هذه البقعة منذ آلاف السنوات قبل ميلاد «زرادشت» وملايين السنوات من ميلاد السيد المسيح «عيسى» ابن الإنسان، لم تُسمَّ هذه البلاد وفقًا لما قدَّمته للعالم من حضارةٍ كانت هي النبراس الأوَّل للإنسانية، وهي الحضارة النوبية.

إذا نظرنا إلى الحال في أزمنة وأمكنة السرد وعدنا إلى «زقلونا»، نجد أنها تغيرت بعض الشيء، وخاصَّةً بعد أن تمَّ قطع شجرة النيم

العملاقة التي على مصرف النفايات، حيث رأت حكومة الولاية أنها بذلكَ ستحلُّ مشكل العمالة غير الشرعية، مثل مهنة الحلاقة التي يقوم بها عم «عبد الرحيم خيرى»، وبيع السكاكين وسنِّها وتجليد الحجابات والتمائم، والمقصود هنا ما يقوم بممارسته «أونور» البجاوي، و«الشحادة» التي يمارسها بعض العُميان والمرضى المجذومين، منهم «علي مُكابسة»، وبيع الرغيف بصورةٍ غير صحية على طاولةٍ أو مفروشًا في جوالاتٍ على الأرض، وسيدات الخضار وبائعات الشاي والزلابية والكسرة، وستنهي مشكلة العطالة بصورةٍ نهائية، حيث اعتاد بعض الذين ليس لديهم مهنٌ ومهارات عملٍ محددة الجلوس تحت ظلِّ النيمة ولعب الورق وتبادل الحديث في انتظار من يحتاج لعمالةٍ طارئة، لأعمالٍ مثل حفر بئرٍ أو هدم منزل، أو أعمال بناءٍ لا تحتاج إلى مهارة، أو غسيل سيارة، وغيرها من المهن الهامشية التي قد توفِّر لهم بعض المصروفات الأسرية.

ونستطيع أن نرصد الأحداث في «الخرطوم» كما يلي:

قرَّرت حكومة ولاية «الخرطوم»، أسوةً بحكومة ولاية «شمال دارفور» التي أصدر واليها «أبو سيخات» فرمانًا بقطع أشجار حجر قَدُو، وهنَّ سنطاتٌ قديماتٌ معمِّرات، خُلقن قبل أن تُخلق «الفاشر» مدينة السلطان، وكُنَّ مجلس سلاطين «الفور»، وشهدن الحضارات بأعينهنَّ واحتوينها بظلالهنَّ، قطعها الوالي المجاهد ظانًّا

أنه بذلكَ يقدِّم خدمةً لله، لأن الشَّجرات العجوزات تقدِّم ظلَّها للعاطلين عن العمل والمفسدين، متجنِّبًا تاريخها العريق، باعتبار أن الاهتمام بالتاريخ غير الإسلاميِّ نوعٌ من الشرك بالله. والقرار الآخر الذي استهدى به والي الخرطوم هو قرار والي ولاية «كسلا»؛ حيث اكتشف الواليان التقيَّان العابدان المجاهدان الرساليَّان نفعنا الله ببركاتهما، أن الطريقة المثلى للتخلص من العطالة والتسوُّل، ومحاربة العمالة غير المقنَّنة العشوائية، وتجمُّعات المفسدين لاعبي الورق، هي قطع الأشجار التي تتمُّ تحت ظلالها الفاسدة تلكَ الأنشطة التي لا ترضي الله ورسوله، وتضرُّ بصحة المواطنين والاقتصاد الوطني. ووفقًا لذلك، تمَّ قطع شجرة النيم العملاقة، التي تنبت على حافة مجرى النفايات العتيق، وتبسط ظلَّها لعشرات الأمتار، ويقبع تحتها أساطين السُّوق، كما تمَّ ذكرهم: دكتور «عم عبد الرحيم خيري» الحلاق، والذي يقوم بإجراء عمليات الخُراجات السطحية وقطع الريشة للأطفال وطهارة الأولاد وعمل الحجامة، و«أونور» الحدَّاد الذي أصبح يُعرف بـ«أونور الثوري» بعد هُتافه الشهير في لوري الشرطة: «أونور يُريد تغيير النزام»، و«بت فضل الله» بائعة الزلابية، و«مكابسة» الأعمى الذي يبيع الرغيف أيضًا، ويجلس تحتها كذلك عمال اليومية السباكون والبناءون والكهربائيون وحفارو المراحيض المائية، والذابحون، ويُعْتبر «جبريل كيري» هو أول من عمل ذابحًا

في سُوق الشجرة بـ«زقلونا».

ولكن بسقوط الشجرة، ظهر سوق الرواكيب، كالنبت الشيطاني، حيث بنى دكتور «عم عبد الرحيم خيري» أول راكوبة في مكان جذع الشجرة المـوءودة واستخدمها كعيادةٍ له، وتبعه الآخـرون، وعندما جاءت البلدية بصحبة قوات الشرطة بعد أسبوعين وهدمت الرواكيب وحرقت الخيش والقش والعيدان، بنوها مرةً أخرى في الليالي المقمرة في ذات الأمكنة بالطين وبعض الحجارة والطوب اللبن. وكانت هذه هي بذرة سُوق الرواكيب الضخم بـ«زقلونا»، الذي عندما أرادت الحكومة القضاء عليه، لم تستطع، حيث رفض الناس الخروج من الرواكيب من أجل هدمها بواسطة الآليات الثقيلة، وتضامن مع العاملين بالسوق كلُّ المواطنين بزقلونا شرق وغرب، وقالوا لموظَّفي البلدية والشرطيين: «اهدموها على رؤوسنا.» ومع مرور الأيام اكتفت المحلية بتحصيل مبالغ من المال كرسوم على البناء العشوائيِّ لسوق الرواكيب.

الشيء الآخر الذي حدث، هو الظهور العلنيُّ لمرضى «جنون الديك» في الشوارع، وأخذ بعضهم يصيح مثل الديكة، وقيل إن ذلكَ يريحهم قليلًا ويبعد عنهم الديك لبعض الوقت، بعدما فشل السحرة والساحرات في الاحتفاظ بالمرضى في بيوتهم أو في مناطقَ معزولة، لأن مريض جنون الديك في أيامه الأخيرة يصبح شاذَّ

الأطوار، وبالنظر لحالة «فتح الله فراج» في أيامه الأخيرة قبل موته الذي حدث قبل عامين نستَبِين كلَّ شيء:

أوَّل من افتقد «فتح الله فراج» كانت الساحرة التي تنام معه في ذات الحجرة، حيث إنهما كانا ساهرين لوقتٍ متأخرٍ جدًّا من الليل، وكانت الساحرة متعبةً من جراء ذلك، لذا لم تشعر بـ«فتح الله فراج» عندما خرج من الحجرة ثمَّ من البيت كله، ولم ينتبه له أفراد الأسرة النائمون في حجراتهم المكيفة الهادئة المريحة الواسعة. عندما استيقظت الساحرة فجأةً ولم تجده، ظنَّت أنه ربما ذهب إلى حجرة زوجته «نصرة» أو لزير الماء الذي يحتفظ به في زاويةٍ من البيت، ولم تتأكد من هروبه إلَّا بعدما أتت «نصرة» لكي «تصَبَّح» عليه، وعندما لم تجده في السرير سألت الساحرة عن مكانه، وحينها فقط عرفتا أن «فتح الله فراج» خرج لمكانٍ ما خارج البيت بملابس النوم. وعندما وجدوا ملابس النوم جميعها في الباب الخارجي، ومن ضمنها الملابس الداخلية، موضوعةً بعناية على عتبة الباب، تيقَّنوا حجم الكارثة. وعلى أثر الجلبة التي يحدثها الارتباك، استيقظ بقية من في المنزل وهبطوا إلى الشوارع يبحثون عنه، واتصلت «نصرة» بالشرطة. بالطبع كان هنالك، مُسَرْنَمًا، ويتحدَّث مع الديك المجهول. عرف الشرطيون أنه أحد ضحايا داء الديك، ولكنه لم يستيقظ لكي يخبرهم عن اسمه وأهله أو يدلي بأية معلومات. كانوا

قد ألبسوه جلبابًا بالقوة، فمعروفٌ عن السلطات حساسيتها تجاه العُري والأعضاء الجنسية غير المستورة جيِّدًا عن العين. أصبح منظر المصابين المُسَرْنَمِين المصابين بداء الديك، العُراة، معتادًا جدًّا، وهي الحالة الصحِّيَّة المتأخِّرة جدًّا؛ أيْ حالة ما قبل الموت بأيامٍ قلائل، والأسوأ هو حالة الصراخ والهيجان والهلع التي يُصاب بها وهو مقفولٌ عليه في البيت، ومحاولته إيذاء نفسه بالضرب أو الجروح أو حكِّ الجلد المُدمى بالأظافر. والسحرة المعالجون يهربون في تلكَ اللحظات بالذات، مع أخذ أجورهم كاملة، وهو استحقاقهم عن الأمل الذي يعطونه للمريض في أوَّل فترة مرضه؛ فمن يستطيع أن يمنع الموت غير الله؟ وليست لديهم سلطة الله.

الجدير بالذكر هنا، إنه في نفس لحظة موت «فتح الله فراج»، اختفى الديكُ من منزل صديقه «جبريل» ولم يترك أثرًا، واختفى نقش صورة الديك في الخاتمين أيضًا، لأنه عندما أرادت «رشا جبريل» استخدام الخاتمين في زواجها كزينةٍ تذكِّرها بوالدها، لاحظت أن هنالكَ اختلافًا طفيفًا في مظهر الخاتمين، وعندما أعادت الذاكرة والمخيلة للخلف، في شأن رسم الخاتمين، تذكَّرت أنه كان هنالكَ نقشٌ لديكٍ أو ما يشبه الديك بالخاتمين، والآن لا يُوجد أيُّ نقشٍ بهما، وبدا كأنما تمَّ استبدال الخاتمين بخاتمين آخرين شبيهين بالأوَّلين، أو إنه تمَّ طمسٌ لمعالم النقش عليهما. كان ذلكَ مقلقًا بالتأكيد،

ومثيرًا للشكوك، ولكنها نسيت الأمر برمَّته، فموت والدها وفقده لا يعوِّضه خاتمان، أو نقشُ ديكٍ على خاتمين. واستخدمت الخاتمين كما هما، فكانا جميلين وساحرين ومريبين: وضعت واحدًا في إصبع زوجها «تابان»، ووضع «تابان» الآخر في إصبعها هي.

الظاهرة الأخرى، هي ظاهرة التجمعات الشبابية الثورية التي تعمل على التغيير، وتبتدئ بنشاطٍ وتفاؤلٍ وثورية، ثمَّ تحقنها الدولة بعناصرَ من نساء ورجال الأمن ليحوِّلوها إلى أداة مباركةٍ ومصالحةٍ ومجاملاتٍ وطنيةٍ ووسطيةٍ مميتة. وهنا نتحدَّث عن تجربة «رشا جبريل» وفرقة «تصوُّف» التي بدأت كوليدٍ شرعيٍّ لتيارات وسط اليسار، وهي فئة الطلاب والطالبات الذين ليسوا شيوعيين حزبيين، ولكنهم يحملون الأفكار الاشتراكية العامَّة ومناهج التحليل اليسارية، مع من يمكن تسميتهم بالعقلانيين؛ أيِ الذين يشغِّلون عقولهم مع قدرٍ من عاطفتهم ولا يسلِّمون بشيءٍ دون تمحيص، والصوفيُّ عندهم هو التأويليُّ، وضدُّ ما هو نقليٌّ ونمطي، بالتالي كانت المجموعة انتقائية، و«رشا» هي أمُّها الروحية مؤسِّستها، و«أدومة» مفكرٌ فاعلٌ انتمى إليها عن إعجابٍ ومحبَّة، وأصبح فيها مفكرًا فاعلًا ونشيطًا. والغناء والإنشاد ليسا سوى نشاطين من عدة أنشطةٍ تقوم بها الجماعة. وتصف المجموعة الانحطاط الفكري الذي تعاني منه طليعة وروَّاد البلاد منذ الاستقلال وما قبله في الدويلات العربية

الإسلامية بأنه نتاج سيطرة العقلية النقلية العاطفية التي تخاف من المغامرة، وتعمل خارج التاريخ والمكان والزمن. وانضمَّ لـ«تصوُّف» أيضًا في مرحلةٍ ما من حياتها، مَنْ ظنُّوا أن الاسم يشير إلى الصورة التقليدية للتصوُّف في السودان، وليس شيئًا آخر أقرب لحركةٍ عقليةٍ فكريةٍ معقدة، وظنَّه البعض ذا صلة بالدين؛ أيِّ دينٍ كان، ولكن حالما أدرك الكثيرون أنها ضدُّ فكرة الثبات والوسطيَّة والعاطفية، أنها حركةٌ عقلانيةٌ بحتة، تنطلق من وحدة الكون ومركزية العقل، وهي فكرةٌ ثوريةٌ في الأصل، غادرها المتدينون بعد حين، ودخلها رجال الأمن ونسائه كرسميين ثُقلاء متحشرين في كلِّ شأن، وأخذوا يعملون على تخريب كلِّ شيءٍ في الأفكار والتنظيم، وساقوها نحو الصوفية اليومية، ورمادية الفكرة، حيث اعتبروا الواحدية ما هي إلَّا الوحدانية عينها، وما المقصود بالكون غير الله. أمَّا على مستوى التنظيم، فانفصلت الجماعة الموسيقية عن الفكرية، وأصبحت هنالكَ جماعةٌ سياسيةٌ تناضل من أجل إنهاء السُلطة الأبدية للحاكم الأوحد للبلاد والباقي للأبد بشريعة الفُكيان والسحرة وقوة السلاح. وأخذت الجماعة تبني مؤسساتها منفصلة، وهي مُخْتَرَقَةٌ بصورةٍ تامَّةٍ من قبل السُّلطة نفسها. لذا كان هنالكَ ميلادٌ ثانٍ وثالثٌ لـ«تصوُّف» في محاولاتٍ دائمةٍ لتجنُّب جواسيس السُلطة المتلوِّنين مثل الحرباء، والعمل في مؤسسةٍ تخلو من أرنبات أنوفهم.

بعدما تزوَّجت «رشا جبريل»، من المغني الجنوبي «تابان غبريال»، وانفصالها عاطفيًّا عن «أدومة» وسفرها المتواصل للجنوب، أصبح اهتمامها الأكبر بالجانب الموسيقي، بل أصبح عملها ومشروعها في الحياة هو الموسيقى، وهي أيضًا أداتها للتغيير. تقول «رشا»: «هي وسيلتي للاعتقاد، وأداتي الفكرية في نفس الوقت.»

هل قلنا إنها انفصلت عاطفيًّا عن «أدومة»؟ ربما يكون ذلكَ صحيحًا، ولكن «أدومة» لم ينفصل عنها عاطفيًّا، أو يمكن القول إنه بدأ يحبُّها فعلًا، أو ما شابه ذلك، لأن مسألة الحُبِّ مسألةٌ شائكةٌ لا يمكن البتُّ فيها بسهولة. قال «أدومة» لها إنه مندهشٌ من طريقة زواجها من «تابان غبريال»، وهو لا يمكن أن يتصوَّر أن يحدث زواجٌ بهذه البساطة مع شخصٍ لم تعرفه من قبل، فقط سمعت به من أمِّها وأبيها، وفور أن تقابله تتزوَّجه مباشرةً! ماذا يُسمَّى هذا النُوع بالذات من الجنون؟ من المُلاحَظ أن «أدومة» له لسانٌ طلقٌ في حالة التنظير في من يصلح ومن لا يصلح للزواج، أمَّا هو فلا يتقدَّم خطوةً واحدةً صوبه. قالت له ذات مرةٍ وقد التقيا في ندوةٍ بمدينة «أم درمان»، وقد أبدى لها فكرته تلك:

– أنتَ أحيانًا تبدو متناقضًا جدًّا؟ ألسنا نحن جميعًا شخصًا واحدًا، أليس كلُّ هذا الكون عبارةً عن ذات الشيء! وكنا دائمًا معًا وسنظلُّ معًا للأبد؟

ردَّ إليها محاولًا تقليدها في استخدام الفصحى، ولا يخلو ردُّه من سخرية:

- بلا ... ولكن!

قالت له:

- اعتبر «غبريال» هو أنتَ بكلِّ الخبرة التي بيننا، بس باسم تاني وهيئة تانية. لقد كنَّا واحدًا!

قال لها ضاحكًا:

- انت بتحبي العساكر، «السر» كان عسكري برضو.

قالت له متفلسفة:

- كلنا عساكر وكلنا مدنيون.

قال مراوغًا:

- هي مجرَّد ملحوظة.

أعجبتها فكرة أنه بدأ يغير، فكرة ذوبان جبل الجليد الذي بقلبه، وتحطيم فكرة أنه لا يهتمُّ ولا يتأثَّر ولا يحزن ولا يندم على ما فات، ويعشق بعقله أكثر ممَّا يعشق بقلبه، وأنه العاشق العاقل المتوازن، وأنه الذي يعرف ما يريد وكيف يريد ويستطيع أنْ ... وتلكَ الكذبات الأخريات التي يطلقها على نفسه ويصدِّقها هو أولًا وأخيرًا، ويطالب الآخرين بتصديقها. وهي أيضًا تحبُّه، إذا كان الحُبُّ يعني أشياءَ وحالاتٍ كثيرةً مختلفةً، وليست له ذات المعاني، وهي أيضًا لا

تحبُّه، إذا كان للحُبِّ معنًى واحدٌ فقط، وهي لا تعرف هذا «المعنى الواحد الفقط»!

همس لها في أذنها:

- أنا بحبك.

قالت له ضاحكة:

- أنا أعرف.

قال وهو يحاول أن يبدو جادًّا جدًّا:

- أنا أقصد ما أقول.

قالت له:

- أنا الآن أحب «غبريال» فقط، وهو يكفيني تمامًا. وأظنُّ أنه الرجل الصحيح، بالقلب الصحيح، في الوقت الصحيح.

وأضافت وهي تنظر في عمق عينيه بمتعةٍ خاصَّةٍ، لترى تأثير كلماتها في عينيه:

- وللأبد!

قال، وقد بدا متورِّطًا في اعترافه، ويرغب في تسجيل بعض التراجع لحفظ ماء الوجه:

- فقط أحببتُ أن أقولها لكِ كملحوظةٍ ليس إلَّا.

إذا لم تنتقم المرأةُ لنفسها الآن وفي اللحظة ذاتِها، والمكان ذاتِه، فإنها ستردُّ الصاع صاعين قريبًا جدًّا: فلا تَنَمْ وبابُك مفتوح.

سِفْرُ أَمَانِي

في ذلكَ اليوم لم يكن هنالكَ أحد، لذا طلب منها ألَّا تلعب في الجهة التي على النهر، بل عليها دائمًا أن تكون خلف مرقده؛ أيْ فيما وراء شجرة السُّنط. البنت دائمًا ما تعمل بما يطلبه منها، وهذا ما يحبُّه فيها؛ لذا انهمكت الطفلة في اللعب على الرمال بالأصداف والقواقع الميتة، إلى أن انتبهت فجأةً لامرأةٍ جميلةٍ موفورة الصحة عارية، لها ثديان كبيران، وشعرٌ أسودُ مبتلٌّ مسدلٌ على صدرها وكتفيها وظهرها. كانت المرأة تخرج من ماء النهر وتمشي في ثباتٍ ناحية جدِّها الذي يبدو عليه أنه لا يشعر بوجودها، ووقفت البنتُ مندهشةً ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، وتركت ما بيدها من صدفٍ ومحارٍ وأخذت تحملق في المرأة الغريبة التي تخرج من النهر مبتلة الشعر وتمضي نحو جدِّها ...

لمَ نَظَر أفراد أسرة «نصرة» لأمر الثراء الفجائيِّ الذي حدث لها دون أسئلة، واعتبروا أن الأمر عاديٌّ جدًّا، وأن المالَ الذي أصابته ابنتهم «نصرة» مكتوبٌ منذ الأزل في لوحها المحفوظ؟ وهو حتميٌّ ويخصُّها بصورةٍ نهائيةٍ وتامَّة؛ أيْ إن قدر «نصرة» هو الثراء! لفهم هذا علينا أن نرجع قليلًا لحادثةٍ وقعت لـ«نصرة» وهي في الرابعة من عمرها، في القرية التي وُلدت بها على النيل الأزرق جنوب مدينة «الخرطوم».

كانت هي الصُغرى في أسرةٍ بها أربع أولاد وبنتٌ أخرى إلى جانبها، ومنذ سنواتها الأولى كانت تقيم «نصرة» في منزل جدِّها وجدَّتها العجوزين، فهما يحبَّانها، وهي تقدِّم لهما بعض الخدمات الصغيرة التي في مستوى عمرها. في الحقيقة، كان أكثر ما يعجبهما فيها هو مقدرتها على الثرثرة وتسليتهما بالمؤانسة ونقل أخبار القرية إليهما طازجة، وعندما لا تكون هنالكَ أخبار، فإنها تؤلِّف لهما أخبارًا قد لا تشبه الأخبار الحقيقية، لأنه لا يمكن تصديقها لإمعانها في الخيال، ولكنها كانت تسلِّي العجوزين وتجعلهما فخورين بخصوبة خيال حفيدتهما. والمهمة الأخرى التي تقوم بها «نصرة» الصغيرة هي

أخذ جدِّها الأعمى في مشواره الأسبوعيِّ كلَّ يوم ثلاثاءٍ إلى شاطئ النيل الأزرق. فَقَدَ جدُّها بصره منذ سنوات شبابه، ويظنُّ الذين لا يعرفونه جيِّدًا ولم يروه عندما كان مُبصرًا أنه وُلد أعمى، ليبقى في بيته ويصنع الحبال وينسجها على «عناقريب» القرية كُلِّها، والعناقريب كلمة نوبية تعني السرائر المحليَّة المصنوعة من الخشب والحبال، التي يستخدمها أهل القرية للنوم.

لدى الجدِّ عنقريبٌ قديمٌ، مصنوعٌ من مطارق شجرة السدر، يُسمَّى «الهبابي»، وهو مربوطٌ بصورةٍ دائمة — ما عدا في فترة الفيضان — مع ساق شجرة سُنط عملاقة، يُطلقون عليها «سُنطة النساج»، وذلكَ وفقًا للقب الجدِّ المشهور به. الشجرة تنمو على رمال الشاطئ، وفي موسم الأمطار تبدو كما لو كانت تنبت في وسط النهر، حيث يغمرها ماء الفيضان إلى ما دون الهامة بقليل، وتكون حينها بيتًا آمنًا للبجعات المهاجرات، وعصافير «أم عُويدات» ذات الريش الملوَّن الجميل. من السهل إطلاق عنقريب الجدِّ من ساق السُنطة، وغالبًا ما يفعل ذلكَ بنفسه بمجرَّد أن يلمس أيَّ جزءٍ من العنقريب، فإنه يتحسَّس موضع العقدة التي صنعها بيده في آخر مرة ويطلقها، ويحمل العنقريب وخلفه حفيدته إلى أقرب نقطةٍ للماء، ويضطجع عليه بينما تلعب البنت الصغيرة بالمحار وبعض حشرات الشاطئ الصغيرة. ولأن موقع الشجرة شبه مهجور، فإن الجد دائمًا ما يحاول

أن تكون البنت قريبةً منه، ولا يدعُها تدخل الماء وحدها، إلَّا إذا كان هنالكَ أحد سكان القرية، والذين يعرفهم جميعًا ويعرفونه ويأمنهم على البنت.

في ذلكَ اليوم لم يكن هنالكَ أحد، لذا طلب منها ألَّا تلعب في الجهة التي على النهر، بل عليها دائمًا أن تكون خلف مرقده؛ أيْ فيما وراء شجرة السُّنط. البنت دائمًا ما تعمل بما يطلبه منها، وهذا ما يحبُّه فيها؛ لذا انهمكت الطفلة في اللعب على الرمال بالأصداف والقواقع الميتة، إلى أن انتبهت فجأةً لامرأةٍ جميلةٍ موفورة الصحة عارية، لها ثديان كبيران، وشعرٌ أسودُ مبتلٌّ مسدلٌ على صدرها وكتفيها وظهرها. كانت المرأة تخرج من ماء النهر وتمشي في ثباتٍ ناحية جدِّها الذي يبدو عليه أنه لا يشعر بوجودها، ووقفت البنتُ مندهشةً ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، وتركت ما بيدها من صدفٍ ومحارٍ وأخذت تحملق في المرأة الغريبة التي تخرج من النهر مبتلة الشعر وتمضي نحو جدِّها، إلى أن وصلت المرأة إلى مرقد الجد، انحنت عليه فسقطت بعض ضفائرها المبتلة على وجهه، قالت له كلماتٍ قليلاتٍ لم تسمعها البنت. جلس الجدُّ على العنقريب، ضمَّته إلى صدرها لوقتٍ قليلٍ ثمَّ دفعت حلمة ثديها الأيسر نحو فمه، وبحنوٍّ بالغٍ أخذت ترضعه. وكان الجدُّ يرضع مثل الطفل، وهو يلفُّ ساعديه الطويلين حول ظهر المرأة. ثمَّ استبدلت الثدي الأيمن بالأيسر. ثمَّ أخذ يرضع مرةً

أخرى إلى إن شبع تمامًا وأطلق ساعديه من جسد المرأة، ورقد على العنقريب شبه مغمًى عليه. في تلكَ الحظة أشارت المرأة للطفلة بأن تأتي، فجرت «نصرة» نحوها دون خوف. حملقت «نصرة» في وجهها وسألتها ببراءة:

- انتِ منو **Er neete**؟

قالت وهي تضمُّها إليها في حنانٍ دافق:

- أنا أماني **Ay amani – tenen**.

سألت الطفلة:

- أماني منو **Amani ny**؟

فلم تجب المرأةُ، ولكنها قبَّلت الطفلة في خدَّيها، ثمَّ قدَّمت لها ثديها الأيمن فرضعت فيه بثباتٍ كما رضع الجد، ثمَّ مدَّت إليها الأيسر فرضعت أيضًا، من ثمَّ تركتهما المرأة وذهبت نحو النهر، وأخذت تخوض فيه إلى أن ابتلعها الماء تمامًا واختفت عن نظر الطفلة، ولم تلتفت للخلف، لتردَّ تحية الوداع التي تلوِّح بها الطفلة الصغيرة مشيعةً بابتسامةٍ ملء شفتيها.

وانتشر الخبر في القرية عن ظهور «أماني»؛ أيْ «الملكة» بالنوبية، وأنها أرضعت الجدَّ النسَّاج الأعمى وحفيدته «نصرة»، فلم يشكَّ أحدٌ أبدًا في صدق الحدث، فظهور «الملكة» أو «أماني» أو «الجدة» كما يسميها البعض، يحدث بين وقتٍ وآخر، ولو أنه لم يرَها أحدٌ من

الأحياء الآن، ولكنهم يتناقلون حكاية ظهورها من جيلٍ لجيل، ومن عصرٍ لعصر، وكانت في كلِّ الحكايات الماضية عنها لاً تفعل شيئًا، أو لم ينتظرها من شاهدها لتفعل ما تريد، والكثيرون الذين رأوها في عصورٍ غابراتٍ كانوا يهربون بمجرَّد ظهورها خارجةً من ماء النهر، يسرعون لبيوتهم وهم مصابون بالحمَّى من الرعب. ولكن يؤمن الجميع بأنها لا تضرُّ أحدًا، بل إنها الخير ذاته، فمن رآها سيسعد في يومٍ ما، أمَّا من أرضعته فإمَّا أن يصبح من المُعمِّرين مع الاحتفاظ بصحةٍ جيِّدةٍ خاليةٍ من الأمراض وصرف الدهر، وإمَّا أن يصيب ثروةً كبيرةً مذهلةً في حياته بعد فقر وعوز.

وفعلًا، عاش الجدُّ إلى أن نسي الناس كم كان عمره، وعندما انتقل للرفيق الأعلى كان قويَّ البنية وبإمكانه أن يعيش مدى الدهر. ولو أنه كان يفضِّل الثروة الكبيرة المذهلة، مع العمر المناسب. أمَّا بالنسبة لـ«نصرة» مع مرور السنوات، فإنها ما عادت تذكر تفاصيل تلكَ الحادثة جيِّدًا نسبةً لصغر سنِّها في وقت حدوث الحادثة، ولكن الآخرين يذكِّرونها بها؛ الذين كانوا أكبر سنًّا وأقوى ذاكرة. فأمَّا الجد، تجنُّبًا للعين والحسد، فإنه كان كتومًا جدًّا، طوال حياته المديدة، كلُّ الذي أخبر به الآخرين عن تلكَ الحادثة أن «لبنها كان مثل الهواء، تحسُّه في بطنك فقط، ولا طعم له في الفم.»

وعندما بدأت تعرف رمي الودع وضرب الرمل، لم يستغرب

الناس أيضًا، فهي «رضيعة الجدة أماني» والناس ينتظرون منها الكثير. وعندما أصابت ثروتها وهي في أواخر الأربعينيات من العمر، ولو أنها لم تخبر أحدًا عن مصدر الثروة، فهي لم تربط ذلكَ بأية قصةٍ خرافيةٍ أو أسطورةٍ أو أعجوبةٍ حصلت لها. لم يكن حدث الرضاعة على قوته وفرادته وجديته ذا تأثيرٍ فعليٍّ على معتقدها بشأن المال الذي تنعم فيه الآن، ويتعذَّب لأجله زوجها «فتح الله فراج»، ولم يكن أيضًا يجعلها تتسامح مع فكرة أن هذا المال من أجلها، بل عقدة أنهما استوليا على مالٍ كانت أحقَّ به أسرةُ «جبريل كيري»، تقضُّ مضجعها، ولو أنها تبني لأسرته بيتًا جميلًا وتدفع لهم مالًا سخيًّا بصورةٍ متواصلة، وعندما تزوَّجت «رشا جبريل» من «تابان»، قامت بأخذ الأسرتين إلى الجنوب متكفلةً بكامل التذاكر والإقامة والمصروفات اليومية، وقدَّمت للعروسين هديةً عبارةً عن بيتٍ صغيرٍ في حي «الملكية» بجوبا، ومبلغًا من المال يكفيهما للعيش سنتين على الأقل، وأهدت «رشا» حلقتين من الذهب كبيرتين، وكانت تشعر بالخجل لأن الحلقتين كانتا تقريبًا نصف بيضة ذهب أهدتها التوأم للطفل «فراج»، وفعلت الكثير الذي يصعب ذكره من أجل الأسرة، إلا إنها لم تكمل المبلغ الذي تظنُّ أنه يخصُّهم بعد.

أمَّا الناس الذين يعرفون «نصرة» مُنذ وقتٍ بعيدٍ وشهدوا طفولتها أو سمعوا بقصَّتها من ثقات، فيقولون إنَّ ثراءها كان مُتوقَّعًا. ويزيد

ما حصلت عليه من ثراءٍ إيمانَهم بالجدة الملكة التي تعيش في الماء، حيث يُشتقُّ اسمها «أمن» منه أيضًا. بل إن بعض العجولات والعجولين أصبحوا يتردَّدون ليل نهار على تلكَ البُقعة من النهر، ويجلسون الساعات الطوال مترقِّبين ظهور الملكة الجدة «أماني» أن تأتي وترضعهم، فإنهم لن يهربوا منها كما هرب الذين سبقوهم: الجميع يريد من الجدة إمَّا طول العمر وإمَّا الثراء، والغالبية تفضِّل الثراء، فما فائدة عمرٍ طويلٍ مع عوزٍ وفقرٍ ومسغبة؟ ومن يسترق السمع يستطيع أن يسمع فجر كلِّ يوم ثلاثاء (وهو يومٌ أصبح علامة الانتظار الموحَّد للذين لا يمكنهم الحضور اليومي للشاطئ نتيجةً لمشغوليات الحياة) ذلكَ النداء الذي اتفق عليه جميع المنتظرات والمنتظرين البائسين والبائسات على شاطئ النهر: «يووو أماني يووو».

سِفْرُ السَّرْد

الرغبة في الكتابة مُلحةٌ مثلها مثل الحاجة لتدخين سيجارةٍ ملحاحةٍ وثقيلة. ولكن ما الفائدة التي تُرجى من كتابة روايةٍ كاملةٍ عن أفرادٍ أصيبوا بمرضٍ غريبٍ سُمِّي بـ«داء الديك النوبي»، وماتوا جميعًا، ثمَّ لم يُصَب غيرهم ممن دخلوا ذات القبور فيها بعد وسرقوا الذهب. ما المُدهش في سرد عَيِّنة هذه الوقائع؟ أليست مثلها مثل غيرها من الأشياء التي تبدو غريبةً في الحياة، وتُعْبر وتُنسى، ثمَّ لا يذكرها أحد! وما الحكمة؟!

عندما سمع «أدومة» أن «فتح الله فراج» أُصيب بداء الديك الذي انتشر فجأةً كوباء الطاعون بين الدَّهَابَة، ثمَّ انتهى فجأةً في بحر أربع سنواتٍ بموت جميع من أُصيب به، خطرت له فكرة أن يكتب روايةً مستوحيًا فيها هذا الحدث الغريب، مستهديًا بفكرة الجدة «فرجينيا وولف» تلكَ الروائية الإنجليزية الغريبة؛ أن كلَّ الموضوعات تصلح أن تكون رواية. ولكن ما يحيِّر بالفعل، أن الموضوع على الرغم من غرابته إلا إنه واقعيٌّ وحدث بالفعل، ولأشخاص بأعينهم، جُلُّهم قد مات الآن، وهذا بالطبع يفسد فكرة السرد، كعملٍ في الخيال، أداةً وموضوعًا، لأن نقل صورة الواقع، مثل رسم شجرةٍ هي في الواقع أكمل وأجمل وأعمق ممَّا ستكون عليه وهي منقولةٌ بواسطة شخصٍ فنانٍ أو غير فنان، ما لم تُصهر في أتون الخيال لتصبح فنًّا، به ملامح الشجرة المتخيَّلة وطاقة الفن.

يُوجد جانبٌ مخفيٌ عن «أدومة»، وهو حقيقة أو وهم العقد الذي أُبرم بين «فتح الله فراج» والديك، فإن «فتح الله» لم يحدِّث به غير زوجته «نصرة»، و«نصرة» وفقًا لطبيعتها المتشكِّكة لم تصدِّقه واعتبرت ذلكَ جزءًا من أعراض مرض جنون الديك اختصَّ

زوجها بهذه الأوهام منه، حيث لم يتحدَّث أيٌّ من المرضى عن هذا العقد علانية. لو سمع «أدومة» بهذا الجزء من الحكاية، لكان الأمر اختلف وبدأ في كتابة روايته مباشرة، لأنه سيربط ما بين عقد الديك وعقد في التراث والمخيلة لبعض الشعوب الأوربية؛ عقد أبرمه مثقفٌ عصاميٌّ مع الشيطان، اسم الرجل «دكتور فاوست» واسم الشيطان «مفستو»، وقد كتب الحكاية أديبان معروفان وهما الألمانيان «توماس مان» (١٨٧٥-١٩٥٥) و«ولفجانج فون جوته» (١٧٤٩-١٨٣٢)، وهي في الأصل حكايةٌ تراثيةٌ دينيةٌ كتبها قدِّيس له خيالٌ ثريٌّ، أحَبَّ أن يحذِّر من الوثوق في الشيطان والتعامل معه، وأن يخيف أتباعه البُسطاء المؤمنين، من مغبَّة ذلك. «أدومة» يعرف القصَّتين وقرأهما في عام واحد.

إذن لا جناح على «أدومة» أن يكتب هو أيضًا ذات الأسطورة بالإخراج السرديِّ الذي يريده ويراه ويفضِّله، وخاصَّةً إنه سيستفيد من حدثٍ محليٍّ واقعيٍّ كمحفِّزٍ للتأليف واستثارة الأخيلة، فما الكتابة كما قيل سوى تناص، إمَّا مع نصوص، إمَّا مع الواقع، إمَّا مع الخيال نفسه، وفي أحيانٍ كثيرةٍ تناصٍّ مع تحقيقات الكاتب ذاته.

والمعلومة الأخرى المفيدة أيضًا بالنسبة لـ«أدومة» كمؤلفٍ لروايةٍ تتحدَّث عن جنون الديكة ويفتقدها هو، أنه لم يعرف أن «فتح الله فراج» قد انتقل بعد موته مباشرةً إلى موقعٍ للملوك بجزيرة «ناوا»،

وهو موقعٌ يسمِّيه العارفون «جزيرة الروح»، والذين لا يفقهون في السرِّ يطلقون عليه «جزيرة السحاحير»، وهو في الأصل مجمَّع ملوك النيل الذين أثروا الحياة معرفيًّا وحضاريًّا وإنسانيًّا، بل ودينيًّا أيضًا، ثمَّ أقاموا في هذه الجزيرة كجنةٍ مؤقتةٍ محجوبةٍ عن الأحياء، ولكن الأحياء بالنسبة لهم مكشوفون ومفضحون.

في سبيل بحث الجدود المنشِئين عن الصورة المادية للرب، عثروا على الشيطان، وعرفوا أنه الشيطان منذ اللحظة التي عثروا عليه فيها، ولو أنهم ما كانوا يعرفون ما الفرق بين الربِّ والشيطان (أوَّل من اتنبه لتلك الجدلية «زرتشت **Zoroaster**» الكردي - ١٤٠٠ ق. م.) إلا إن الشيطان ما كان يحتاج لأية مقارنات لكي يُدرى كنهه، فاتخذه طلائعهم نبراسًا للطريق نحو الله، فهداهم الشيطان إلى المعرفة، وأفشى إليهم بسرِّ الحضارة، وقدَّم لهم خارطةً لبناء الجنة المؤقتة في الجزيرة «ناوا» والأهرامات رمزًا للخلود وهي تشير برأسها نحو الأعلى، فظنُّوا أنه يهديهم بتلك الرمزية لمقام الربِّ الذي كان في تصوُّرهم ليس سوى قوةٍ مطلقة، ويمكنها أن تحلَّ في أيٍّ من مظاهر الكون والطبيعة، مثل البشر والشجر والحيوانات، والشمس أو القمر، والنهار أو الليل، الميتين، أو حتى في كلمات اللغة، وذلكَ قبل أن يحدِّد لهم الشيطان موقعه في السماء. لقد كان عندهم الربُّ قبل ذلكَ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ وشيءٍ وحدث، لذا قد اتخذوا كثيرًا

من الأشياء آلهةً لهم، لأنها كُلُّها ذات الشيء الذي لا يعرفونه ماديًّا، ولكنهم يجدونه حيثما كان وكانوا. ثمَّ قال لهم الشيطان: «إنه في السماء».

يستطيع «أدومة» أن يربط بين هذا وذاك، وحتى ما لا يدريه ويخبره، فالمعرفة التي تكمن في الخيال أكثر قوةً ممَّا هي في العلم. إذن بإمكان «أدومة» أن ينشئ نصَّه حتى لو لم يدرك ما غاب عنه من معرفة، أو إنه يدركها عندما يتَّخذ مقعد الباحث الأكاديميِّ والصحفيِّ والمتحري الشرطيِّ في آنٍ واحد. فالرواية هي بحثٌ سرديٌّ تخيُّليٌّ في المقام الأول والأخير. وسيذكر «إيميل زولا» الفرنسيَّ عندما شاء أن يكتب عملًا عن الموتى، فاستحضر التابوت في غرفته ليوحي إليه بالموت. و«أدومة» نفسه عندما كتب «الطواحين» قرأ كتبًا وأبحاثًا عن الفنِّ التشكيليِّ وحياة التشكيليين الكبار، وخاصَّةً «كاندنسكي» الذي يعجبه أكثر. الطريق إلى كتابة روايةٍ عن جنون الديك النُّوبي، قد يمرُّ عبر بوابة أسرة المرحوم «فتح الله فراج»، أو أيٍّ من المرضى المرحومين الذين فقدوا حيواتهم الدنيا بصورةٍ غريبةٍ وغير مفهومة، بعد أن صاحوا مثل الديَّكة التي فاجأها الصباح.

الرغبة في الكتابة مُلحةٌ مثلها مثل الحاجة لتدخين سيجارةٍ ملحاحةٍ وثقيلة. ولكن ما الفائدة التي تُرجى من كتابة روايةٍ كاملةٍ عن أفرادٍ أصيبوا بمرضٍ غريبٍ سُمِّي بـ«داء الديك النوبي»، وماتوا

جميعًا، ثمَّ لم يُصَب غيرهم ممن دخلوا ذات القبور فيها بعد وسرقوا الذهب. ما المُدهش في سرد عَيِّنة هذه الوقائع؟ أليست مثلها مثل غيرها من الأشياء التي تبدو غريبةً في الحياة، وتُعْبر وتُنسى، ثمَّ لا يذكرها أحد! وما الحكمة؟!

تذكَّر حادثةً أُطلق عليها «لعنة الفراعنة»، حدثت قبل سنواتٍ كثيرةٍ لفريق الآثار بقيادة العالم البريطاني «هوارد كارتر» الذي اكتشف مقبرة «توت عنخ آمون» سنة ١٩٢٢، حيث إن كلَّ أفراد الفريق قضوا نحبهم في ظروفٍ مختلفة، وكانت عاديةً جدًّا ولا غرابة فيها، ولكن الغرابة كانت في أنهم ماتوا بصورةٍ طبيعيةٍ كما يموت كلُّ البشر الذين لم يدخلوا المقبرة، ولكن جميعهم مات في بحر سنتين بالتمام، وكان هذا هو المُدهش في الأمر. هل هنالكَ ما يمكن أن يكون «لعنة النوبة»؟ أم إن لعنة الفراعنة ذاتها مجرَّد أكذوبة أطلقها لصوص القبور مستفيدين من نصوصٍ مرعبةٍ مشهورةٍ كانت مكتوبةً في بردي قرب جثامين الملوك، لكي ينفردوا بسرقات الكنوز والقبور الفرعونية وحدهم، ويبتعد عنهم لصوصٌ غير مهرةٍ يخافون الموت واللعنات الفرعونية القاتلة، كما صوَّرها لهم اللصوص المحترفون؟

نصوصٌ مثل: «سيضربُ الموتُ بجناحيه السامين على كلِّ من يعكِّر صفو الملك.» وغيرها من الكتابات القديمة التي تُدخل الرعبَ في نفوس اللصوص الذين يسرقون من أجل أن يعيشوا في استمتاعٍ

لأطول وقتٍ ممكنٍ في الحياة الدُّنيا الجميلة، وليس لكي يضرب الموتُ بجناحيه السامِيين عليهم ويرسلهم للآخرة الغامضة التي لا يعرفون عنها الكثير سوى بعض الظنون.

كانت الأفكار تدور وتجول في رأسه، وهو لا يعرف: هل يلبِّي حاجة روحه للكتابة، أم إن الموضوع لا يستحق، وهو ليس سوى لعناتٍ نوباويات حزينات؟

ثم خطرت له فكرةٌ أخرى أكثر واقعية: لِمَ لا يكتب عن قرى الدهابة والأثر الاجتماعيِّ الأخلاقيِّ والاقتصاديِّ والصحِّيِّ على سكان المناطق التي يتمُّ فيها التعدين العشوائي؟ حيث انتشرت أنواع السرطان المختلفة نتيجةً لاستخدام الزئبق ومادة السيانيد الكيميائية القاتلة في عملية التعدين، وهما مادَّتان تمَّ التأكُّد من علاقتهما بالسرطان وبعض الأمراض المزمنة الأخرى، كما إن المجتمعات الجديدة التي تشكَّلت نتيجةً لتجمعات العمال جديرةٌ بالبحث السردي، لأن أخلاقًا جديدةً ولغةً جديدةً تشكَّلت في تلكَ الأمكنة. وقد وصلته بعض الحكايات الغريبة والمُدهشة جدًّا عن هذه المجتمعات، ولكن لكي يكتب عن تلكَ المناطق لا بدَّ من التجربة الحية المحفِّزة للأخيلة. هو يذكر أن الروائيَّ «عيسى الحلو» قال ذات مرةٍ في حوارٍ صحفي: «إن الكاتب يكتب جيِّدًا عن المكان الذي يعرفه معرفةً حقَّة.» فهو يثق في الأستاذ «عيسى الحلو» ويعتبره

شيخه في السرد، بالتالي يصدِّق ما يقوله ويعتقده ذلكَ العجوز الذي ظلَّ دائمًا على «مرجيحة الطفولة». هل سيسافر إلى الصحراء النوبية ليرى ويسمع ويشمَّ ويحسَّ ويفعل ويجرِّب، ليأتي ويكتب عما يعرفه جيِّدًا وفقًا لوصية أستاذه «عيسى الحلو»؟ أم سيكتفي ببحثٍ ميدانيٍّ من خلال الأفراد الذين مرُّوا بهذه التجربة وهم يعيشون الآن في «الخرطوم» ولم يصابوا بداء الديك؛ أيْ نجوا من الموت؟ إذا كان هنالكَ مثل هؤلاء البشر! لأنه في الأربع سنوات السابقات مات تقريبًا كلُّ من دخل قبرًا للملوك النوبة. إذن بإمكانه أن يقابل الآخرين الذين لم يلجوا القبور، وعادوا وأقاموا عند أهليهم في المدن. على سبيل المثال ذلكَ الرجل الشهير بقصص الذهب: «أونور سدنا». الذي استمع إليه مرةً في إذاعة «إف إم ١٠٠» في لقاءٍ مع المذيعة المعروفة «لمياء متوكل»، وجده يحكي بحماسٍ أقرب للرعب، الشيء الذي جعل كثيرًا من المغامرين يذهبون لقرى الذهب حُبًّا في المغامرة ومشاهدة عجائب وغرائب الحياة هنالك، كما صوَّرها «أونور سدنا»، ولو في زياراتٍ قصيرة. ولكنهم كما عرف من بعضهم صدُّوا محبطين، فلم يروا الفرس الذهبيَّ ولا الشياطين التائهة في الصحراء، ولم يشاهدوا قبرًا نوبيًّا ولا أرطالًا من الذهب، كلُّ الذي وجدوه هو كمٌّ هائلٌ من الشباب يهيم على وجهه في الصحاري في غاية الإحباط والفلس وحرقان الروح، وبعضهم أُصيب بالجنون،

ليس تأثرًا بالثراء الفاحش الفجائيِّ وأرطال الذهب المتناثرة هنا وهنالكَ مثل الحجارة الجيرية، بل نتيجةً للإحباط وصعوبة الحصول على الذهب، وسوء ظروف المعيشة، وحرارة الجو، واستغلال التجار والشركات الكبيرة لمجهود الشابات والشباب الباحثين عن الثراء السريع ومباهج الحياة. لا أظنُّه سيحتاج للذهاب إلى هنالك، فالمياه ملوثةٌ بالموادِّ الكيميائية المستخدمة في عملية التعدين، وهي المياه ذاتها المستخدمة في الاستحمام وصُنع الأطعمة. والمعيشة في الأصقاع النائية الصحراوية القاسية، ذات تكلفةٍ عاليةٍ جدًّا، دعكَ من الثلاثي الكريه: الذُّبابُ والخُراءُ والعَفَنْ!

- بلاش رواية بلاش كلام فارغ.

انتهر نفسَه في غضب، مزَّق بعض أوراقٍ كانت تقبع أمامه قد كتب فيها ملحوظاتٍ وتخطيطًا عن الرواية التي كان يودُّ كتابتها، لاكَ بعضها في فمه وبصقه على الأرض سريعًا، لولا إنه توقَّف عن التدخين والصعوط وشُرب العَرَقِ لفعل واحدًا من الأفعال الثلاثة. أخذ جوَّاله ونقر على أرقامٍ يحفظها جيِّدًا، لتأتيه الاستجابةُ من الجانبِ الآخر بالترحيب، فيرد:

- كيفك؟
- تمام.
- ممكن نتقابل؟

– متين؟

– اليوم!

– أنا غير موجودة في «الخرطوم»، لي أسبوع في جبال النُوبة، في حملة ضد شلل الأطفال في المناطق التي لم تصلها وزارة الصحة للتطعيم، الحملة منطلقة من جنوب النيل الأزرق. مالك تذكرني الليلة إن شا الله خير؟

– لا، خير، تصلي بالسلامة.

– شكرا سأتصل بك عند عودتي، عندما أحضر من «جوبا»، لأنني سأذهب «جوبا» أولًا، سأقضي أسبوعًا مع «تابان»، سأشتري ليك قميص أفريقي جميل!

– شكرًا لك.

– إلى اللقاء.

أتى صوتُ أمِّه إليه من وسط الحوش، كانت تطلب من أبيه أن يلحق بها لحجرة «أدومة» ليريا ما حلَّ به، فهو يتحدَّث بصوتٍ عالٍ، وليس ذلكَ من طبيعته. وضع في فمه ابتسامةً كبيرةً لاستقبالها، هو يعرف كم يقلقان عليه، فهو الابن الوحيد لهما، ودائمًا ما يضعانه تحت الرعاية الزائدة ويراقبانه، وعلى الرغم من كبر سنه، إلا إنهما يعاملانه مثل طفلٍ في حجم كبير.

– شنو الأوراقْ المُشرَّطة دي؟

سأله والده وهو يشير إلى الأرض لأوراقٍ مُمزَّقةٍ مبعثرةٍ بعضها مأكول.

- معليش شوية أوراق.

قامت الأمُّ بجمعها، وتفحُّصها. قرأت بعض الكلمات والأسطر جهرًا، قالت له مبتسمة:

- رواية! ح تكتب رواية تانية؟

قال وهو يحافظ على ابتسامته:

- كنت عايز رواية، ولكن تركت الموضوع.

قالت له وهي تضع يدها في رأسه:

- لا، اكتبها، ابدأ الآن، لا تتوقف، استمر.

كاد والده أن يضحك وهو يرى إلحاح الأمِّ على كتابة الرواية. قال لها:

- سيكتبها عندما تجيه الشياطين من وادي السرد، شياطين الحكايات.

قالت الأمُّ وهي تضع رأس ولدها بين كفَّيها:

- اكتبها الآن ... ابدأ الآن ... قل لي سأبدأ.

قال لها وهو يمسك بيديها ويضعهما على المنضدة ويظلُّ ممسكًا بهما، وينظر إليهما في إشفاق:

- ح أفكِّر يا أمي مريم.

عندما خرج الوالدان، تمشَّى قليلًا في الغُرفة، ثمَّ عاد وجلس على المقعد، أخذ قلم الحبر الجاف، تناول ورقةً بيضاء، وبدأ يكتب:

«الجثةُ ترقد على السرير، ويلتفُّ حولها أفراد الأسرة المحزونون، وقلةٌ من الأصدقاء، وأقرباء زوجته «نصرة». في حقيقة الأمر لم يكن «فتح الله فراج» هنالك، لم تكن تلكَ الجثة المسجاة الآن على فراش الموت، الملفوفة بالكتان الأبيض، التي تفوح منها رائحة عطر السيد «علي الميرغني»، هي جثته. طالما لم يجرؤ أحد أفراد الأسرة أو المعزين على معرفة ما تحت القناع الشبيه بـ«فتح الله فراج»؛ فكانوا في عجلة من أمرهم لمواراته الثرى، وهي أيضًا ليست من عاداتهم أن يتأكدوا من أن ما تحت القناع ليس سوى مادةٍ ثقيلة، لا اسم ولا معنى ولا توصيف لها ...»

الفهرس

- سِفْرُ المُلُوك 9
- سِفْرُ الفُرْسَان 19
- سِفْرُ الدِّيك 33
- إِرَادَةُ الْبَقَاء 47
- خُلُقُ الْمَال 73
- حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْوَلَد 89
- صَائِدُ الْبَيْض 111
- حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْأُم 125
- أُونُورْ يُرِيدْ تَغْيِيرْ النِّزَام 155
- الْمَالُ وَالْبَنُونَ وَالدِّيك 171
- سُلْطَانَةُ الْجِنِّ وَالْإِنْس 189
- الْبَيْضَةُ الْحَجَرِيَّة 207
- الْأُمُّ وَالابْن 217
- مِنِفِسْتُو الدِّيكِ النُّوبِيِّ 233

- الْعَرُوسَان 243

- الْخَاطِبَات 249

- الْعَرُوس 253

- رَشَا جِبْرِيل 261

- حِكَايَةُ السر 275

- سِفْرُ الْبَيْت 287

- الدِّيكُ يَتَمَظْهَر 301

- سِفْرُ صَاحَبَةِ الرَّبَابَة 311

- سِفْرُ الحُرِّية 323

- جُنُونُ الدِّيك 339

- سِفْرُهُما 349

- سِفْرُ الاتِّحَاد 355

- سِفْرُ المَلْحُوظَات 361

- سِفْرُ أَمَاني 375

- سِفْرُ السَّرْد 385